المملكة العربية السعودية
وزارة المعـــارف
المكتبات المدرسية

أي بُنيّ

مقارنة بين
ماضينا و حاضرنا

الجزء الأول

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الرابعة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله .

أي بني.. مقارنة بين ماضينا وحاضرنا .ـ الرياض.

٣٨٨ ص ؛ ١٦ × ٢٣ سم (الجزء الأول)

ردمك : ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

١- السعودية - العادات والتقاليد

٢- السعودية - المأثورات الشعبية.

٣- السعودية - الأدب الشعبي

أ- العنوان

ديوي ٣٩٠,٠٩٥٣١ ١٦/٢٣٢١

رقم الإيداع: ١٦/٢٣٢١

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الرياض - الطبعة الرابعة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

أيْ بُنيّ

المقدمة

كلمات «أيْ بُنيّ»، التي ترددت في صفحات الكتاب، وجهتها في يوم ١٣ رمضان عام ١٣٨٨هـ في عمود جريدة الجزيرة، ثم وضعتها فيما بعد في كتاب «من حطب الليل» عام ١٣٩٨هـ ، قبل أن يكون لي إبن. وجهت هذه الكلمات بهذه الصورة، قاصداً أبناء هذا الجيل الذي نشأ بعد جيلنا، ولم يَرَ ما رأيناه، ولم يعان ما عانيناه. أردت أن أفتح له نافذة، يطلّ منها على عالم غير عالمه، سبق عالمه في الزمنِ، وغايره في كثير من مظاهره. ثم يعود بنظره مرتداً إلى حاضره، فيتبصر ما هو فيه، ويقارن ليرى الفرق الكبير، والبون الشاسع، ليجده في الغالب في صالحه. وأمّلت أن يدرك نعمة الله عليه أن أوجده في هذا الزمن، الذي توفّرت له فيه وسائل مريحة، لم تكن متاحة لأبيه في أول حياته، ولا جدّه في كل حياته. وأصبحت رهن إشارته إمكانات ضخمة طيِّعة، لم يكن أبوه أو جده يحلمان بها. ولو

قيل لهما عنها لأنكراها، ولو نقل الخبرَ ثقة رآها رأى العين لظناها ضربا من السحر و «التقمير».

وتعمّدت أن أُذكّره بنعمة الله عليه، وعلى جيله، وما يجب عليه من الشكر له، سبحانه وتعالى، لتدوم النّعمة، وتربو، وأمَّلت أن يُقدّرها حق قدرها، وأن يُغلِيَها، وأن يحسن استخدامها، والاستفادة منها. ورسمتها له صرحا شامخا بُنِيَ بتعب، وأقيمَ بجهد، وبعرق جبين ممن سبق جيلَه. فعليه أن يحافظ عليها أولاً، وأن يزيد عليها ثانيا، وأن تكون زيادته هذه عليها أكثر مما وجده، لأنه بالوسائل المتاحة له يتطلع الناس منه إلى ذلك.

وكانت هذه الكلمة «أي بني» نشرت على رأس مقالة مختصرة، طبيعتها طبيعة عمود في جريدة يومية سيّارة، وقد قرأها أحد الإخوان[1] حينئذ، وأحسن الظن بي وبها، واقترح أن أتوسع فيها، ووعدت بأن أنفّذ هذا الاقتراح، وحاولت بهذا الكتاب أن أفي بما

---

(١) هو معالي الأخ الدكتور/ غازي القصيبي.

وعدت به قبل سنوات .

وقـررت أن أسير فيما أكتبه على طريقة حديث المجالس، لأني نظرت في تأثير حديث المجالس في النـاس، فوجـدتـه بالغا، ووجدت أن إصغاءهم كامل، وبهجتهم في الغالب طافحة، وأنهم كثيرا ما يتناقلون ما يقال، ويسيرون بمقتضاه. فطمعت أن يحظى ما سوف أكتبه بما تحظى به أحاديث المجالس .

ولاحظت أن حديث المجالس يبدأ عفوا، ويأتي عرضـا، ولايتقيـد بنـظام، ولا يخضـع لترتيب أو تسلسل، ولا يستقيم على مجرى واحد، ولا يأخذ منحنى بعينـه. يستـطرد المتحـدث، ويخـرج عن الموضوع الذي بدأ به حديثه، وقد يبعد، ويشط، ويقفـز من قول إلى قول، ومن أمر إلى أمر، وقد يعود من أي منحنى إلى ما سبق أن بدأه من حديث. وقد يعود إلى الاستطراد ثم الابتعاد مرة أخرى. وقد يخلط بين جدّ وهـزل، ووعظ وإرشاد، وطرائف وغرائب. وقد يقاطَع المتكلم من متحدث جديد،

وقد يشدّ الناسَ حديث طريف، فيسكتون، ويصبحون وكأن على رؤوسهم الطّير، وقد يتكلم اثنان معا، وقد يتكلم أكثر من اثنين في وقت واحد، وقد يختلط الحديث فيصبح المتكلمون مثل «عصافير التّينة». ولكن الأمر الذي رجحته للاقتداء به والسّير على منواله، هو أن الملل قلّ أن يتطرق إلى الناس في هذه المجالس، بسبب التنوّع، الذي قد يفضي إلى ما هو غير معقول. ومن صفات مجالس الناس أنه حتى إذا قصّ قاصّ قصة غير معقولة، فإن هذا لا يجعلهم «يشمُرون» أو ينكمشون، بل ينطلقون يروون قصصا مماثلة، تضيف إلى ما قيل، حتى لو أبدوا أنهم يشكّون فيها أو في بعض أجزائها. وتتوالى القصص الغريبة عادة عن الجن، والسحر، والعين، يأتون فيها بما ورد في الشرع، وما قد يتعداه، ويتوسعون بذكر تفصيلات توحي بالمغالاة. ومع هذا يبقى الأمر طريفاً، وقد يكون كبير فائدة، إذا رَمَى إلى موعظة واعتبار.

عندما ترى بعض طبيعة هذه المجالس ظاهرا في

صفحات هذا الكتاب، فاعلم -حفظك الله من كل سوء- أن القصد هنا هو ما أتى هناك من فائدة ابتعاد الملل والضيق والضجر، وقد يتحمل الناس في المجالس بعض القول الثقيل، أو الشيء المكرّر، لأن بعده وليمة، التفكير فيها يزيل الضيق، ويبعد الضجر، أما كتابي هذا فمن السّهل إلقاؤه جانبا. ولهذا حرصت على التنويع والعفوية، والاستطراد، وهرولت منحدراً، أحياناً، مع سبسب الحديث، وأصعدت جاهداً أحيانا أخرى.

يقول الناس أحياناً إن الزمن يركض، ويردّ عليهم آخرون بأنه لا يركض، وإنما الناس يمرون عليه سراعا. ويقولون إن الزمن هو الزمن منذ أن خلق الله آدم، ولكن الناس يختلفون. يأتي جيل فيختلف عن جيل سابق، ويرى السابق في اللاحق خروجا على بعض الاعتبارات الاجتماعية، ويرى اللاحق في السابق جمودا، وبطء حركة في التقدم. وفي الماضي كان الاختلاف بين الجيلين يكاد لايذكر، فالعادات هي العادات، والأدوات هي

الأدوات، والدّواب هي الدّواب، والمساكن هي المساكن، واستعمال كل تلك هو الاستعمال، والاختلاف أحيانا وهميّ في ذهن الجيل الماضي، فالوالد يقول للابن إننا لم نكن نفعل ذلك في زماننا، وهم كانوا يفعلونه. ولكن الوالد نسي، أو اختلفت عنده أسس المقارنة، أو لا يريد أن يقرّ. وجاء زمن الاختراعات المتلاحقة، فبدأت بطيئة في أول الأمر، تدور عجلتها ببطء، ولكنها تكسب تدريجيا سرعة، حتى أصبحت «ريَش» عجلتها لا تُرى من السرعة في الدوران. وانفصل الجيل عن الجيل أو كاد، و«الْتَهى» الجيل الجديد بملاحقة الاختراعات ومتابعتها، ويحاول أن يهضم ما تلده معاملها ومصانعها، وأن يهنأ ويلتذّ بمكتشَف أو مخترَع. سار خلف هذه الاختراعات لاهثا، لا يكاد يجد فرصة لالتقاط أنفاسه، وسماع صوت الجيل الماضي، وهو يناديه، أو ينصحه، أو يؤنّبه، أو يبكّته، أو يحذّره، أو يتمتع بوجوده معه. أب يريد من ابنه ما كان أبوه أخذه منه: خدمة متناهية،

ومسـاندة كاملة، واحتراماً زائداً، وتعضيداً منتظماً يساعده على قطع صحراء الحياة أو غابتها. وأمّ تريد أن تتمتـع به قرّة عين لها، وهو يعيش زمنه، غير ملتفت إلى الوراء إلا ليرى كم قطع من الطريق.

هذا الجيل الراكض اللاهث هو الذي أخاطبه، ليقف ويلتفت خلفـه، ويـرى ما كان عليه أبوه، بمحيطه وآلاته ومعدّاته ودوابّه ومساكنه وعاداته، بافـراحه وأحزانه، بآلامه ومتعه، بوجده وعدمه، بتفكيره وانطباعاته، ويقارن بين ما كان والده عليه وما هو نفسه عليه، ويقول لما حباه الله به «الحمد للّه ربّ العالمين».

وكما يرى القارىء نصف الموضوع يتحدث عن الـتراث والنصف الآخـر عن الجـديـد، وبعض القصص التي كانت شائعة في ذلك الزمن انسابت، بدون ترتيب، بين الصفحات. ولم أتجنّب القصة عزوفا عما يشوبها من خرافة، ولا لتفاهة مظهرها، أو عدم توفر عناصرها، وإنما أتيت بها لأنها صورة

لمجتمع أود أن يكون رسمي له صادقا. أما الدفاع عنه أو إدانته فهذه تكون في حدود ما كان مقبولا في زمنه من معايير، وليس ما في زماننا من مقاييس. وسرد القصة يكشف عن الفكر في ذلك الزمن، وكيف كان يتحرك وما مساراته. وقد تكشف القصة ما يكمن خلف ما تركَته من أثر في بعض الأحيان على تصرفات الناس، لأن بعضها دخل في نطاق تربية الطفل، فقصة أم العنزين تمثل الخير والشر، وتوضح تغلب الأول على الثاني، وتبيّن المكر والخبث اللذين يسيران معا مع الشر، وتشد الصغار إلى ما حصل لنظرائهم من الصغار، أبناء أم العنزين، ومن طرف خفي تعطيهم دروسا في الحذر وعدم التهاون في تنفيذ الوصايا. أما أن أم العنزين والسعلوة تتكلمان وتذهبان إلى الصانع أو النجّار، ليركّب لهذه قرونا من حديد، ولتلك قرونا من خشب، فلا بد من التسامح معه من أجل عقل الطفل، واستعداده لقبول هذا المستحيل، وما أمر «ميكي ماوس»، و «مايتي مَوس» ، و (توم أند

جري» ببعيد. وهؤلاء لطفل العصر الحديث مثل أم العنزين والسعلوة لطفل الأمس.

واقتنصت بعض الفرص للاستطراد أو التعليق، أو لعلّي لم أقاوم الفرصة لّما سنحت، وهدفي كسر التطويل في فكرة ما حتى لا يملّ القارىء، ولم ألتزم الجدّ والصرامة إلا للمحات سريعة، وجعلت «التحميض» ديدني ما أمكنني ذلك، ولم أجعل المنهج منتظما على نسق واحد خشية الملل أيضا، فأحيانا أبدأ الحديث عن شيء بالقديم، وأحيانا بالجديد، وأحيانا أقفز من هذا إلى ذاك، وأعود مرة أخرى إلى ما تركت، وأحيانا أُدخل بينهما، وأقارن جزأ بجزء. وختمت بعض الأبواب بقصة، ولم ألتزم ذلك في باب آخر. واخترت في بعض الأحيان قصة شعبية من التراث، وأحيانا من الأدب العربي، وحاولت أن أفي في هذا بوعدي في أن يكون على نمط حديث المجالس. وقد لا يعلم القارىء أني احتفظت ببعض ما سمعته في بعض المجالس لأحلّي به ما كتبته في بعض الأبواب، واذا قدر الله لبعض

من كان في أحـد تلك المجـالس أن يقرأ ما كتبت فسـيرى بضاعة سبق أن جلبها في سوق القصص تباع عليه.

أن أحدنا إذا ما لمح سانحة من ذكريات الماضي، إهتـزّ فؤاده طربـا، وهـذه السانحة إمّا أن تكون ذكرى جميلة، فيتلذذ باستعادة بهجتها، التي أنس بها في يوم من الأيام، أو ذكرى مؤلمة، يتلذذ الآن بأن أذاهـا قد ارتفع وزال، ولم يبق له منها إلا ذكرى باهتة المعالم. وقد يرد لخيال الانسان منظر بسيط من المـاضي، يجعله يهتز نشوة، منظر السواني والجمال تدور في «المَحْـرَف» من «المِنْحـات»، أو ميـاه «الغْرُوب» وهي تصب في «اللّزا»، أو منظر الناقة، وهي «مُنوِّخة» باركة فتسمع صوت راعيها، فتلتفت التفاتة رزينة، برقبتها التي تنطق بالقوة والفراهة، أو بيت طين في شارع ضيق، أو نخلة تنوء بحملها الثقيل. أيّ واحد من هذه أو أمثالها يشدّ الانسان. قل، عن ذلك، إن شئت، إنّه الألفة، أو قل، إنه ذكرى الشباب الحلوة، وأيام الخلوّ من الهموم، أو

قل، ما قد تعثر عليه من أسباب أخرى. إنما الحقيقة الواضحة أن هذه المناظر تنقل المرء من حاضر هو فيه إلى ماض لم يبق إلا في الخيال، واللّذّة منه داخلية عميقة، وهي لذة لا توزن بشيء، يكفي أنها تنقل الانسان من عالم الحاضر إلى عالم الماضي، وقد يكون إلى عالم الماضي البعيد جدا.

والأمور التي يمكن أن يُكتب عنها في مجال المقارنة بين الماضي والحاضر للفت نظر الشباب كثيرة، وقد لا يسهل حصرها في كتاب واحد، والعزم أن يتبع هذا آخر، بعد أن تتوافر معلومات تكفي لأن تبرز قائمة وحدها، فالمحصول وافر، والحقل واسع، والأمر مرهون بوفاء الوقت، وتوفر الجهد، لأن الجديد اليوم قديم غداً، ولكل زمان شباب يُمكِن للشيب أن يخاطبوهم على النمط نفسه.

أيْ بُنيّ

الزير والقربة والثلاجة

أي بُنَيّ !

تدخل البيت بعد أن لعبت في الحديقة ما طاب لك أن تلعب، فتتخلص من «فردة» من فردتي حذائك عند الباب الخارجي، وتقذف بالأخرى، قذفك بالكرة، بعيداً. ثم تتلوى مسرعا مع الممرات في البيت، حتى تصل إلى غرفة المطبخ، لاهثا من الركض، وساخطا على العطش الذي اضطرك إلى قطع اللعب. وتختصر المسافة بين باب المطبخ والثلاجة بالقفز في الهواء، فتهجم عليها، وتقضي على هدوئها الذي يتلو بانتظام هديرها، وهما أمران يرمزان إلى تناقض في طبيعتها، ففي جانب منها نار حارقة، وفي جانب آخر برودة قاسية. وكأنها بهذا ترمز إلى التناقض في كثير من أمور الحياة العصرية.

تفتح باب الثلاجة بعنف، وتمدّ يدك بصلف، يُعضدك زملاؤك، تبحثون بين محتوياتها عما

تريدون. فهذا شراب معلّب، وهذا آخر معصور، وهذا ثالث غازيّ، وهذا ماء قراح. تُنَحّون هذا، وتبعدون هذا، وتقلّبون هذا، وتنكّسون هذا، وتسقطون رابعا، وتقيمون خامسا، وتصدّون عن سادس، إلى أن تستقرّوا على أحدها، وقد تختلفون. وما تختارونه في الغالب هو غير ما توجبه الصحة والمنفعة، وإنما تغريكم به اللذة والتقليد.

ثم تغلقون الثلاجة بعنف، كما فتحتموها بعنف، وتهتز المسكينة، وترتج أعضاؤها الداخلية، ومحتويات أعضائها. وتعود للهدير، تعوّض ما فات من برودتها في فتحتها. فهي أمينة مطيعة، لأن عقلها ثُبّت على ذلك، ولم يعطَ الخيار في غيره من احتجاج أو عقاب. وكأن هديرها حديث لنفسها، وشكوى من داخلها إلى داخلها.

لستَ ملوما يا بني، لا أنت ولا جيلك، فهذا زمنكم وتربيته. وكأني بكم كذلك تظنون أن الثلاجة كانت موجودة لخدمتكم منذ أن عرف

الانسان الحضارة، ومنذ أن بُنى البيت، ولا تدرون لا أنت ولا جيلك، ولا يمكن لكم أن تتصوروا أيضاً، كيف كان الماء يجلب، ويبرَّد، ويُهيأ إلى ما قبل خمسين عاما في نجد والحجاز وما يماثلها في الجزيرة العربية. لا تعرفون حتى أسماء الأواني والأوعية التي يجلب بها الماء أو يحفظ، فكيف تعرفون آداب الشرب التي عرفها أبوك وجيل أبيك، والآداب التي أدِّب بها أبوك وأقرانه، وطولبوا بالمحافظة عليها، وعوقبوا على التهاون بها؟

قد لا تعرفون، يا بُني، «البير» أو «القليب» أو «العين الجارية»، أو «المصافي»، أو «الحابوط» أو «اللّزا» أو «السّاقي»، إلا في مراكز عرض التراث، ومتاحفه، هذا إن كنتم من المهتمين المتابعين. لا تعرفون «القَلَص» ولا حوض شرب البعارين، ولا الدّلو «وعراقيه»، ولا «الرشا» وفتله، ولا «السّريح» وقصّه ومده، ولا «الجوبه» و «الكافّه» و «الزرنوق»، و «الجبل» بالبير والطيّ «والمشاقيص». ولا تعرفون، أو يمكن أن تتصوروا القربة،

الجـــديـــدة والشنّـــه، ولا أنها تدبـغ، ولا ما هو «الكرمع» اللازم لدباغتها، ولا الصميل ولا السقاء.

دعني أرسم لك ولزملائك صورة كانت تتكرّر كل يوم مرات ومرات، متصلة بالماء وجلب الماء، صورة «الروّايات»، وهن نساء فقيرات، لم يجدن غير هذه المهنة لرزقهن، يتجمّعن، بثيابهن الداكنة و «عبيهن» السوداء، على «جوبة» البئر أو «الكافّه» التي يستقين منها، كأنهن النحل على مدخل خلية، ليس في المنـظر وحـده، ولكن في الحديث أيضا، همهمـة وهمسـا، وهن يمتحن بأيـد أوهـاهـا سوء التغذية وقلتها، وأضناها الكدح والكد، وأرعشها البرد في الشتاء. فاذا امتلأت القرب، بعد أن ساعد بعضهن بعضا في الملء والحمل، ذهبن، كل واحدة تحمـل قربتها على ظهرها، تنوء بها خطوة خطوة، وقـد احـدودب ظهرها من ثقل ما تحمل، وقارب وجهها الأرض، كأنها تبحث عن شيء ثمين ضاع منها، أو كأنها تزن مسافة خطو كل رجل، فلا تزيد

واحـدة عن الأخـرى. أو لعل في صفحة الأرض أسطرا لا يعرف قراءتها إلا هي.

وعندما تصل إلى البيت الذي اتفقتْ مع أهله لجلب المـاء إليهم فيـه، تُلقي بحملهـا، وتتنفس الصعـداء، فالحمـل في الصيف حمل واحد، حمل ثقل، وفي الشتاء حملان حمل ثقل وحمل بلل، يرتعد معـه الجسم، الـذي تغطيه ثياب تقطر من الماء. صورة مرعبة في «المربعانية»، حينما نعرف أن غيرها يلبس طبقات من الثياب، ويأكل أدسم الطعام، ويتدفأ قبل الخروج من البيت. ومع هذا يحمل هم البرد خارجه.

وتعلق قربتها في البيت الذي ولجته، أو تصبّها في قربة أصحاب البيت «الشنّه»، التي غالبا ما تكون معلقة في وسط الدار، يمر بها النسيم مداعبا، متى ما أسعـدهـا بهبّـة منه، يحاول بمروره جاهدا أن يبردها، يساعده في ذلك، أو لعله ينافسه، نضح المـاء المتسلل من مسـام القـربـة. وإذا جاء وقت

القيلولة، وصار من حظك أن تنام قريبا من القربة، في «مـطّرق» النسيم، نمت على موسيقى رتيبـة، لُحّنت بتناغم بين القربة والوعاء الذي وضع تحتها، وهـو لازمة من لوازمها، يتلقى نقط النضح الذي ينزل منها عليه بردا وسلاما. أتدري يا بني ما يسمى اللحن الذي تعزفه أوتار هذه النقط في هذه الجوقة الموسيقية؟ إسمه «ناقوط» القربة، ويضرب المثل به في الرتابة. وكان بودي أن أقلدّه، فأسمعك إياه، الا أن الورقة التي أكتب عليها متمدّنة، وتأنف أن تبيّنه لرتـابتـه، إن صانعها غربي، والغربيون لا يحبون الرتابة في الموسيقى، فما عليك الا أن تسمعه مني مواجهة، من فمي إلى أذنك.

هذا الماء المتجمع، يا بني، من نقط القربة غالٍ عنـدنـا ونحن صغـار، لسببين: الأول أنه بارد، والثاني أنه جاهز للشرب، لا نحتاج عند الورود إليه إلى من يصبه لنـا من القـربة عند العطش، لأنّ المستنجَد به لا يأتي في نظرنا بالسرعة التي نرضاها، والتي تتناسب مع استعجالنا في طلب تمام الأمور،

فنحن يا بني، في هذا، مثلكم في عجلة من أمرنا دائما، إلا فيما يحتاج منا فعلا إلى عجلة. هذا المستنجد به غالبا ما يكون الأم أو العمّة أو الخالة، تأتي من مكان ما من البيت على ندائنا «الصّلْف»، المتكرر، المتتابع، كأنه مطرقة تهوي على أعصابها، وتأتي «بالطاسة»، وتفك «وكاء» القربة، وهو غالبا عقدة «سير» وتُميل «تصلّ» القربة إن كان الماء الذي فيها قليلا، من جهة «العِيْز» وهو خلفيّ القربة، حيث مخيطها، وتحرص على ألا تصبّ منها الا المقدار المطلوب، وتأخذ حذرها ألا تفرّ نقطة أو نقطتان إلى الأرض، توفيراً وحرصاً.

بقيت نقطة أخّرتها عن مكانها من الحديث لأسرّ بها اليك. وأرجو ألا يسمعنا ثالث، حتى لا نتهم نحن وزمننا المبارك بالتأخر. الماء الذي يتجمع، يا بني، من «ناقوط» القربة عددت لك مزاياه، وأبقيت للهمس، هنا أمرين: أحدهما محل انتقاد، والآخر يستحق الإشادة. أما الأول المنتقَد، فهو أن القطة، وهي في الغالب متوحشة، تشاركنا نعيم

برودة الماء المتجمع من الناقوط، تشاركنا إياه خلسة وبحذر. وأما المشاد به فهو كما يقول الحديث كل نفس رطبـة فيها أجر، وأرجو أن يكتبه لنا ولأهل زماننا ولكم وللمسلمين أجمعين، وصلى الله على محمد.

وبعد يا بُنيّ :

لعلك تريد الآن أن تسمع قصة جدك مع أبيه عن المـاء والقربة، وهي طريفة تعطيك فكرة عن الطريقة التي كانوا يربون أبناءهم بها، وهي تختلف عن الطريقة التي ربيناكم عليها، وعليك أن تثبت، أنت وجيلك، أن تربيتنا لكم أحسن من تربيتهم لنا، بأن تكونوا خيرا منا، أرجو أن يساعدكم الله على ذلك.

في تلك الأيـام كان الناس لا يأكلون إلا وجبة رئيسية واحدة، وكانوا يتناولونها بعد العصر، وقرب أذان المغـرب، فدخـل والـد جدك، ورأى جدك حانقا يبكي ويصرخ، ويحفر الأرض غضبا بعقبي

قدميه. فسأل والد جدك والدة جدك عما به، قالت إنه انتهى من العشاء، ويريد أن يشرب ماء. (وشُرب الماء، يا بني، عندهم بعد الأكل منتقَد، لأنه مضر) فبدلا من أن ينهره أو يسكته بالقوة، أحضر «طاسة الخراف»، وهي وعاء كبير يجمع فيه ما يجنى من التمر من النخلة، وإذا ملئت بالماء تكفي لسقيا بقرة. ونكس أب الجد «صلّ»، القربة فيها، بجانب جدك، رحمه الله، وقال له: «إني كنت في طريقي إلى البيت، ومررت بالمقبرة، فرأيت فلانا يحفر قبراً، ويقول: يا رزّاق يا كريم! وقد يستجيب الله له، فتكون أنت رزقه». وقال له: «إشرب»، ثم أدار ظهره، وراح في طريقه وتركه.

يقول جدك: نظرت في «طاسة الخراف» الملأى بالماء، ورأيت وجهي في صفحة الماء، وتمثّل لي فيها عزرائيل، الذي يتحدثون عنه، وأصبت برعب شديد، فلم أشرب منه، ولم أشرب بعد وجبة الطعام ماء، بعد ذلك اليوم.

هذا، يا بنَي، وصف الماء وجلبه وتبريده وشربه في نجد. أما في مكة فالأمر في المشقة مماثل، ولكنه مختلف في الصّفة والتفصيل: في زمن أبيك. كان هناك «البازان»، ولعلها كلمة تركية، تحل محلها عند بعض النـاس «الخـرزة». والبازان، مركز لتجمّع المـاء العذب، الذي يأتي إلى مكة شرفها الله، من جهة منى، من عين تسمى عين زبيدة، لأن زبيدة زوجة هارون الرشيد، كما يقال، هي التي سهلت وصول الماء إلى مكة، من منبعه هناك.

في كل حيّ، يا بني، في الغالب بازان، وعليه سقاؤون يحملون الماء العذب بالقِرَب، وهذا قليل، أو بالصفـائح، وهو الأغلب. يحمل الواحد منهم على كتفـه «زفّـة» خشبـة أو عودا من أعـواد نبت «البـوص»، شُذِب بالـطول من طرفـه إلى طرفه، نصفـين، يوضـع في طرف النصف سلسلة تنتهي بصفيحة، وفي الطرف الثاني مثله، يوازن السقاء بين الصفيحتـين على كتفه. يتفق أحد الناس مع سقـاء بعينـه أحيـانا، وأحيانا يشتري من أحدهم

عندما يحتاج، فيسد بذلك حاجته. والماء في البيت يصب في «الحنفية»، وهي تجويف في الجدار مُعدّ لهذا الغرض بطريقة لا ينفذ خلال جوانبها الماء، لأنها معـالجـة بالاسمنت. ولهذه الحنفية أنبوب في أسفلها، يتحكم فيه، للشرب أو الوضوء.

وللسقـائـين شيـخ ونقيب، يحكم أمـورهم، ويسمـع شكـواهم، وشكـوى النـاس منهم، ويعاقبهم أحيانا على خطئهم عقابا غريبا، الرمز فيه أقرب من الألم، لأن فيه ضربا وفيه عصا، ولكنه لا يعدو أن يكون لمسا بهذه العصا، يسبقه أو يتبعه قفز من فوق المعـاقَب الممـدّد، وتـرداد جمل متعـارف عليها. وهي محاكمة طريفة، يستحق أن يكتب عنها مقـال خاص، تدوَّن فيـه ألفـاظ المحـاكمـة، وإجـراءاتهـا وأفـرادهـا، ويتعـرف فيه إلى أصلها وتـطورها. ولو كان أبوك ناضج العقل حين كان يجلس ينـظر إلى هذه المحـاكمات، لدوَّن كلماتها، ولسأل عن أصولها. ولكنه كان حينئذ مثلك اليوم، ليست هذه وأمثالها أكبر همّه.

يحمل السقاء الماء إلى البيت الذي «عامله» واتفق معه صاحبه، واستأجره على نقله، يحمله منتظما أحيانا في أوقات محددة، ومنقطعا حسب الحاجة أحيانا. وأحيانا يحمل «الزفّة» ويدلل عليها، وبصوت يعرفه الناس.

وقد تبدأ مساومة بين السقاء عارض الماء، حامله، والراغب في شرائه. وقد يكون البيت في منتصف الجبل أو في أعلاه، مما يضطر السقاء إلى الوصول إلى هذا البيت المعلق في قنة الجبل، ينهكه الصعود، ويجهده الطلوع، ويلفحه السموم، وتجرح أقدامه الأحجار الحادة، ولا يخفف ذلك إلا إطلالة، وهو نازل، على شعاب مكة ووديانها، فيها رضى وقناعة.

وتنتهي مهمة السقاء الذي أوصل ماء الشرب والاغتسال، وتبدأ مهمة صاحبة البيت مع أدوات الشرب بجانب الحنفية: الزير، وهو حِب من الفخّار، تسمح طبيعة النَّضْح فيه ببرودة الماء

بداخله. ومنـــه تملأ «الشراب» أو «القلل» (جمـع شربة أو قلة) وهي من الفخار أيضاً، وهي ناضحة كذلك، وفيها يبرد الماء مثل الزير، ولها كرسي، في الغالب يكون جذابا، تتراوح سعته ليحمل ما بين واحدة أو اثنتين أو ثلاث أو أكثر. كل ذلك بتنظيم جميل متقن، يزيد من تألّقه لَمعان الأغطية الصفراء «للشراب»، وبجـانبهـا، أو مقلوبا فوقها، كأس للشرب. وكـثـيرا ما تُبخَّـــر الشراب باللبـــان أو المستكى، أو يضاف إلى ما فيها من ماء، ماء الورد أو الكادي. وهو أمر يليق بماء زمزم المريء، أو ماء عين زبيدة النمير.

وعطش أبيك، يا بني ، في مكة لا يقل عنه في نجد، فمكة المكرمة، ـشرفها الله ـ وحرّها وسمومها ونفث جبالها الحارق في الصيف يعصر ما في جسمه من ماء، فالعـرق من المسامّ نوافير تقذف، وليس نقـــطا تطل، والسـلاح الـوحيـد هو المـراوح من الخـوص، ولعـل الفـرصة تسنح لوصف حرّ مكة وذكرياته والتغلب عليه، فيما بعد.

والزير، يا بني ، والشربة، دخلا حياة الناس، ولو كنتَ حينئذ مشاهدا لذلك الزمن، لسمعت من يقول لك، وقد شك في أنك صائم، لصغرك: «أصائم أنت أو من وراء الزير»؟

هذا ما أنت فيه اليوم وأقرانك، وهذا ما كان عليه أبوك وأقرانه، فاحمد الله يا بني على ما أنتم عليه، أنت وهم، وتذكّر، ما استطعت، الفرق بين ذاك الزمن وهذا، وحاول، أنت وهم، أن ترفعوا البناء الذي وجدتموه مشادا، وأن تصونوه، أولا بشكر الله تعالى، وثانيا بالعمل.

الشكر، يا بُنيَ، يزيد النعم، وينمّيها، كما قلت لك مرارا، وتكرارا، ولعلك تتطلع إلى ما سبق أن قرأت عليك في هذا الباب، مما دونته عن الشكر والامتنان، والإقرار بالمعروف المُسْدَى ومقابلته بما يستحق. وبما سبق أن حثثتك عليه في هذا الجانب، حتى يزيدك الله مما تحب.

تذكر، يا بني، ما قاله أحد الحكماء من أن «المنعم

أفضل من الشاكر، لأنه جعل له السبيل إلى الشكر»[1]. فمن أسدى اليك معروفا فتذكّر تجاهه هذا القول، وأول ما تتذكره نِعم رب العالمين عليك، وهي لا تعدّ ولا تحصى.

وفي الحديث، يا بني، أن رجلا قال في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: «اللهم ربنا لك الحمد، حمدا زكيا طيبا مباركا فيه». فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: «أيّكم صاحب الكلمة»؟ قال أحدهم: «أنا يا رسول الله». قال ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرون أيهم يكتبها أولاً»[2].

أرأيت كيف تتتابع نعم الله بالشكر.

إقرأ هذه القصة يا بني، لتكشف لك جانبا مضيئا من جوانب شكر النعم، والاقرار بالمعروف، وهو من درجات الشكر:

---

(١) المحاسن والمساوى. ١٢١.

(٢) المحاسن والمساوى. ١٢٣.

لما قَتَل مسلمة بن عبدالملك يزيد بن المهلب، أمر أن يحضر الشعراء ليقولوا في ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ما خلا رجلا من بني دارم، فإنه قال: «لا أذم رجلا لا أملك رَبْعاً ولا مالاً ولا أثاثاً إلا منه، ولو قُطّعت إرباً إرباً، ولقد رثيته بأحسن ما يرثى به رجل». فأنشد أبياتا رائعة، فجزاه مسلمة خيرا. وقال: «إذا اصطُنعَ، فلْيُصْطَنَعْ مثلُ هذا».

الموقد والمطبخ

أي بُنَيّ !

رأيتك اليوم وأنت تجول في المطبخ، تنتقل من ركن إلى ركن، ومن جانب إلى جانب، تفصّل في أوامرك رغباتك، وتردّد على المأمورين ما جئت من أجل تحقيقه، وقد تبينتُ أنك، وزملاءك، تريدون، واليوم الخميس، يوم الإجازة، أن تأكلوا وجبة طعام وطنّية شهيّة، ترى أهي مرقوق أو مطازيز، أو جريش، أو قرصان، أم لعلها كبسة رز، أو سليق، أو رز بخاري، أو ندي، أو سلات، أو معدوس، أو هريس، لم أتحقق، فقد كنت في عجلة من أمري، إلا أن هذا لم يمنعني من أن أفكر في الأمر، وأقارن بين ما توفر لك ولزملائك اليوم من إمكانات حديثة. ثم قادني هذا وأنا أراك تمر بالمطبخ، وتصدر الأوامر إلى أن أقارن بين ما توفر فيه من امكانات، وبين الامكانات التي كانت في زمن مضى، قبل خمسين عاما، وأنا هذه الأيام

مغرم بالمقارنة، أو لعلها تفرض نفسها عليّ فرضا؛ لأن الصـور القـديمة للأشياء لا تزال واضحة في ذهني، وتطل دائما بالحاح على الواقع الذي يجعلها أحيانا تغار منه، وأحيانا تحمد الله أنها لم تبتل بما غيّر كيانها.

كنتُ، عنـدمـا رأيتك، مهتما باعطاء أوامر لمن حولـك، تأمـرهم بمراعاة تقديم الأكل بالطريقة الفلانية، وبالوقت الفلاني، وهم يظهرون الطاعة ويبطنون ما يعرفونه جيدا من أن هذا لا أهمية له، لأنـك، وأصحـابـك، سوف تجوعون قبل الوقت المحدد للأكل، ولن تتنبهوا للطريقة، أو الكيفية، التي قدم بها، بل قد يختلف مكـان التقـديم، فلا تلاحـظون ذلـك، لأن الجـوع والـرغبة في سرعة العودة إلى الملعب، سوف يُنسيانكم ما قلتم، وما اشترطتم، وما طلبتم.

أجلت فكري، يا بني، في الإمكانات الحديثة في المطبخ، من فرن على الغاز، وشوّاية على الكهرباء،

وطحّانة لحم، وعصّارة فاكهة، وبشّارة خضرة، كلها تتسم بالنظافة والكفاءة، وسهولة الاستعمال، وسيطرة المستعمل على أجزائها، والتفنن في الاستفادة منها، مما جعلها فعلا لا تزيد عن وسيلة تؤدي خدمة محدّدة لغاية أهم.

ليتك تتصور معي المطبخ في الماضي، واسمه حينئذ «الموقد»، لو فعلت، لحمدت الله على نعمة أنت وجيلك فيها، أرجو أن تقدّروها حق قدرها، فهي تستحق ذلك. وسأعطيك لمحة عن «الموقد» في الماضي، وقت شباب أبيك. وسأبدأ من مولد الحطب، وهو أهم عنصر في الطاقة حينئذ. كان يذهب الحطّاب قبل شروق الشمس في أغلب الأحيان، يتوقف هذا على بعد المكان الذي يجمع منه الحطب، فإذا تجمّع له منه ما يريد، وقد لا يتمكن من ذلك قبل عصر ذلك اليوم، حمله على بعيره، وجاء به يجلبه في المدينة، حيث يُشترى منه. إنه لا يفرح يا بني ببيع حطبه فقط، ولكنه يفرح أيضاً «بالقدوع» أو «الهجور»، هذا في الصباح، إن

باع الحطب في الصباح، وهذا في العصر إن باع الحطب عصراً، «والهجور» أو «القدوع» تميرات تقدّم له بعد أن يدخل الحطب نقلا من على ظهر جمله إلى «المراح» في الغالب، ومع التمر وعاء ماء يؤنس وحشة التمر. يأكله كله، أو بعضه، وقد «يختشّ» شيئا منه في «ردنه» يفرّح به زوجه وأطفاله. ولعل هذه العادة جاءت امتدادا للكرم الذي كان من طبيعتهم، فالحطّاب دخل بيتك، ومن العيب ألا يذوق شيئا. وسأقص عليك في نهاية حديثي عن هذا الجانب قصة لوالدك مع حطاب ومع التمر، وأرجو ألا أنسى، لأني يا بني أصبحت مع الكبر والشيب أنسى، وأنسى الشيء الحديث، أما القديم فكما تراني أقصه بتفصيل. والشيب آفة الذاكرة، وأشياء أخرى منها ما أنطق الشاعر[1] بقوله:

يا بياض المشيب سوّدت وجهي
عند بيض الوجوه سود القرون

(١) ابن الرومي

وطالما شكا الناس من الشيب، إستمع إلى أحدهم، وقد سلّ سيفا، يصاول به الشيب:

شكوت من الشّيب حتى ضجرت
فدبّ إلَى عارضي واشتعل
وسوّد وجهي فسودته فعلت
به مثلما قد فعل[1]

ولكن - والحمد لله - لم أصل بعد إلى الحالة التي أشار إليها أبو عمرو بن العلاء عندما قيل له: «كيف أصبحت»؟ قال: «أصبحت كما قال ربيع الفزاري».

أصبحت لا أحمل السلاح ولا
أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به
وحدي وأخشى الرياح والمطرا[2]

---

(١) المحاسن والمساوي. ٣٥١.

(٢) محاضرات الأدباء ١٦٢.

أراني استطردت إلى أمر لا يهمك، جرّني إليه ما يهمّني، فلأعد إلى ما كنت فيه:

المفروض في الحطب أن يكون جافًا، تلتهمه النار بشراهة وشهية، ولكنّه قد لايكون كذلك، فيحتاج إلى من يضعه في الشمس حتى يجفّ، وهي كفيلة بذلك، ألا تريد أن أقصّ عليك ما قد تمرّ بك إشارة عنه، فلا تعرف مرماها، وهي خاصة بالحطب الرطب. إعتدل إذاً في جلستك، فقد «إنسلحت» على الكرسي، وأصبح ظهرك وكتفاك هما الجالسَيْن على المقعد، وهي العادة التي تتبعها في جلستك، وتنحدر إليها بعد دقائق من جلوسك جلسة صحيحة:

سُمع أحد الحطّابين، وهو يجمع الحطب، ويُدخل بين أعواد الحطب اليابسة أعواداً رطبة لقلة اليابس، وهو نوع من الغش، يقول: «يعميك أنتِ يا امرأة»، «يعميك أنتِ»، يردد هذه الكلمة كلما دسّ

عوداً أخضر بين الأعواد اليابسة. فاستغرب من حوله كلامه، وسألوه عما يعنيه، ومَن المخاطَب؟ فقال: «إني أتوقع ممن ستوقد بهذا الحطب عندما توقد به، «ويعكم» ويدخن على عيونها، ويكاد يعميها الدخان الذي يحدثه «الإيقاد» بالحطب الأخضر، أن تقول وهي تجفف دمعها: «الله يعميك يا الحطّاب مثلما أعميت عيوني». فأنا أريد أن أسبقها بالدعاء عليها».

أرأيت، يا بني، لست أنت الذي يشتم الناس ويدعو عليهم، ولا يخطر بباله أن يسامح، وهذه ليست صفة فيك وفي جيلك، لا، الحق يقال، حتى جيل والدك، في هذه السن كانت تأخذهم العزة بالأثم ويبدؤون الشر.

نعود إلى الحطب، واستعماله للطبخ، فإيقاده أمر يأخذ وقتا، ولابد من موالاة وضع الحطب على النّار حتى لا تخمد، ويجب ألا يوضع أقل من المطلوب

فيتلبّد الأكل ولا ينضج، ولا أكثر من اللازم للطبخ حتى لا يحترق. ثم تأتي مرحلة إبعاد الجمر عن منتصف أسفل القدر، ووضع «الملّة» تحت أطرافه، (والملّة هي الرماد الحار) وهو منتصب على ثلاث مناصب تبعده عن الأرض، وترفعه المساحة التي تزن حرارة النّار وحاجة الطبخ لها، واقتُصر على ثلاث مناصب لأنها أقل عدد يمكن أن ينتصب عليه القدر، والأربع لا تسمح بمساحة تمكّن واضع الحطب أو محرّك الجمر من التحكم فيها تحت القدر. والمناصب (الأثافي) التي أحدثك عنها، يا بني، هي التي تسمعها في المثل الذي يقول: «القدر ما ينتصب إلا على ثلاث»، إشارة إلى أقل قَدر من أي أمر المرء في حاجة إليه.

والمنصبة أيضاً هي التي تسمع عنها في قصّة جحا، ولا بأس من سردها هنا، لصلتها بالموضوع، ولأنك ملول، وأخشى أن لا تتابع أمر الطبخ والمطبخ إلا إذا جاء ما يغريك بهذه المتابعة، فأنت، يابني، وجيلك تحتاجون إلى «مداراة»، وسياسة

رفيقة، حتى تقبلوا الخير والصالح لكم. ألم أقل لك في إحدى المرات وأنا أغريك بثواب بعد عمل فيه لك نفع، ولكنك تأباه إلا بأغراء، إنك مثل حصان «السِرّك» يأتي بالأعاجيب من الطاعة، ليحصل على قطعة السكر في نهاية الأمر.

ولا أستبعد، يا بني، أننا في جيلنا كنا مثلكم، عندما كنا في سنّكم، إذ لا أنسى أن شخصا أخذ يؤنب ابنه على فعلٍ فعله، ويقول له: «إني عندما كنت في سنك لم أكن لأعمل مثل هذا»، فمال إليه شيخ «شائب» مثله، وهمس في أذنه: «لعلك نسيت يوم أن «صرمنا» حائط فلان»، يقصد أنهم أغاروا على البستان وحصدوا بعض القمح الأخضر. و«لعلك نسيت يوم تسللنا إلى حائط فلان، وسرقتَ «الجرو الفاصخ» (البطيخ المستوي)، وأخذ الفلاح يجري خلفنا، وقد عضّ كل منا «شليله»، «أسفل

ثوبه»، وجعلت البطيخ على أعلى الحائط، تمهيدا للقفز، على أمل أن تتناوله حينما تكون خارج سور المزرعة، ولكنك في عجلتك وارتباكك، لمست البطيخ، وكنت قد وصلت الأرض، فسقط على رأسك، وانكسر وخرّ ما بداخله على رأسك، ونزل على وجهك ، ورقبتك. ومع الرعب والخوف، وتوقُّع ضرب الفلاح لك على رأسك، ظننت فعلا أنه ضربك، وأن هذا مخك قد خرج من رأسك، فخارت قواك، و«تحرولت»، أصابك مثل الشلل، ولولا أننا حملناك لكان فيك اليوم عاهة من ضرب الفلاح، هي دمغة التاريخ لعهد مضى، ولكنت اليوم في حاجة إلى تفسير مصدرها لابنك وغيره».

فردّ عليه الآخر باستخذاء مشوب بابتسامة عليها سيماء الحياء، وقال: «هداك

الله، يا أبـا فلان، إخفض صوتك حتى لا يسمعك ابني، رحم الله تلك الأيام ما أحلاها».

أي بُنَيّ !

عفـواً، فقد أخذني الاستطراد عن القصة التي وعـدتـك بها، وأرجـو ألا تكون قد نسيتَها، ولا أخالك فاعلا، فأنت لا تنسى المشوقات. وأظنك أيضـاً سوف تسـامحني على الاستطراد، لأني أراك تحب برامج الشيخ الفاضل علي الطنطاوي، وأحد الأسباب في حبّ الناس له كثرة استطراده، وما يأتي به من ملح وطرائف، يسوقها عن تجربة مرّت به، أو لأنه عرف أصحابها، أو قرأها، وهو رجل واسع الاطلاع كما تعرف.

أمـا قصـة جحـا يا بني، مع «المنصبـة» (واحـــدة الأثـــافي)، ومـــا أدراك ما جحـا وقصصه، فقد أزعجه أن يرى تمرا مكدّسا في ساحة البيت، وقت «جداد» النخل، وجني

ثمـره، وطـال الـوقت على بقـاء التمـر في مكـانـه، واحتـاز مكانا واسعا من البيت، وأصبـح جحـا ينـظر إليه وكأنه على كتفه. وكلما سأل والدته عن التمر قالت إنه للبدو، وأنهم سوف يأتون لأخذه. فرأى قافلة للبدو (صادرة من البلدة) بعد أن باعت وامترت. فقـال لهم الكلمة المشهورة: «يا بدو شيلوا خصفكم، يا بدو ضيق علينا». فاستجابوا له فرحـين، وحملوا التمـر مسرعـين. وفي دقـائق أصبـح البيت من التمر بلقعا. وقد ذهلت والـدته عندما عادت، واحتارت في أمره، فإن صدَقَتْه في أمرٍ طبيعته سر فضح الأمر، وإن أوهمته تصرّفَ في ضوء الوهم. فأخـبرتـه عن التمـر بالحقيقة، فطمأنها أن الأمـر مستدرك، وأن التمر سوف يعود إلى الدار. فذهب في أثر القافلة، وقبل أن تحط رحـالهـا سبقهـا، ودفن جسمه في الرمال، قرب بعض الأحجـار التي تصلح منـاصب

للقدور، وأبقى رأسه ظاهرا حتى يُظن أنه حجر يصلح «مِنصَبة»، وكان الوقت ليلا، والبدو في ذلك الزمن يرعبهم أمران: «الجن والجدري». جاء أحد الرجال، أو لعلها إحدى النسوة، لجمع مناصب للقدور، فلما «أكهب» انحنى وأهوى ليأخذ رأس جحا، ظنّا منه أنه منصبة، هب جحا، وقال: «جحه ولد علي تحسبون رأسي بالظلامي منصبة» فجفل الرجل وفزع، وأفزع من في القافلة، ظنا أن ما رآه هو من الجن، فهربوا لا يلوون على شيء، تاركين إبلهم وأحمالهم، فاستاقها جحا، وأنزل أحمالها من التمر في بيت أمه.

لقد سمعت، يا بني، مني قصصا كثيرة عن جحا، وكأني بك تطمع أن أزيدك منها، ولكني لن أفعل هنا، وإنما في نهاية الحديث، وسأعود للحديث عن النار ووقودها، وكان اسمها عندنا حينئذ «الضَّو» وليس النار، لأن النار كانت تعني

عنـدنـا نار الله الموقدة يوم الدين. وسأحدّثك عن الاستفـادة من الحـطب. ولا تسـل، يا بني، عن الدخان الذي يعم المكان، والمجهود الذي يبذل في النفخ على النار حتى توقد فيقل الدخان، ومراقبتها مشتعلة حتى لا تخمد. ولا تسل عما يحدثه الدخان من دوار في الـرأس، ودمع في العين، وسعال في الصدر، ورائحة تعلق بالثياب، وشرر يتطاير يمينا وشمالا، كأنه صواريخ زينة بتبعثره وأضوائه.

وأما «الجلّة»، وما هي، ومن أي شيء مادتها، وما هي أداة جلّها وتشكيلها، فلن أحدثك عنها، حتى لا تتخذها أنت وزملاؤك المتربصون سلاحا للهجـوم على جيلنـا، وحتى لا تحاكمني الأمّهـات والجـدات الـذين على قيـد الحيـاة، لأني أعـطيت جيـلكـم أداة حادة تهاجمـونهن بها، وتتهمـونهن بالتخلف. فالصورة ليست من البهجة بما يشجّع على الخـوض فيهـا. ولك أن تسأل شفهيا من هو أشجع مني. ولكني متأكد أنك سوف تنسى أن تسأل.

أيْ بُنيّ

هذا جانب واحد من جوانب النشاط في المطبخ، وتركت «التّنّور» والحديث عنه، و«الوجار» ووصفه، حتى لا يطول الحديث، فتملّ، وقد تأتي لذلك مناسبة أخرى، أختلك فيها بإعطائك معلومات على غرة حتى لا تقاوم، وحتى تستمع إليّ والأدب يحدوك إلى ذلك، وإلا فلن يكون منك معي إلا جسمك، وصورة أذنك، أما عقلك فهو بعيد، في الغالب يتابع لعبة الكرة بين الفريق الفلاني، والفريق الفلاني. وعيناك في (الببسي) التي في الثلاجة، وقد اخترق تصورك الحجب، فأنت تراها الآن من خلف أبواب الحديد والصفيح. وكأني بك تسمع فرقعة فتحها، ولعل هذه الفرقعة عندكم، أيها الشباب، تقول: «أنا هنا» بكل ما في هذه المناداة من إغراء. لعل نقص حسنات من اخترع (الببسي) تكون زيادة في حسناتنا ونحن ندفع لكم ثمنها، لتجهز على شهيتكم للأكل، قل آمين على الأقل.

والحديث عن الكرة ذو شجون، يا بني، وفرق

بين نظرة جيلنـا لها ونظرتكم لها. إسمع بعض ما حدث لأبيك وبعض زملائه في الفصل. كان هناك يوم في الاسبـوع، على بعض الـطلبة متناوبين أن يذهبـوا فيه بعد صلاة العصر خارج المدينة للعب الكرة، ولم يكن هناك ملعب، وإنما كان هناك أرض فضـاء تصلح لذلـك، ولكنـه وعـدد من الزملاء لا يـذهبـون للعب، لأسباب عديدة، أحدها أنهم كانوا يستحون من لبس لباس الرياضة، والثاني بُعد المكـان، والثالث أنها تحرمهم من لُعب أخرى في الحي هي أقرب إلى أنفسهم، وكان المشرِف لا يمانع في أن يحل متبرع محل من جاء دوره للذهاب. وكان معهم زميـل يتـبرع ظاهرا، ويأخذ المقابل باطنا، والمقـابـل هو «أيسكـريم» يعطونه إياه في الفسحة الكـبرى يوم اللعب، وكـان «الايسكـريم» حينئذ يسمى «داندرما». أظن الأمر معكوساً الآن فأنتم على استعداد لاعطاء «الايسكريم» مقابل أن تذهبوا للكرة لا أن تهربوا منها. أرأيت الفرق بين زمننا وزمنك؟

وكـــدت أنسى، يا بني ، القصـــة التي وعدتك بها منذ قليل، الخاصة بالحطّابين: إشترى رجل، بيته بجوار بين جدك، حمل حطب، وطلب من والـدك، وهـو حينئذ، إبن عشر سنين تقريبا، أن يدخل إلى البيت وأن يقدم للحطاب، بعد أن يُدخل الحطب، «طاسة» من التمر، وأخرى بها ماء. وأكد على والدك ألا يدع الحطّاب يأخذ شيئا من التمـــر في ردنـــه، ولم يعط والـــدك وعـدا بالانصيـاع لهذا الشرط، وأمّل أن الحطاب سوف يأكـل التمر كله دون أن يأخذ شيئا معه. ولكن الحطاب أخلف رجاء والدك، وأخـذ ثلاث تمرات فقط، ونكّس التمر في ردنـه، ومصّ أصـابعـه، ونهض، ولم يترك خلفه إلا طاسة الماء وثلاثا من النوى. وبعد صلاة المغـرب سأل الجـار والدك عما فعله الحطّاب، وقد أمّل والدك أن الرجل لايراه، وإن رآه لن يسأله، ولكن الرجل رآه وسأله،

والآن لابـد من الجـواب، ولا مفـر من الصدق، فذكر للرجل أن الحطاب لم يأكل إلا ثلاث رطبـات، والبـاقي أدفـأ بها ردنه وحلاّه. فجن جنون الرجل، وذكّره بما طلب منـه، فقال له والدك: «لو كنتَ هناك هل كنت تمنعـه؟» فلم يجب الرجل إلا بقوله: «الله يهديك».

ما دمنـا، يا بني، بصـدد أمـر يمت إلى الوفاء بصلة، لقـد وعـدتـك وعدا ضعيفا منذ قليل أن أزيدك قصة من قصص جحا، فخذها بارك الله لك في الموعظة التي فيها.

تراهن رجـلان، في شتـاء قارس، أن يذهب أحـدهما في الصحراء، وجلس على دعس من الـرمـل، حتى يراه من راهنـه. وتحرك قلب أم المتحدي، وخشيت عليه من مغبـة هذا الـرهن، ورأت أن تؤنسـه بنـار توقـدهـا على بعـد أميـال منـه، ليـدفـئ،

بالاطمئنان بقرب أمه منه، قلبه، ويزيل عنه الوحشة، دون أن يخلّ بشرط الرهن، ولكن المراهن رأى ما أقدمت عليه أمّه، فأنكره حقه في الصباح، وقال: «إن نار أمك أدفأتك». وعبثا حاول المتحدي أن يقنعه بالمسافة بينه وبين النار، ولكن هذا لم يكن ليجدي، واضطر المتحدي أن يحاكمه عند القاضي، فأيد القاضي اعتراض المراهن. فشكى المتحدي الأمر إلى جحا، واقتنع جحا بحقه، وطمأنه بأن حقه سوف يأتيه.

ذهب جحا إلى القاضي ودعاه على غداء، ودعا كبار المدينة معه، وكان الاجتماع في بستان. وضع جحا الحطب تحت إحدى النخلات، وأشعل النار، ووضع القدر وبه الأكل الذي لم يطبخ في أعلى النخلة. وأذن المؤذن للظهر، وصلى القوم، وانتظروا الأكل، وكلما استعجلوا جحا، قال إنه على النار، إلى أن أذن العصر، وصلّوا، وجحا

يقول إنه على النار من الصباح. فتعجب المدعوون، وطلبوا عندما اقترب أذان المغرب أن يروا الأكل، وهذه النار التي لم تنضجه في هذه المدة الطويلة، فأراهم إياها، فضحكوا، وقالوا: «ياجحا، كيف تريد من النار أن تنضج الأكل وهو بعيد عنها هكذا؟»، فقال: اسألوا القاضي. فعاد القاضي وحكم على المراهن بالحق.

الجمل والسيارة

أي بُنَيّ !

ستتكلم اليوم عن أنواع المواصلات في زمن والدك وزمنك. المواصلات التي تعرفها، وتتمتع بها اليوم أنت وجيلك، في هذا العصر المتقدم، وننعم بها معكم. ولا فرق بينكم وبيننا إلا أننا نحمل في ذهننا ـ ونحن نستفيد من هذه الوسيلة الجديدة ـ ذكرى المواصلات القديمة، بخيرها وشرّها، بسهولتها وصعوبتها، براحتها وتعبها. ونشعر أيضاً بالنعم بما صرنا إليه، ونحمد الله ونحاول ألا نسيء استعمال هذه الأداة. أما أنتم فلا تفكرون في ماضيها، ولا تتصورون إلا أن ما هو موجود هو الأصل، وأنه هناك منذ أن خلق الله السموات والأرض، ولهذا جئت أخبركم بما لم تعرفوا، أو بما تعرفون بعضه، وتجهلون بعضه. جئت أرسم صورة القديم، وأقارن بينه وبين الجديد، لتعرفوا

كم سار التطور، والجهود المبذولة للوصول إليه، والجهاد الذي سبقه.

كانت الجمال، يا بني، هي أداة الركوب الأولى، والوسيلة المتميزة لقطع المسافات بين المدن، فهي بهذا في محل السيارات والطائرات اليوم، وتحمل الأحمال الثقال بين المدن، وفي داخلها. وتجذب الماء في «المناحي»، وتجرّ المحاريث في الحقول. وهي بضاعة ثمينة وعزيزة، إذا ملكها الانسان مدّ عنقه، ورفع رأسه، ليعلم الناس أنه ملك بعيرا.

وكان الجمل يحتاج إلى عناية في تعليفه، وفي شدّ «الشّداد» أداة الركوب على ظهره، وفي عسفه ليقبل العمل الذي خُصص له. وله المراح الذي ينام فيه ويعلّف. وصاحب الجمل هو الذي يقوم بهذا. والجمل حيوان يأخذ أياما حتى يقطع المسافة بين بلدين، قد تصل المدة بين نجد والحجاز إلى ما يقرب من الشهر. إذا قورن هذا بالطائرات التي تحمل عدداً من الناس وتقطع المسافة في ساعة أو ما

حولها، ولايطالب الراكب بصيانتها، ما عليه إلا ثمن تذكرة يدفعها قبل وقت قصير من تقريره السفر، وجد أن البون شاسع، ولاحظ الفرق بين الراحة والعناء، والسهولة والصعوبة، والميزة وافتقادها.

وكان الجمل متعة لنا في الركوب، ورياضة ما بعدها رياضة، باهتزازه في مشيته الرتيبة، وإذا «درهم» دعرم وأسرع رأيت الجَمَال والروعة، في امتداد رقبته، وتناسق اهتزازها مع الخطوات المتناسقة. وإذا ركّزت على تخالف أقدامه في سيرها، ولمسها الأرض بخفّة لا تكاد الأرض تحس بوطئها، رأيت منظرا يشدك. والتفاتته بعينيه السوداوين الكحيلتين، التفاتة متميزة، فيها من التعقّل والرزانة ما يكشف عن طبع فريد في الهدوء، ما لم يُجفّل بتصرف مفاجئ، فيه ضوضاء وجلبة، خاصة إذا كان «عسيفا»، لم يطوّع بعد التطويع الكافي. لو رأيت، يا بني، جمال «مقطورات الجمال» في مكة، وهي تسير بطيئة وئيدة، والسيارات

تتخـطف بجـانبهـا، لرأيت عقلا وتؤدة، وهدوءاً منقطعا، ولا يكون الجمل عصبياً وخطراً إلا عندما يسـاء إليـه بالمعـاملة، أو يهمـل إهمالا يفتقد معه العطف والحنان، لأن فيه شبها من الانسان.

وكعادتك، يا بني، لابد أنك تلتهم الحـروف الآن، لتأتي إلى القصة التي عودتك على تسطيرها، لتـزيل عنك الملل، وتبعد عنك الكلل والضجر، بعد أن أشعر أنه تطرق مثل ذلك إليك. وحبلك، حفظك الله، قصير، ووعاء صدرك أضيق من سمّ الخياط، وأنا لا أحب تعذيبك بالانتظار، وإن كنت أحيانا أداعبك بسرعة على هذا النهج.

والمـداعبة، يا بني، لا بأس بها، بل لابد منها أحيانا، وهي تأخذ أشكالا، ومنها مداعبة الرسول عليـه الصلاة والسلام للعجوز التي قال لها إنه لا يدخـل الجنـة عجوز، فأحزنها هذا، إلى أن أزال حزنها بتوضيح ما قال، وأنها ترجع في الجنة شابّة.

وهناك مداعبة عبدالله بن عمر، رضي الله

عنهما، لمولاة له، فيما رواه نافع مولى عبدالله. كان عبدالله يمازحها، فيقول لها: خلقني خالق الكرام، وخلقك خالق اللئام، فتغضب وتصيح وتبكي، ويضحك عبدالله بن عمر رضي الله عنه[1].

أما نعيمان الأنصاري، رضي الله عنه، فكان يهوى المداعبة ويتقنها، ويأتي منها بالعجائب. وما يفعله حينئذ يشبه ما يسمى اليوم بالمقالب. ولا بأس أن أقصّ عليك بعض خبره:

مرّ نعمان، ذات يوم بمخرمة بن نوفل الزهري الضرير، في المسجد، فقال له مخرمة: «خذ بيدي حتى أبول». فأخذ بيده، حتى إذا كان في أقصى المسجد، قال له: «إجلس»، فجلس يبول. فصاح به الناس: «يا أبا المسور، إنك في المسجد». قال:

---

(١) المراح في المزاح ٣٣١.

«ومن قادني»؟ قالوا: «نعيمان». قال: «والله لأضربنه بعصاي هذه إن وجدته». فأتاه نعيمان، وقال له: «يا أبا المسور، هل لك في نعيمان»؟ قال: «نعم». فأخذه بيده، حتى أوقفه على عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، وهو خليفة، وتنحى عنه، فعلاه بعصاته ضربا. فصاح به الناس: «ضربت أمير المؤمنين»». قال: «ومن قادني»؟ قالوا: «نعيمان». قال: «لا جرم، أن تعرضت له أبدا»[1].

ونعيمان هذا وصلت مداعبته إلى رسول الله ﷺ، فقد أهدى نعيمان الأنصاري إلى رسول الله ﷺ جرة عسل، وكان اشتراها من أعرابي بدينار، وأتى بالأعرابي إلى باب رسول الله ﷺ، وقال له: «خذ الثمن من هاهنا». فلما قسمها رسول الله ﷺ، بين نسائه، قال له الأعرابي: «إعطني يارسول الله

(١) المحاسن والمساوى. ٦٠١

ثمن العسل». فقال عليه السلام: «هذه إحدى هنات نعيمان». وسأله: «لم فعلت هذا»؟ قال: «أردت أن أبرّك يارسول الله، ولم يكن معي شيء»، فتبسم عليه الصلاة والسلام، وأعطى الأعرابي حقه[1].

ولم تكن هذه هي المداعبة الوحيدة التي عرفها عنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

إستمع إلى هذه القصة الضافية عنه:

قدم تميم الداري من الشام، وكان تاجرا، فأتاه نعيمان، وقال له: «هل لك في غلام تاجر، له فضل ودين؟» قال: «وكيف لي به»؟ قال: «إنه إن علم ببيعنا إياه لم تنتفع به، ولكن إنطلق معي حتى أريكه، فانه عندنا يمنزلة الولد». قالوا فأدخله المسجد، وأراه سويبط بن عبدالعزّى، فنظر إليه تميم فأعجبه. فقال: «بكم»؟ قال: «بمئة دينار»، قال: «هي لك»، فأخذ منه المئة

(١) المحاسن والمساوى. ٦٠٠.

دينار[1].

فلما حضر شخوصه أتى نعيمان. فقال: «الغلام»، فمضى معه إلى المسجد، وقال: «دونك الغلام»، فجاء تميم، وسويبط يصلّي، فصلّى إلى جانبه ركعتين، ثم قال له: «خفّف». فخفّف. وقال: «ما حاجتك»؟ قال: «قد باعك أهلك مني». قال: «وأي أهلي»؟ فارتفع الكلام بينهما حتى خرج رسول الله ﷺ، وقال: «ما شأنكم»؟ قال تميم: «يا رسول الله، باعنيه أهله»، فقال عليه السلام: «أني لأظن نعيمان صاحبه، عليّ به». فلما جاء، قال له: «ويحك ما هذه؟» قال: «بأبي أنت وأمي يارسول الله، تزوجت امرأة، ولم يكن عندي نفقة، ولا صداق أدفعه إليها، ولم أجد إلا ما رأيت»، فتبسم رسول الله ﷺ. وقال لتميم: هي لك عندنا.

(١) المحاسن والمساوى، ٦٠١.

يكفيك هذه الطرائف من الأدب القديم، والآن أعود إليك حيث كنت تنتظرني، لأقص عليك ما تعودت عليه مني من القصص:

كان هنـاك، يا بني، جماعة مسافرون، وكـان الـوقت شتـاء قارسا، وكان أحدهما موكـولا إليـه أمر الطبّخ، وصنع الشاهي، وبـيـنهـم شخص يدخّن، وكـانت وسيلة إشعـال النـار، في تلك الأيـام، هي الزند يقدح، ليشعل به. وشارب الدخان لا يصبر عنه، ولعله يجد فيه ما يساعده على التوهم بالـدفـء في هذا البرد الشديد، فكان، إذا سروا في الليل على جمالهم، يقترب من الذي معه الزند، ويقول له: «إقْدَحْ»، فيقدح هذا له الزند، ويشعل له سيجارته. ولا يتم هذا إلا بعناء، فصاحب الزند يضطر إلى إخراج يده من مكـمـنهـا الـدافئ، ويـنحني على «المـزودة»، يبحث عن الـزند، فإذا وجده أخذ يقدحه عدة مرات حتى يقدح، فكان

هذا أمـرا مزعجا، لما فيه من جهد وعناء، وتعرض للبرد.
شكى صاحب الـزند إلى إخوانه، وكان بينهمٍ من يحب المزاح، فتعهّد له بأن يجعل المدخن يقلع عن فعلته هذه، فلا يطلب منه أن يقـــدح له. وفي اليـــوم التـالي قال هذا للمـدخن: «أرح جملك اليـوم، وخذ جملي «إرو» عليـه المـاء». فسرّ المـدخن بذلك، فذهب، بجمل الرجل المتبرع بجمله، مع الـذين يذهبـون عادة «يروون». فلما تأكد «المتـبرع بجمله» أنهم أبعـدوا، قام وعقـل رجـلي جمل المـدخن ويـديـه جيـدا. وأخذ يفاجئه من الخلف بكلمة «إقدح» ثم يلهبه بالسيـاط، والمسكين مقيّد لايستطيع لنفسه فكاكا، وأعاد هذا العمل عدة مرات، حتى اطمأن إلى أن كلمة «إقدح» ارتبطت في ذهن الجمــل بالضرب العنيف المفــاجىء. فلما انتهى واطمأن إلى أن الجمل قد هدأ بعد آخر

«وجبة» من الضرب، جاء وقد غيّر لباس رأسه حتى لايعرفه الجمل، وفكّ قيد الرجلين وقَيْد يد واحدة.

فلما عاد صاحب الجمل لم يلاحظ شيئاً. وفي اللّيل، وعند منتصفه، إقترب المدخن، وهو فوق جمله، من صاحب الزند، وكالعادة قال له: «إقدح»، «فبرطع» الجمل، ورفع يديه إلى أعلى، وقفز راكضا، وإذا براكبه على الأرض «مكوّما». فلحق زملاؤه الجمل وأعادوه إلى القافلة. وبعد أن هدأ الجمل، ووجيف قلب راكبه، شعر المدخن أنه في حاجة ماسة إلى سيجارة، فاقترب بجمله من صاحب الزند، وقال الكلمة المشؤومة «إقدح»، فقفز الجمل مثل قفزته الأولى، وإذا صاحبه منكس على رأسه في الأرض، وأعيد الجمل، وأعيدت الفعلة مرة ثالثة، فقال له أصحابه: «يا فلان، يبدو أن جملك لا يطيق دخان التنباك، فوفّر على نفسك

وعليـه هذا، واقتصر على «شربه» في النهار وأنت بعيــد عن الجمــل. فقبـل. وبهـذه الحيلة، التي كان بالامكان أن يُدقّ فيها عنق المدخن، استراح صاحب الزند.

أخشى إن أنا قصصت عليك قصة ثانية مباشرة بعد هذه ألا تقرأ بقية الحديث عن المواصلات، إلا أن تعــدني ألا تفعـل، ووعـدك حسب تجربتي، مكتـوب في مقـدمتـه عدم الـوفاء، قدوة بعرقوب أستاذك في عصر ما قبل الاسلام. ومع هذا فليست هذه أول مرة أتجاهل فيك هذا الطبع، وأقول «لعلّ وعسى». ولولا أني أعرف أنه سوف يأتي اليوم الذي تنضج فيه، وتدخل طور الرجولة، ولأني لا أعرف متى يفاجئنا هذا اليوم، لما تساهلت معك، وأطلت الحبل لك. ولكن أمل الوالد لا تحدّه حدود، ولا يماثـل حجمـه حجم، وهـو «المخدّة» المريحة التي انحفـرت، يابني، من كثـرة ما يضـطجـع عليهـا المؤملون، ولكنـه لو لم يبق إلا اسمها أو رمزها لما تركـوهـا. وليتك، يابني، تقرأ في كتب الأدب ما

كتب عن الأمل، وهو عصارة لتجارب عصرت فيها القلوب، وطحنت لها المهج، وأهينت فيها النفوس، وأذلت الأعناق.

هذه القصة التي سأرويها لك، يدخل الجمل ضمن عناصرها، وسوف تعطيك فكرة عن عادة من عادات أجدادك وآبائك، لحق أبوك على ذيولها، وفيها طرافة، وهو ما يهمك، أما العادات والحكم فلن تقف، حرسك الله، لتتدبرها.

كانت الجزيرة العربية، وخاصة وسطها، تغصّ بالرجال، ولكنها لاتعطيهم كل ما يحتاجونه من غذاء وكساء وسكن، لأنها عضت على خيراتها، وخبأتها في جوفها، حتى أراد الله لهذه الكنوز أن تخرج في زمنك، وفي جزء من زمن والدك، وأطلّ الذهب الأسود برأسه، فابيضّ وجه الحياة معه، واخضرّ وجه الأرض، وازدانت بقع منها بناطحات سحاب، وطرق وجسور وأنفاق ومطارات ومدارس ومستشفيات. وهدرت مكنات هنا، وأرعدت أخرى هناك. سيارات تنهب الأرض،

وطائرات تطوي بساط الفضاء، وتخترق الأجواء، وبواخر تلتهم الأمواج، وتمخر العباب. وآلات تحرث، وأخرى تزرع، وثالثة تحصد، ورابعة تجمع وتلبّن، وعملاقة ترفع، ومضخة تصفّي الماء، وآلة تنير دياجي الليالي.

كانوا، للبحث عن الرزق، يضطرون أن يذهبوا خارج الجزيرة، في رحلات سنوية، يبيعون فيها جمالا، وسمنا، وصوفا، فيذهبون إلى الشام، يبيعون ما معهم، في رحلة الشتاء هذه، ثم «ينحدرون» إلى مصر، يصرفون نقودهم، ليربحوا من هذا العمل بعض المال ثم يعودون إلى الشام ليمتاروا، وليعودوا إلى بلادهم بعد ذلك، وهذه رحلة الموسرين القادرين. أما الفقراء فيذهبون شرقا، إلى الهند أو البصرة أو البحرين. وأبطال قصتنا الآتية، يا بني، من هذا القبيل. يذهب الواحد منهم صفر اليدين، ثم يعمل عملا بسيطا هناك، ويعود فيتزوج بما جمع، ويفتح بيتا، وقد يكرر هذا مرّات، وأحيانا يذهب، ويبقى سنوات

قد تصل إلى العشرين، يعود فيجد امرأته قد عجّزت «وشاخت» وأبناءه على وشك الزواج. وهذا أمر معتاد.

كان بطل قصتنا من هذا النوع: رجل فقير، استطاع بما لديه أن يتزوج، وفي الشهر الثاني، قبل أن يعرف أن زوجته حامل، سافر في رحلة طالت، وقاربت سبعة عشر عاما. وكانت زوجته قد وضعت بعد سفره توأما، وجلبا لها «مشكلة»، فهما إثنان، وهي فقيرة، وزوجها غائب، فرأت أن من المنطق أن تسمي أحدهما «مشكل» والثاني «مشيكل». وبعد أن كبرا قليلا، صارا مع أقرانهما يستقبلان، بالتناوب، الركب القادم من البلدة التي سافر إليها والدهما، ويسألان عنه القادمين، وتعوّدا على الرد بأنه ليس مع القادمين.. وذات مرة ذهب «مشيكل» لاستقبال قافلة قادمة، وسأل أول الركب إن كان والده مع القافلة،

أو يعرفون عنه شيئا، وعن قدومه، فردّ عليه المسؤول بأن والـده قد قدم معهم، وأنـه صاحب الجمـل «الأملح»، وأشار بأصبعه إلى جمل أسود وعليه راكبه. فطار «مشيكل» نحـوه، وكـأن له جناحين، يطوي الأرض طيّا، لا تكاد قدماه تطآن الأرض، وقد عضّ «شليله»، ورفع أسفل ثوبه، وانطلق مندفعا لا يكـاد يرى ما تحت قدميـه، وعينـاه على الجمـل وصـاحبـه، يحدوه شوق سنـين، وعـاطفـة بنوّة متّقدة، والحصى تحت قدميه الحـافيتـين يفـرّ خلفهما. وما إن وصل إلى الجمـل حتى قفـز على ردف البعـير خلف والده، كصقر حط على جذع شجرة، وطوق وسط والده بيديه، وأنجمته الفرحة حتى عن السلام.

التفت إليـه والده، ولم يعرفه، مندهشا ومستغـربـا هذا التصرف من هذا الشـاب الجريء الغريب. وقال الوالد بصوت عال،

واصفـا تصرف ابنـه : «أمـا مشكـل» ، فرد الابن : «مشكل» في البيت ، وأنا «مشيكل» .

هذه قصة ، يا بني ، قد جمعت عناصر متعددة ، فيهـا عادة من عادات قومـك في السفـر ، وطلب المعيشـة ، وفيها ذكر الجمل ، وفيها ذكر الشباب ، وفيها وصف لمعاناة النساء وصبرهن على المعيشة وشظفها .

وبهـذه القصـة أكون قد وفّيت ديني ، وبررت بوعدي لك ، بل لقد أصبحت أنت المدين . ولمثل هذا الوضع طعم لذيذ ، ونكهة لا يعرفها إلا المدين يصبح دائنا بعد أن يتخلص من دينه . ولكنك ، يا بني ، لا تعرف ذلك ، لأنك حتى الآن لم تجرّب من هذا الأمـر إلا جانبا واحدا ، وهو جانب المدين ، الذي لم يعرف الوفاء بعد . وهو أوهى الجانبين ، بل إن هذا الجانب ، وهو أنك مدين لي ، قد تراكم عليه العبء ، وأوهنه الحمل ، حتى لا يكاد يطيق ما عليه من ثقل .

على أي حال لم أحتج بعد إلى ديني فأطالبك به، وإن احتجت فسأفعل، وسيكون لذلك لذّة، لا لأن الحاجة قوبلت، ولكن لأن جيلنا نجح في أن يجعل من جيلكم جيلا مربّى مؤدبا.

ذكرت لك طرفا من الكلام عن البعير وطباعه، وأوقات هدوئه ونفعه. والآن إسمع طرفا آخر عنه عندما يهيج ويغضب. هو في هذا مثل الإنسان، يفقد صوابه، ويختل توازن عقله، ويحطم ما أمامه. جسمه الضخم، وجلده السميك يساعدانه على ذلك. ولا يستطيع مسكه وربطه، في هذه الحالة، إلا عدد من الرجال الأقوياء. وارتفاع رقبته، وبعد رأسه عن رؤية ما يجري تحت أقدامه، يجعله لا يبالي بالعراقيل الصغيرة التي قد تكون عائقا في طريقه، فيحطمها وقد تضره.

وهو حقود إذا ما أوذي، خاصة إذا أقيم عن «ضِراب» الناقة. وقد يحمل الحقد في قلبه، كما يُروَى، سنين عديدة، فإذا وجد الفرصة نفّس عن حقده بطريقة عنيفة.

يقال إن جملا حقد على صاحبه، ولاحظ صاحبه الحقد في عينيه، وتأكد من ذلك مع مرور الوقت. وذات يوم، وهما في البرية، تبيّن أن الجمل ينوي الانتقام، واتضح ذلك من تصرفاته، فزاد هذا من حذر صاحبه. ولما هجم على الرجل هرب منه، فطارده الجمل الهائج الهادر، فلاذ الرجل بجبل قريب، ودخل في غار أمّل أن يحميه، وأدركه الجمل، ولكنّه أبعد في الغار، واتخذ مكانا قاصيا، وتجمّع فيه، خوفا من أن ينال الجمل من أطرافه، فيجرّه بأسنانه، وكان الغار ضيقا وعميقا نوعا ما، فحاول الجمل أن يستفيد من طول رقبته، وأدخل رأسه حتى لم يبق بينه وبين الرجل إلا القليل، ولجأ الرجل إلى الدعاء، وفجأة خرج «صلّ» من جانب من الغار، فأُسقط في يد الرجل، وقد أحيط بعدوين الجمل والأفعى، فزاد في دعائه، وأخلص، فانساب «الصّلّ» مارّاً به،

وانقض على فم الجمل فلدغه عدة مرات، والجمل يزيد هيجانا، وبعد ثوان عاد الصّلّ إلى «مستكنّه»، وبدأ الجمل يسكن ويسحب رأسه تدريجيا مع سريان السم في جسمه، حتى سقط على مؤخرته يخور خوارا مخيفا وهو يلفظ أنفاسه، ولم يعد صوته صوت بعير، وإنما صوت ثور مذكى.

لم يصدق الرجل عينيه، ولم يصدق أنه نجا، ولولا أنه نظر إلى جسمه وقد غطاه «البهق» من الخوف لظن أن ما رآه حلما. ورفع عينيه إلى السماء وقال وعيونه ملأى بدموع الامتنان والتسليم: «شكرا يا رب، والحمد لك».

ولعلك لا تريديني أن أقتصر على هذه القصة عن الجمل، لأني كأني أغوص إلى داخلك، فأسبر غور ما فيه، وأجد رغبة ملحة لقصّة أخرى عن الجمل. ولا أحب إليّ من أن أجيب رغبتك، لولا أني أخشى أن أبعدك من ملل إلى ملل، فقد لا تجد في قصص

الإبل ما أجده، ولا ترى فيها من الطرافة ما أراه، على أيّ حال، إسمع مني شيئاً عن الجمل وبعض مظاهره عندما يهيج. أما أن الجمل يهيج فأمر ثابت. ومن السهل إثبات ذلك بالمشاهدة، وأما أن أحد الأسباب هو ما يرد في القصة الآتية فأمر يحتاج إلى تفكير وتمحيص.

كنا، يا بني، إذا نخر الجمل نجري، ونحن صغار، لنبتعد عن الدود الذي يلقيه منتشرا من أنفه. وأحيانا نقف، في طريق عودتنا من المدرسة، عند الجزار، وهو يسلخ رأس بعير، بعد ذبحه وسلخه، ولم يبق إلا الرأس، لنرى الحوصلة التي يجتمع فيها الدود، هذه الحوصلة، يقال إنه عندما يتحرك أحد ما فيها من الدود يهيج الجمل وتخرجه عن صوابه، إذا لم يكن لهيجانه سبب معروف. هذا هو الرأي السائد حينئذ. ولم يكن يهمّنا في ذلك الوقت مدى صحة هذا الرأي، أو قربه من المنطق، كان يكفينا أي تعليل، خاصة إذا كان المعتقد متوارثا، وتوحي نغمته بالثقة، وعدم إمكان المناقشة

فيه. على أي حال لم يكن السبب هو بؤرة تفكيرنا، فالأمر المحسوس هو أهم شيء، وهو شيء نراه بعيوننا، ونُدرةُ وقوعه تجعله مترقّبا بتلهّف. وقد يكون التفسير قريبا الآن، فقد يكون ما نرى ظاهرة مرضيّة، على أثر عدوى، جاءته مما يؤكل، أو نقصا في الغذاء سبّب نقصا في المناعة، فاستشرى «المكروب» وتوغّل. وقد تكون فترة في حياة الجمل يعطب فيها جزء من أنفه فيصير الأمر إلى ما هو عليه.

والجمل، يا بني، حيوان لا تقتصر فائدته على الحمل، وإنما له فوائد أخرى، يمتاز فيها عن منافسته الطائرة، والسيارة، والباخرة، فلحمه يؤكل، وله عند آكليه امتياز، خاصة إذا كان صغيرا. ويستفاد من جلده لأشياء لا ينفع فيها أي نوع آخر من الجلود، فجلد الجمل مفيد لعمل « الحوض »، وهو إناء يجمع فيه الماء الممتوح من البئر، لتشرب منه الإبل، وهو واسع الدائرة، ويجتمع على دائرة قطره أكبر عدد من الإبل،

ويـوضـع الحوض على قوائم خشبيـة متعـارضـة، ويحمـل في الرحيل على البعير. ووبر الجمل مفيد لقوته، ولطول شعرته، مع نعومة وسهولة غزل. وبعره ينفع وقودا إذا عزّ في المكان الحطب. وخُفّه يستعمل أحيانا دوّاسة «لصاير» الباب، يدور عليها فيسهـل دورانه، ومن الأمثال عن الجمل قولهم: «البعرة تدل على البعير، والأثر على المسير»، وقولهم بالعامية: «كم فاطر شربت بجلد حوارها».

ستقــول، يا بني، إنني أطلت الحــديث عن الجمـل، وستقـول أيضـاً إنني لم أعط الـطائرة أو السيارة على أهميتها حقها، وأنت صادق في هذا، وعندي تفسير مقبول، وهو أني أحب الجمل حبّا لا تتصوره، وأن الجمل مهمل الذكر في زماننا هذا، فلا أقل من أن أعطيه بعض حقه. أما الطائرة، يا بني، والسيــارة فهـما قسمـك وقسم جيلك، ولا تنقصكم معـرفتهـما بالتفصيـل، وأنـا هنـا أكمـل الناقص ولا أزيد الكامل. والجمل ثابت لا يتغير، وهو هو في كل الأجيال التي مّرت به. أما الطائرة

والسيارة فبعد كل بضع سنوات يخرج نوع جديد من الطائرات، فمن الداكوتا إلى البرستول إلى الكونفير إلى البوينج إلى التراي ستار إلى الجمبو إلى السسنا، إلى.. إلى.. آخره. وتتبّع أنت ميزات كل واحدة ونقصها تجد أنها تكفّلت بها (كتالوجات) الصانع، والسيارة مثلها، وأكثر، في سرعة التغيير وتعدد الأنواع والطراز والاحجام، والبلدان الصانعة، والقِيَم والمميزات.

وقد أنهى موضوع الحديث عن الجمل بالطرفة الآتية:

ذهب أحد أبناء جيلنا إلى طريق «خريص»، خارج مدينة الرياض، وأخذ أبناءه، وأبناء أحد أصدقائه، إلى نزهة هناك، بعد عصر أحد الأيام، وكان الوقت ربيعا، فرأوا «رعيّة» من الإبل، ترعى في إحدى ضواحي الرياض المخضرة، وكانت الابل كلها وقوفا ما عدا واحدة كانت

«بـاركـة». فجـاءت ابنته إلى هذا الصديق تركض وتقول: «تعالوا انظروا هناك واحدة من الإبـل «مـطوية»، ورجليها «مكسّرة». فضحك الجميع من قولها، لأنها لم تر جملا قبل ذلك باركا. قد تقول إن هذه «تشنيعة» من جيلنا على جيلك، ولكنها حقيقة ثابتة.

يكفي هذا عن الجمل، يا بني، لأني أخشى، كما يقـولـون، أن تخرج من جلدك من نفـاد صبرك. ودعنا نلج إلى موضوع سوف لا أطيل فيه لأنه عندنا عزيـز، وصلتـه بالمواصلات فرعية، وهو يستحق كتابا منفردا، وقد أُلفت فيه كتب، وهو الحصان. ورغم أنه في غير بلادنا منه أنواع مبتذلة تستعمل للحمـل، والمـواصـلات، إلا أنـه عندنا مخصص للحرب، بما فيها من طراد وكرّلا وفرّ، وهو مكرّم أثناءها، وفي غير أوقاتها، وهو حلية في الأوقات التي يخيم فيهـا السّلم، وهو متعة أيضاً ومال. له دور فعّال في السّباق، وفي الاستعراضات الجمالية.

وما دمنا في وسائل المواصلات الفعّالة في جيلنا فهنـاك الحمار، هذا الحيوان الصبور، كان له دور كبير في التنمية، نعم في التنمية، لا تحتقره لأن من لا تمتد قدرته على احتياز الجمل في تلك الأيام، يقنع باقتنـاء الحمار، فهو وسيلة المواصلات بين القرى والمدن المتقاربة، وهو الوسيلة الأولى للنقل والحمل داخل القرى والمدن وبين «الفلائح» وفيها. حركته خفيفة، والحيز الذي يشغله صغير، وجسمه لدن للاستـدارة والـولـوج مع الأبواب. مظلوم يابني، وبحق. هل سمعت ظلما بحق؟ لعله الظلم الوحيد بحق، فرغم كل الميزات التي فيه، فهو مادة للشتم والسبّ، ولكن الناس يضطرون للاقرار له ببعض الصفات الحميدة، ومنها الصبر والتحمل، ولكنهم سرعان ما يطفئون هذا الجانب المنير بإعابته بصوته المنكر، مستشهدين بما ورد في القرآن الكريم من أن: «أنكر الاصوات لصوت الحمير».

وجيلنا، يا بني، بذوقه المتخلّف في نظركم، أيام الصغر، كان يأنس بصوته يأتي مصفّى «مفلترا» من

بعيد في هدأة الليل، هو ينهق في أقصى البساتين، ونحن، أقصد جيلنا، في سطوح منازل المدينة، قد لفّتنا «الظلماء»، الموحشة، ولا يؤنسنا إلا صوته يأتي من بعيد، وصوت الكلاب أيضاً، بل الذئاب أحيانا نادرة. ومن البليّة، يا بني، أن تأنس، بما أجمع الناس على استنكاره، وتستحسن ما أجمع الكل على استقباحه. ولكننا ونحن صغار كنا متسامحين إلى حدود بعيدة، هي في أعين الكبار تفريط أو جهل أو غباء أو عناد أو حب للمخالفة أو غير ذلك مما يدخل في اختلاف نظرة الكبار الناضجين إلى الصغار «النيئين».

ليس صوت الحمار، يا بني، هو الأمر الوحيد المرفوض فيه، لا. هناك أمر أهم؛ «فصونه» أي روثه، وبوله نجسان، ولهذا فأينما وقف استوجب الحذر منه، ويتحرى صاحبه ألا يوقفه، إذا كان خيّرا، قرب باب المسجد، حتى لا يؤذي المارين إلى المسجد. وكما تعرف، الحمار لا ينبه عندما يريد أن يقضي حاجته، وهذا يجعل من حوله يقظين، ولا

تأمن هذا الجانب منه إلا وهو «ينْقِل» ، يركض، لأنه لا يستطيع عمل الاثنين : الركَض وقضاء الحاجة .

ليس لدي لك قصة جذّابة عن الحمير، يابني ، لضعف صلتي بها ، ولأني لا أريد أن أبقى مع الحمار طويلا في هذه الصفات ، ولكني سأروي لك قصة مضحكة حصلت لشخص أنت تعرفه ، وأنت شديد الصلة به .

ذهب هذا الشخص لزيارة أخواله في نهاية الاسبوع ، وعندهم حمار، يجلبون عليه «القت» البرسيم والدقسيه ، وركبه ليتمشى عليه وكان هناك حفرة كبيرة ، يجتمع فيها السيل قرب مسجد الحي ، وللمسجد «حسو» ميضأة ، والطريق بين الميضأة وهذه الحفرة ضيقة ، وكان السيل في الحفرة قد بدأ يجف ، فلم يبق في أسفلها إلا طين لزج ، وأراد ان يمر هذا الشخص ، وهو على ظهر الحمار ، بين جدار الميضأة والحفرة ، وكانت الأرض «زلقا» لما بللها من ماء ، فزلق الحمار ،

وغاص في الطين الذي في الحفرة، ثم نهض، وإذا الطين قد كساه، وكسا راكبه، ولم يعد الناظر إليهما يفرق بين الحمار وراكبه، وخرج المصلون من المسجد، ورأوهما على هذا الحال، فاخرجوهما من الحفرة، وكان منظرا مزريا، طبعا للراكب، أما الحمار فلا أظنه لاحظ ما على الوجوه الناظرة من سخرية.

وعادا يمشيان، الصّبيّ والحمار، والحمار ينظر إلى مُجانِبة، ويظن أنه كسب بهذه الوقعة، لأنها اختصرت له «التمشية» التي كان بالامكان أن يعذّبه فيها هذا الصغير أشدّ العذاب.

والحمار كُرِّم في التاريخ تكريما لم يكن يحلم به، منذ صُحبته للعُزير المشهورة، فقد كُرِّم بأن اقترن اسمه باسم مروان، آخر خليفة أموي، وهو الخليفة الذي حصد ضعف الدولة الأموية، وقابل العواصف التي كانت تتجمع قبل مجيئه، وضاق عليه الزمن عن أن يعمل شيئا، رغم الصفات التي

كانت تؤهله لكثير من الأمور التي كان بالامكان أن يتدارك بها الانحدار الذي وصلت إليه أمور الدولة، ولكن الصخرة السياسية والحربية المنحدرة من جبل الأخطاء كانت أقوى من صدره الواسع، وبسبب هذه السّمة، وتحمله، استحق أن يسمى مروان الحمار. وقد هتف متمثلا بهذا البيت الذي يمثل واقعهُ خير تمثيل:

تقلّدتني الليالي وهي مدبرة

كأنّني صارم في كفّ مهزوم

ولكن يقلّل من حسنات الحمار رجحان صفة الغباء فيه، إسمع هذه القصة:

سافر جماعة من الرياض إلى المنطقة الشرقية قبل عشرين عاما، ولاحظوا أن بعض الحمير «الهمل» في الطريق، تحرص على السير على الزِّفْت، رغم حرارته وبرودة جوانبه البيضاء واستوائها مثله، وظنوا أول

الأمر أن هذا حدث صدفة، ولكنهم تأكدوا أنه ليس كذلك، وأنه لابد أن يكون هناك حكمــة حماريــة. واكتشفـوا بعـد البحث والاستقصاء أن الحمير كانت تظن أن سواد الاسفلت ظل. وسبحان من وهب وحرم.

وهناك البغال، وهي بفراهة الخيل وضخامتها أو أكثـر، وهي لا تعـرف في وسط الجـزيرة، ولكنها كانت موجودة بأعداد ليست كثيرة في الحجاز، وهي تحمـل من الأثقال الشيء الكثير، ولا بديل لها في بعض أمور الحمل. وهي نتيجة مزاوجة بين الخيل والحمـير، تأخـذ من الخيـل فراهة الجسم وبعض الصفات، ومن الحمير طول آذانها.

والذي حلّ محلّ الحمير بين المدن المتباعدة، غير الـطائـرات، هو السيارات بأنواعها، وأحجامها، وألوانها، وطرزها، وهي أيضاً التي طردت الحمير من داخـل المـدن، كما طردت الجـمال بين المدن، وحلّت محلّهـا بكفاءة. ولم تخل مرحلة دخولها من

بعض القصص الطريقة.

يقول الخبثاء إن الملك عبدالعزيز عزم على زيارة إحدى المدن، وأن الناس فيها ظنوا أن السيارات تتغذى بالبرسيم مثل الحيوانات، فحصدوا لها ما يكفيها، وفوجئوا بكساد بضاعتهم لأنها تلتهم البنزين ولا تلتهم البرسيم. والقصة محرّفة ولها وجه جميل، يدل على التلاحم والتراحم بين الحاكم والمحكوم. اعتاد أهل المدن أن يكرموا الملك عبدالعزيز بدعوات يقيمونها له عندما يزورهم، وعادة المضيف أن يتكفل بعلف دواب مضيفه. وإذا كانت الدعوات تأتي من تجار المدن، فإن علف الخيل والإبل يأتي من الفلاحين، الذين يستبشرون بمجيء الملك عبدالعزيز، الذي يكرمهم عادة مقابل ما يهدونه لدوابه من الأعلاف، وكانوا يكثرون مما يحصدون. وفاجأهم الملك عبدالعزيز بأن جاءهم ورفقته،

راكبـين السيـارات، التي دخلت حديثـا للمنـطقـة، فأسقط في يديهم، وأرادوا أن يعلموه بأنهم حصدوا زروعهم كالمعتاد وأنهم بحـاجـة إلى التفاتته، فوضعوها أحمالا على جانبي الطريق، ورآها، وكان مثل عادته، كريما، وعند حسن ظنّهم به. فعوضّهم.

وإذا كانت وسـائل المواصلات التي ذكرتها، يا بني، هي الوسائل البرية والجوية الأساسية، فهناك وسائل صغيرة ومهمّة، خاصة لك، وهي الدراجة العـادية، والـدرّاجـة النـاريـة بأنواعها، وأظنك اعتـدلت في جلستـك الآن لمّا سمعت بالـدرّاجـة النارية، أو كما تسميّها «الدبّاب» رغم أنك تعاني منهـا وأنـدادك، وحـوادثهـا ومشـاكلهـا كثـيرة، وتشـترطـونها «حـلاوة» للنجـاح، كأن الـدراسـة والاختبار من المرارة بحيث تحتاج إلى حلاوة تزيل آثـارهـا. ولم أتعـرض للباخرة فهذه لا تهمك لأن الـقليـل منكم يركبهـا، ولعلكم تفضلون ذات الشراع لأن لكم فيهـا فرصة صيد السمك، وهو

أحـد المـظاهر القديمة التي هادنتموها، وارتبطتم بها، وجذبكم إليها وسائلها الحديثة، التي زادت من متعـة مزاولتهـا، وجزء منها لا دخل ليد الزمن في تغييره، فالسمك هو السمك، والبحر هو البحر، ولم يتغير إلا السنارة وخيطها.

ويكفيك، يا بني، ما مرّ، حديثا عن المواصلات قديمها وحديثها، لأن حديثي عن الجمل أخذ كل ما في نفسي من رغبة للحديث أو الكتابة، ليس أشدّ على النفـوس من ترك الحـديث عن الجمـل إلى الحديث عن الحمار، فهذا تَدهوُرٌ لا يرضي، وهذا، يا بني، الذي يحتاج إلى حلاوة.

وسـأحـرمك، يا بني، من القصة في آخر هذا الباب، حتى لا يصبح لديك عادة التطلع إلى أن تكون نهاية كل باب قصة، فقد يجرك هذا إلى أن تقلب الصفحـات، ولا تقرأ إلا نهايات الأبواب، فأنا أعرفك، وأعرف ما يدور بخلدك، لأني كنت في يوم من الأيام في سنّك، ولعله مرّ بي كل ما يمرّ بك الآن. الفرق هو تصرفنا تجاه كل أمر.

الكابون والطشت والغسالة

أي بُنيّ !

بحديثنا، يا بني، عن الطيارة ابتعدنا عن الوطن، واخترقنا أجواءً وأجواءً. وبحديثنا عن السيارة ابتعدنا عن المدينة، وبالحديث عن الدراجة ابتعدنا عن البيت، فدعنا نعد معا للبيت للراحة، ولنتحدّث عن شيء أمامنا فيه متسع للحديث، لأنه مادة دسمة لذلك. لنتحدث عن الغسالة ذلك الجهاز الذي يؤدي عدة أعمال، بمجرد أن يَضغط الضاغط على إزرار فيها، كل واحد يطيع إرادة الضاغط بالعمل الذي يريده، فواحد يسمح بانسياب الماء ليملأ خزان الغسالة، وآخر يسخن الماء، وثالث ينقع المغسول، ورابع يحركها يمنة ويسرة، يحرك في الحقيقة جوفها، حركة رتيبة. وجوفها اسطواني، يدور نصف دورة، يعود دائرا مخالفا للأولى، حتى يلين الوسخ وينساب من الثوب إلى الماء الذي فيه مادة تقضي عليه. ثم تبدأ

حركة «موص» الهدوم أو «شطفها» ثم عصرها. وقد تتم هذه الأمور كلها بضغطة واحدة على زرّ واحد، ويُنسى الأمر حتى تأتي إلى النهاية.

وأنت، يا بني، تعرف هذا وأكثر من هذا، تعرف أن للصوف زرّاً، وللقطن زرّاً، وللحرير زرّاً، وللمصنوع من أقمشة صناعية زرّاً. ولهذا لن أطيل الحديث في شيء تعرفه، وستعرف أكثر عندما ينزل إلى الأسواق مصنوع جديد من الغسّالات فيه من الميزات ما الله به عليم.

وسأنتقل بك إلى الماضي، وهو ماضٍ رهيب، كما تعبرّون، لأن الأمر في الغسيل حينئذٍ يختلف تماما عما تعرفون، فيه من المجهود ما تنوء بحمله الجبال، وأشهد أن أكتاف الغاسلين والغسالات كانت أقوى في تحمّلها من الجبال. فلنبدأ من أول خطوة، وسأقتصر على بعض الصور.

تذهب النساء حاملات الثياب التي سوف تغسل، حتى يصلن إلى إحدى المزارع، ويجلسن

على طرف «الساقي» أو الحابوط»، ويبللن الثياب، ثم يرششنهن بالإشنان، بعد أن تخمر، ثم يضربنها على «فرش» حصى بالكوابين جمع «كابون»، وهو أداة مثل المطرقة ولكنه ثخين عريض متين ومن خشب، حتى يتأكدن أن الوسخ قد استسلم، وفكّ مخالبه من الثياب، ثم يغسلنه، ويكررن هذا العمل عدة مرات.

ومن حسن حظك أنك لم تكن في ذلك الزمن، وإلا كنت سمعت بين آن وآخر، عندما تأتي بحركة غبيّة، من يقول لك: «ياكابونٍ ما خرق». أي أنك «دوكره» أو «سبهلل».

وضرب الملابس بالكوابين مما يفتّ الأعضاد، ويهدّ الاكتاف، وفيه جهد عنيف، ويحتاج المرء معه إلى صبر ومثابرة، وهو عادة عمل المرأة، فقلّ أن تجد من يقوم به من الرجال، ومن ليس في بيته امرأة فإنه يكتفي «بتربيص» الملابس، ونقعها بالماء وقتا طويلا، حتى تتخلّص من بعض أدرانها.

وهناك نوع من غسيل الملابس قد خطا في المدنيّة خطوة. يجلب السقّاء الماء إلى البيت، ويؤتى بصحن واسع، غير عميق، تنقع فيه الملابس بماء حار، ثم يوضع مع بعض الصابون، أو يفرك بالصابون، عدة مرات، بجهد ومثابرة، حتي ينظف الثوب، وقد يضاف إليه شيء من «النيّلة»، لتعطيه بعضا من لون السماء يزينه.

هذه فكرة سريعة وخاطفة، كما يقولون، ومن الصّعب وضعها بدقة وتفصيل، لأنه لا يشفي في هذا إلا الرؤية، وقد فات وقت الرؤية الآن.

أي بني ! إن القفزة في هذا المجال عالية وطويلة وبعيدة المرمى، ويمكن أخذها بحق مقياسا على المسيرة في هذه البلاد. وأنت وجيلك حظيظون، لأنكم حتى في سفركم تستطيعون أن تحصلوا على خدمة للغسيل، لا تزيد عن بضع ساعات. وغسيل موفر لكم بالماء والصابون في الغسالة يتبعها الكوي بآلات حديثة، وغسيل بالبخار يدهش

ويعجب، يأتي الثوب كأنه جديد بل أجمل من الجديد أحيانا.

لا أذكر قصصا مسلية لك في هذا الباب، ولعل ما في ذهني منها قد غسلته إحدى هذه الغسالات الآلية خطأ دون قصد، وهذه يابني ضريبة الراحة والتقدم، لا شيء يكمل الا وجه الله عز وجل. فاصبر وتحمل والحمد لله أن هذه هي أقصى مشقّة تقابلها في أمر متصل بالغسيل.

ترى يا بُني هل جيلك سوف يخترع غسّالة لبني آدم، يَدخلها من جانب، ويخرج في ثانية من الجانب الآخر نظيفا معطّرا، لم لا يتصور هذا؟ أليست السيارة تغسل اليوم بهذه الطريقة، أو ترى الانسان سوف يترفّع عن أن يغسل بالماء مادامت السيارة الحديد، الجماد، تغسل به؟ وسيصر أن يغسل باللّيزر، عن طريق الكمبيوتر، أليست هذه هي آخر صرخات زمنكم هذا؟

رحم الله يا بُني «السّاقي» و «الشعبة» و«الحابوط»

و «اللّزا» و«المدِي» ، ومساقط المياه ، وملازمها ، فلها طعم لا يعرفه إلا من رآه أو صاحبه ، لعل من أبرز جماله أنه أصبح ذكرى ، وعوض الله عنها بما هو أوفر منها وأنظم وأنظف . صحيح هذا ، ولكن القديم يبقى لذيذا على هذه الأسس .

على أي حال لا نتمنى أن يبدلكم الله عن الحديث بالقديم ، فهو لا يصلح لكم ولا تصلحون له ، ونحن مثلكم بعد أن ذقنا الجديد ، وأظن أحدنا لو حلم أنه عاد للقديم ، أو القديم عاد له ، لقام من نومه فزعا مذعورا .

قد تسمع ، يا بُني ، الأبيات الآتية لأبي نواس ، فتظن أن الغسّالة اخترعت في زمانه أو قبل زمانه . لا ، المقصود بالغسالة المرأة التي تغسل الملابس ، وإليك الأبيات :

وعـدتـني وعـدك حـتـى إذا
أطـمعتـني في كـنـز قارون[1]

(١) المحاسن والمساوى. ٢٥٦ .

جئت من الليل بغسالة
تغسل ما قلت بصابون

وهذا على نمط «كلام الليل يمحوه النهار»، والوعود وإخلافها باب متسع، وعلى ذكر الباب المتسع لقد لاحظت أن باب الحديث عن الغسالة سوف يكون قصيرا بالنسبة لبقية الأبواب، وأخشى أن تحتجّ الغسالة علينا، أو أن تحتج أنت نيابة عنها، وأعرف طريقة احتجاجك ستحوّر فيها الأمر لمصلحتك مدعيا أن هذا صوت الغسالة، وهو صوت رغبتك المكبوتة. ستقول إنه ليس فيها قصة مناسبة. وسأقطع عليك الخط، كما يقولون، وأبطل حجتك، وأقصّ عليك قصة طويلة ومسلّية، ويغطي جوانبها عددا من مسارات مواضيعنا، وأهمها هنا ما يشير إلى الوعد وخلفه، والعهد وقطعه. ولكنك سترى فيها تمّ ما يبرره، لأنه قطع لدابر الشرّ.

لاحظ نبيّ الله سليمان، عليه السلام، أن

أحد الغربان التي تأكل على مائدته كل يوم، يأتي متأخرا، ولا يصل إلا مع آخر الطّير، وينهض من المائدة مع أولها. فتعجّب من أمره، واستدعاه، وسأله عما وراء هذا التصرف.

فقال الغراب: «يا نَبيّ الله، لي والد معمّر، سقط مع الزمن ريشهَ، وأصبح قطعة لحم، وأخاف عليه من الطير أن تأكله. فأنا أجثم عليه وأحميه منها ومن عاديات الزمن، وهوامّ الأرض. فإذا ذهبت الطيور إلى المائدة، وأَمِنتُ عليه منها، سارعت بالمجيء لأخذ نصيبي وأُحضر له نصيبه، وأعود قبل أن تعود الطيور.

فلفت ما قال الغراب نظر سليمان، وتشوّق أن يرى هذا المُعمّر، وأمر بإحضاره، فأُحضِر، فوجده سليمان، عليه السلام، كما قال ابنه. وسليمان قد عُلّم

منطق الطير. فسأله عن أغرب ما مرّ به في حياته. فقال المعمّر: يا نبي الله سأقصّ عليك أغرب ما مرّ بي:

وقعت يوما على سور مدينة كبيرة، مبنيّة كلّها من لبنات من ذهب، تلمع بيوتها في ضوء النّهار حتى تكاد تخطف الأبصار. وبينما أنا أتلفّت يمينا وشمالا، أتعجب مما أرى، وأمتّع بصري بما حولي، رموا أمامي ناقة مذبوحة مسلوخة، ضيافة لي، فأكلت ما استطعت أكله، ثم عدت من حيث أتيت، وفي النفس نيّة العودة في فرصة أخرى. وغبت عنهم سنة أو تزيد، ثم عدت إليهم، ورأيت أن السور الذي وقعت عليه، قد أصبح بناؤه من فضّة، ورأيت البيوت كذلك قد تغيّرت إلى الفضّة. وضيّفوني هذه المرّة بقرة. فأكلت حتى شبعت. ثم طرت عائدا من حيث أتيت، وفي النفس نية العودة. ومرّ عام أو أكثر، وعدت وحططت على سور

المدينة فوجدته بني من لبنات نحاس، ورأيت بيـوت المـدينـة مثله، فرموا لي شاة مذبوحة مسلوخة، ضيافة لي. ثم غبت سنة أو تزيد، فلما جئت هذه المرة رأيت السور بُني من لبنات طين، وكـذلـك البيـوت، فرمـوا لي دجاجة مذبـوحـة، ومنتوفة، فطعمت وطرت، وفي النفس رغبة للعودة. وفي العام التالي أو الذي يليـه عدت، ورأيت الســور خرابا، والبلاد يبابا، ولم أكد أحطّ على ما بقي من السور إلا وحجـر يرسـل علي كأنـه آت من منجنيق، فيضربني في عيني، فيعطبها فيصبح كأن فيها شواظاً من نار، وها هي لا تبصر. وتبينّ أن الذي أرسل الحجر وفقأ عيني إنما كان جائعا، ويريد أن يقتات بي، فطرت هربا.

وتلمسّت السبب لتغـير حالهم، وتدهور أمــرهــم. واسـتقصيت عما أوصلهم إلى ما وصلوا إليه من فقر، وما آل إليه أمرهم من خراب ودمـار، ومـا ضربهم من سوء حال،

فوجـــدت أن الله سلّط عليهم حيّــة عظمى مخيفـة، أخـذت تأكـل مواشيهم وأنعامهم، وتعيش في قُوتهــا على مزارعهم وخـيراتهم، وتشرب مياههم، حتى لم يبق لهم ما يكفيهم، وتدريجيا فقدوا كل شيء. وانتهى الأمر بالحيّة بعـد ذلـك أن كفّت نفسها في بئر، وتطوّت فيها، وهي بئر واسعة عميقة، ليس فيها إلا الرّمال التي ما فتئت أن ردمتها الرياح عليها، فهي قوتها، ولاتزال هناك، واسم هذه الحية «لِس».

فطلب منه سليمان، عليه السلام، أن يدلّه على هذه الأرض التي فيهــا هذه البئـر التي تسكنهـا الحيّـة، فأخـذه الغـراب المعمّر إلى هنـاك. فلما رأى سليـمان الأرض وجـد أنها كثبـان من الرمال، ولعلها في الربع الخالي. فاستفسر من الغراب عن مكان البئر منها فدلّه عليـه. خاطب سليـمان الـرياح، الآتية من الشرق، أو الآتية من الغرب، أو الآتية من

الجنـوب، أو الآتيـة من الشّـمال، قالت إحداهن لما قال لها: «هبّي». قالت: «يا نبي الله إني قوية، ولكن قوتي لا تدوم طويلا، لهذا لن أفيـد في هذا الأمـر، ومـا خُلقت له، ولأمثـالـه». قال للأخـرى: «هبيّ وأزيحي الـرمـال»، قالت: «يـا نبي الله إنني طويلة النَّفَس، ولكنّي ضعيفة، لا يكاد الرمل يترك من هبـوبي ونـفخي، ولم أُخلق لهذا». قال للثالثة: «هبيّ وأزيحي هذه الرمال». قالت: «يانبي الله إنّني ضعيفة، وقصيرة النفس، فلا يكاد أحد يشعر بي، ولم أُخلق لهذا، ولا أكاد أسمّى ريحا إلا من باب التجاوز، ولو سمّيت نسيـما لكـان أقـرب للحقيقـة»، قال عليـه السـلام، للرابعـة: «هبيّ وأزيحي الرمال». قالت: «حبّاً وكرامة يا نبي الله. فليس أحبّ إليَّ من ذلـك، فأنـا قويـة الـدفـع، طويلة النفس، بعيـدة المـدى، وكـأن الله خلقني لذلـك، وسخّـرني لمثله. وسـأزيـل الـرّمال

وأكشف البئر باذن الله». فهبّت الرّيح الرابعة، وهبّت وهبّت، ومع كل هبّة كانت تزيح كمّيّةً هائلة من الرمال المتراكمة، حتى كشفت البئر، ثم توغلت فيها، حتى نظّفتها منها.

وانكشفت الحيّة، بعد أن أزيحت عنها الرّمال. فخاطب سليمان الحّية، وقال لها: «أخرجي». قالت: أخشى إن خرجت أن تقتلني». فقال لها: «أخرجي ولا تخافي» فبدأت تخرج تدريجيا، رويداً رويداً، بدأت بعد صلاة الظهر، وأخرجت ذيلها وأخذ يتجمّع مع باقي جسمها في الفضاء الذي حول البئر، وامتلأت «الحيابيل» التي حول البئر، وأذّن العصر، وهي لا تزال تخرج، وتحلّ من طيات جسمها المتكوّمة في البئر، وسألها سليمان: «متى ينتهي جسمك، ويخرج رأسك»؟، قالت: «عندما ترى اللسعة الزرقاء التي على رقبتي لا يبقى إلا رأسي».

وقبل أذان المغرب، تبينت «اللسعة الزرقاء». فرفع سليمان، عليه السلام، السيف ليهوي به على رأسها، فقالت له: «ألم تقل لي لا تخافي»؟. فقال لها: «خذ عدوّ الله بأمان الله»، فأهوى بالسيف وقطع رأسها، وأراح منها.

ثم استخلص سليمان الرأس من الجسد بهذه الضربة، وأخرج نابيها وكانا عظيمين، وأخذهما معه إلى الشام عند عودته، وجعلهما بابا لمدينة بناها هناك سُمّيت «ناب لِس» (نابلس).

لاحظ يا بني، الجملتين اللتين مرتا بك في هذه القصّة. الأولى منهما «اللّسعة الزرقاء»، والثانية: «خذ عدوّ الله بأمان الله»، وهما ترويان على ألسنة الناس، دون أن يعلموا مصدرهما. يقول أحدهم إذا طولب بدين ميئوس منه، «خذ عدوّ الله بأمان الله». وهي ترد كثيرا بطريق المزح والفكاهة، عندما يَختِل شخص آخر.

ويقال في بعض كتب المواعظ عن عبدالله بن

عباس، رضي الله عنهما أنه قال: «ليس للظالم عهد، فان عاهدته فانقضه، فان الله تعالى يقول: «لا ينال عهدي الظالمين»[1]. ولعل ذاك من هذا.

عندي من الفراسة، يا بُني، مما أعرفه عنك أنك قد انفتَحَت شهيتك بهذه القصة إلى قصص أخرى، لأنك علمت الآن أني أريد أن لا يقصر هذا الباب عن الأبواب الأخرى، وكأنّي بك قد تنازلت عن الربط بين القصة والموضوع المطروق، وتريد قصة ولو لم يكن لها صلة بالغسالة والغسيل، ولكن لابد يا بُنيٍ من الصلة، وإلا كان الأمر افتعالا، والعمل متصنعا، مما يُنقص اللذة، بانشغال الذهن بما قد يأتي به هذا من انتقاد قد تكون صاحبه في المستقبل. وتنسى أنك صاحب الاقتراح في المخالفة. على كل أنت تعرف أن التصنع لا يدوم، ولعلك سمعت أحد الناس ممن هم في سن أجدادك يقولون: «الملزّق يطيح».

---

(١) محاضرات الأدباء ٩٤.

على أي حال كلمة «الفراسة» التي مرّت بك قبل أسطر في هذا الباب، أوحت لي بقصة سمعتها قبل أشهر، وهي معبّرة وطريفة نوعا ما، سوف تعجبك حسب تصوري، لأن فيها حكمة ممزوجة بخيال. وليست طبعا الحكمة فيها هي التي سوف تعجبك، وإنما الخيال الجامح فيها هو الذي سيشدّك، لأنه حتما سيذكّرك بقصص: «قراندايزر» المحلّقة في الخيال، والموغلة في التصوّر. هل تذكرها؟ لعلك نسيتها بعد أن سلوت عنها، وشببت عن الطوق الذي كان يصلك بها في فترة مضت. ولعلك سوف تقصّها على أولادك ولكنّي أخشى أن لا يجدوا فيها ما وجدت، لأن زمانهم غير زمانك، ولكلّ زمان «كرتونه».

على أيّ حال، القصّة الآتية تريك كيف كان الجيل الماضي يغلف الحقائق التي يريد أن يوصلها إلى من أريد وعظهم، أو من أريد لهم التسلية، ولا تخلو من طرافة، وسوف ترى فيها نهج فكرهم، وكيف تعمل «تروسه»، وتتحرك آلاته، وتتكشف

لك استفادتهم من بيئتهم وموجودها، ولا يبعدون عنها إلا شيئا قليلا، باستعمال الاستعارة أو التشبيه.

والقصة يا بُني تبدأ هكـذا :

عمـل شاب عنـد أحد رؤساء القبائل، راعيا لخيله، وبالذات سائسا لفرس مهداة له من أحد رؤساء القبائل، ولِمَا سمعه عن الشّاب ومعرفته بالخيل، سأله، ولعلّ ذلك كان على سبيـل الاختبار، عن رأيه في هذه الفرس، فقال إنها جيدة لولا أنها تكاد تكون بقـرة في بعض طباعها، فدهش الشيخ من هذا الجـواب، واستفسر منـه عن السبب الذي جعله يصل إلى هذا الحكم، فقال: إنه لاحظ أنها عنـدما تجري لا ترفع ذيلها مثل الجيـاد الأصيلة، ولكنهـا تتركـه متدليا مثل البقـر. وكان قد رتب له راتبا، وكمّية من الأكـل لطعـامـه في كل وجبة، فلما تبينّ له مقـدار فهمـه للخيـل، أراد أن يتـأكد من مهدي الفرس، فكشف له المهدي عن أمر لم

يكن أخبره به، وقال: «هذه الفرس ماتت أمها فأرضعناها من بقرة». فلما تأكد للشيخ قول الفتى السائس أمر الطباخ أن يزيد في أكله.

ولما توسّم في الفتى الفراسة سأله رأيه في زوجته، فقال: «إجعلها تدخل لحاجة تطلبها عدة مرات، وسأكشف حينئذ عن أصلها»، ففعل الشيخ، فسأله عما رآه، فقال: «إنها ليست أصيلة»، فقال: «وكيف عرفت؟». فقال: «إن بنات (الأصول) إذا دخلن مجلسا فيه غريب يغضضن الطرف، وهذه تسارقني النظر داخلة وخارجة»، فذهب إلى والدها، واستحلفه عن أصلها، فأقر أنها ليست ابنته، وإنما دخيلة عندهم، أمها ماتت وهي صغيرة، وقاموا على تربيتها، حتى كبرت، وكل يظن أنها ابنتهم. فلما تأكد له ما قاله الفتي، أمر الطبّاخ أن يزيد له في أكله.

فرأى أن يسأله رأيه فيه هو، وطلب الشاب أن يعفيه، ولكنّ الشيخ أصرّ، فقال له: «إنك لست من أبيك، وإن أباك طباخ»، فذهب الشيخ إلى أمه، وضيّق عليها، وهدّدها أن يقتل نفسه، فكشفت له عن سرّ لم تكشفه لأحد قبل، وقالت: «إن زوجي كان رئيس القبيلة، وكان ذا مال ونعم، ولم يرزق بأولاد، وخشيت أن تعود الأموال ومشيخة القبيلة إلى أبناء عمه، فحملتُ من طباخ كان عندنا». فعاد إلى الفتى وقال له: «كيف عرفت أني إبن طباخ»، قال: «لأنك تكافئني في كل مرة تعجب بعملي، أو ترضى عني، بأن تأمر بأن يزاد في أكلي».

هذه قصة كما ترى طريفة، ومحبوكة حبكا يوحي بأن منشئها صاحب خيال خصب، ولكنها على الأقل أنقذتني منك، ومن توقعك وإلحاحك، وأنت إذا سلكت طريق الالحاح حفرت فيه جادة.

وقصص الفراسة في الأدب العربي كثيرة، تغصّ بها كتب الأدب وتاريخه، وأقربها إلى الذهن مما يقابله الدارس لعصر الجاهلية، قصة الذي افتقد جمله، ومرّ بأخوة مجتمعين، فسألهم إن كانوا قد رأوه. فقال أحدهم: «هل هو أعور»؟ قال: «نعم». قال الثاني: «هل لونه كذا»؟. قال صاحب الجمل: «نعم». قال الثالث: «هل كان قبل يومين يرعى في الأرض الفلانية»؟. قال صاحب الجمل: «نعم». قالوا: «لا. لم نر جملك». فاستغرب أنهم لم يروه، وقد وصفوه وصفا دقيقا صحيحا. وحاكمهم وفي المحاكمة غلبوا بحجتهم ونالوا الإعجاب. قال الأوّل «إني عرفت أنه أعور، لأني رأيته يرعى على جانب واحد، وقد يتجه لجزء من الأرض ليس خيرا مما ترك، فعلمت أنه رأى هذا ولم ير ذلك، وعرفت أنه أعور، بل عرفت العين العوراء»، وقال الثاني: «إني رأيت من شَعره

بعـــد إن تمرّغ ما دلّني على لونـــه». وقـال الثالث: «لقد فَتَتُّ شيئا من بعره، ورأيت نبات الأرض التي رعاها، فقلت ما قلت».

هذه القصة يا بُني، تعتبر في الأدب «أ، ب» كما تعبّرون، وإن لم تكن قد سمعتها فسوف تسمعها، وتحفـظها بأسماء أصحابها، وهي طريفة، وللثلاثة قصة يمكنك مراجعتها في كتب الأدب، فليس هذا محلها.

ولا بأس من أن أروي لك قصـــة لها صلة بالفراسة، ما دمت قد قلت لك إن قصص الفراسة كثيرة، فلا أقل من أن أروي لك هذا القليل منها:

نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزعن من بعير، فأشار لمن معه إليهن، وقال: «هذه بكـر، وهـذه حامل، وهذه مرضع». فقام اليهن رجل، فسألهن، فكنّ كما قال إياس. فقيل له: «كيف علمت ما ذكرت»؟. فقال: «رأيتهن لما فزعن وضعت كل واحدة منهن

يدهـا على أهم المـواضـع عنـدها مما تخاف عليـه، فوضعت الحـامل يدها على بطنها، ووضعت المرضع يدها على ثديها، ووضعت البكر يدها على أعلى فخذيها»[١].

هذه قصة طريفة كما ترى، يا بُني، ولكنّك لا تملك نفسك من أن تعدها مصنوعة، وستجد كثيرا من أمثالها في الأدب العربي لا تقنعك بأنها حقيقة، ولكن لها قيمتهـا الأدبيـة والفكـرية، فهي سجل لزمنهـا بفكـره وأدبـه، وتريك أحياناً كيف يتسلّى الناس، وبطريقة فيها عقل ومنطق وفكر، وفي كثير من الأحيان فيها عظة مؤثرة، أو صورة جميلة.

لو حككت جلد هذه القصـة لوجدت تحته ما يبتسم سخرية بمن يصدقها، فإياس بلمحة بصر رأى كل ما رأى، وكأن معه آلة تصوير متحركة. ركّب على كل امرأة ما فعلته. وبسرعة خاطفة. هذه ملاحـظة. والثانية أن هاته النسوة جئن مفصلات

(١) المحاسن والمساوى. ٣٢٣ .

على ما يريده إياس، ان كان هذا فعلا حدث من إيـاس، أو قاله إياس، فقد يكون منحولا عليه. هذه حبـلى، وهـذه مرضـع، وهـذه بكر، فُصّلن تفصيـلا للمـلاحـظة التي سجلهـا، والثالثة أنهن فسرن للمتسائل ما أكد كلام اياس.

أحببت يا بُني، أن أفتح لك نافذة بها تستطيع أن تقرر صحة الحقائق، أو ما قد يكون هناك من خيال فيها.

وإليك قصة أخرى في الفراسة، والجميل فيها أنها قصة تاريخية، وأنا أحب التاريخ، وهذه قصة في العصور القديمة، وفيها صور لحياة الناس في ذلك الـزمن. وقـد يكـون فيهـا شيء من الخيال. وقد فتـحت لك باب التمحيص، فحـاول أن تجرّب مقدرتك في فحص هذه والتحقق منها.

تبدأ القصة من المثل الذي يقول: «لو ترك القـطا لناما»، وما وراء هذا المثل أن حذام بنت الريّان، ملك مَعَدّ، كانت معه،

وأن غازيا من حِمير سار لقتال أبيها مع قبائل حمير. فلقيهم الريّان في أحياء ربيعة، فالتقوا في أرض تدعى «المرامة». فاقتتلوا يومين وليلتين، ثم رجع الحميري إلى عسكره، وهرب الريّان، وسار يومه وليلته. فلما أصبح الحميري، ورأى عسكر الريّان سار في طلبه، وجعلوا يمرّون، ويثيرون القطا، وجعل القطا يمرّ على عسكر الريّان، فانتبهت ابنته، فقالت لقومها:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا
فلو ترك القطا ليلا لناما

فارتحلوا، واعتصموا برؤوس الجبال، فرجع القوم، وفي ذلك يقول حميد:

إذا قالت حذامِ فصدّقوها
فانَ القول ما قالت حذامِ[1]

(١) المحاسن والمساوى. ٤٥٨ .

هذه قصص من الأدب العربي مدوّنة، يمكنك أن تقرأها في أي كتاب، ولا خطر عليها من الضياع. أما التي عليها خطر الضياع فهي ما يرويه الناس مشافهة اليوم عن جيلهم أو جيل آبائهم. هذه إن لم تدوّن فقدها الناس. وفيها طرافة، وفيها صور ناطقة. وسأقصّ عليك واحدة منها عن الفراسة، لتتسلى، ولأحافظ أنا عليها من الضياع، لأنها ستكون من صور مجتمع صحرائنا الناصعة.

هناك فخذ من قبيلة الظفير شدّ ونزل أحد الوديان، طلبا للمرعى، وكان معهم «عارفتهم»، والمعروف أن العارفة نبيه يقظ، وفي عصر ذلك اليوم قال العارفة لابن سويط: «شدّو عن الوادي» واصعدوا فوق «الظهرة» فانه سيأتي سيل. فهزئ به بعض رجال القبيلة، لأنهم لم يروا أثرا للسيل، لا غيماً ولا سحاباً، ولا ندى في الهواء، ولا رعدا يسمع من بعيد، ولكنّ ابن سويط يحترم «عارفتهم»، ويثق به، ولم يجرب عليه

في الماضي هزلا أو استهتارا. فأمر قومه بطاعته، والصعود إلى حافة الوادي، فصعدوا غير مقتنعين، وابن سويط محتار، لأن العارفة قال كلمته وسكت.

وقبل منتصف الليل سمع القوم هديرا يصم الآذان، ورأوا السيل يأتي «درواً» من أعلى الوادي دون غيم أو مطر، لقد حطّ السحاب في أرض أخرى، وتجمّع، وأقبل السيل يسبقه الزبد كأنه فحل إبل غضبان. واكتسح الذين في وسط الوادي ممن لم يقتنعوا بما قال «العارفة» وتدارك بعض الناس أنفسهم، ولكنهم فقدوا إبلهم وأغنامهم التي غنمها السيل الجارف.

سأل ابن سويط العارفة بعد أن صدق قوله كيف عرف أن هناك سيلا سيأتي. فقال العارفة: «أنتم كنتم مشغولين بإبلكم وأغنامكم وأموالكم، أما أنا فليس عندي إبل أو غنم تشغلني، فجلست بعيداً أفكر في

الكـون، وفي خلق الله سبحـانـه وتعـالى، فرأيت الجرابيع، تعمل بهمّة ودأب في نقل أولادهـا من الـوادي إلى «الظهرة»، المكان الذي لا يصله السيل، وتعجبت من حرصها على أن تكمّـــل عملهـا بسرعـة، فقلت في نفسي: لابد أن هناك أمرا شغلها، وجعلها تفعـل ذلـك. ولم أجـد خطرا متـوقعا غير السيل، ففسرت عملها به.

أظن هذا يا بُني يكفي، فقد أخذت هنا أكثر مما توقعت، وأكثر مما كنت نويته. والأمر بالمقدر من الله وليس المنويّ من البشر.

الجادة والزقاق وخط الاسفلت

أي بُنيّ !

أيّ ناحية ألتفت إليها أجد حولي ما يدخل ضمن ما أردت أن أتحدث معك عنه، ولعلّ من المناسب أن أتكلم معك، يا بُنيّ، عن الطرق والشوارع، لأنها من الأمور التي لمسها التغيير جوهريا: في سعتها وفي نظافتها وَفي شكلها. ولو قام الأموات من قبورهم لما صدّقوا ما يرون بأعينهم، ولتوهّموا أنهم في غير المملكة، لأنهم لن يتصوروا أن جهد الانسان يمكن أن يصل إلى هذه النتيجة في هذه الفترة القصيرة. إنها قفزة، يا بُنَيّ، ولا كل القفزات (كما يقولون). وعلى هذا تحتاج أن تفكّر في هذه النعّمة، وليس فقط جانب العطاء فيها، ولا جانب الحيازة أو الانجاز، ولكن أن هيأ الله النفوس والنّوايا لتعمل لتستحق هذه النّعمة. والعبء، يا بُنَيّ، كبير في الوصول إلى مثل هذا الإنجاز، وهناك عبء مماثل له، هو سعيكم للإبقاء عليه، وتطويره

لتستحقوه. وأنا متفائل أن هذه الغصون من تلك الشجرات، ولن يخيب أملنا فيكم. وسيشكر لكم أبناؤكم جهودكم، مثلما شكرتم، أو سوف تشكرون لنا، وكما شكرنا لآبائنا وجيلهم، سعيهم وأرهاصهم لتهيئة ما نتمتع بتوفره، ونرفل في ثياب بهجته.

هذه الطرق الممهّدة والمعبّدة المزفّتة العريضة بأرصفتها، وأنوارها، وإشارات المرور فيها، والحواجز، والعلامات التي وضعت لتكمل الراحة والأمان، داخل المدن وخارجها، والشوارع بأحجامها المختلفة، وأرصفتها المتباينة، وما تخفيه تحتها من أنابيب ممدّدة للمياه، والصّرف، والكهرباء، والهاتف، قبل ثلاثين عاما أو يزيد قليلا لم تكن متوفّرة، ولم تكن في خدمة آبائك، وهيأها الله لك ولجيلك، تنعمون معها بحياة هنيئة وارفة.

كانت الطرق يا بُنيَّ ضيّقة مظلمة، بعضها لا تسمح إلا بمرور جمل بحمله، والشوارع لا تسمح

بمـــرور أكثـر من شخصيـن في بعض الأحيـان، والقليل منها تدخل معه السيارة، دون أن يصافح جنباها الجدار من هنا والجدار من هناك. يخيّم على هذه الـطرق الظلام الدامس في اللّيل. بعضها لا ينفـذ، ومتعـرج مثـل الأفعى، والغبـار والـتراب يغـطيـان وجههـا، ويشوّهان أديمها. أرضها غير مستـويـة، إن جاء مطر أصبح السّير عليها خطراً ومـزعجـا، قد ينزلق الإنسان فينكسر عضو منه، وإن سلم لم تسلم ثيابه، وما أغلى الثياب، يا بُنيّ، في تلك الأيام. وما أصعب غسلها، وليس الذين لا يملكون إلا ثوبا واحدا بقليل.

هذا عن الطرق الداخلية في المدن والقرى، أما بين المـدن والقـرى فحدّث ولا حرج، بعضها لا يسمى طرقـا إلا بما يوجـد عليهـا من الصُّـوى والعـلامات، وأحيانا ما تحفره الأرجل من جوادّ، نتيجة الذهاب والإياب عليها، سواء كان المسافر راجلا أم راكبا. عدد الذين يضلون الطريق مثل عدد الذين يهتدون اليها وفيها. يوم أن كانت الجمال

هي وسيلة الانتقال كان لابد في أغلب الأحيان من دليل عارف، ومرشد متردّد في الطريق، يهدي القافلة، وينير لها سبيلها، لم يكونوا يعرفون محطّات على الطرق، يرتاحون فيها، ومنها يتزودون كانوا يضطرون للسّير والسّرى حتى يبلغوا القرية الأخرى، يحملون أزوادهم بمزاودهم، يأكلون منها ما ينقذهم، لا ما يشبعهم. شغلهم الشاغل الماء الذي معهم في الرّوايا، وموارد المياه التي أمامهم، أو يخرجون عن طريقهم ليذهبوا اليها و «يردون»، ثم يعودون إلى الطريق مرة أخرى. ولو حدث ما لم يكن بالحسبان من ثقب في القربة، أو انبعاج نتيجة تمرغ الجمل في لحظة من لحظات حاجته إلى ذلك، لأصبحت حياتهم في خطر. وما أكثر ما كنا نسمع عن أفراد وجماعات ماتوا نتيجة قلة الماء، بسبب ضياعهم عن الطريق.

أما بعد مجيء السيارات، والاستفادة منها في الحمل والتّنقل بين المدن، وقبل ان «ترفّت» الطرق. فكان لعناء السفر قصة أخرى. لا تقل في

جهدها وعنتها عن ذي قبل عندما كان الجمل هو الوسيلة. كان لابد من «بَدْع» خط جديد لها يتلمّس السّهل ويبعد عن الوعر، يطلب الأرض الصلبة عن الأرض الرخوة، يضطرّ المسافرون إلى اختيار الأطول لسهولته عن الأقرب لوعورته. وآفة السّفر في تلك الأيام المرتفعات، لضعف السيارات عن تسلقها، أو «رخاوة» الأرض ولينها، لأن السيارات عادة تنغرس عجلاتها فيها، ولا تخرج منها إلا بجهد يبذله الراكبون في دفعها أو جرها، بعد التبريح لعجلاتها حتى تسهل الأرض أمامها.

أما حيلتهم في طلوع التلال، فهي أنهم ينزلون من السيارات، ولا يبقى فيها إلا السّائق الذي يتلمس مفاتيح القوّة فيها، ومكامن الدفع، فيجهدها ما أمكن الإجهاد، حتى لتسمع فحيح صدرها، وهي تحاول الصّعود، وكل عضلة من السائق مشدودة، وعيناه مركّزتان بجمود على ما أمامه، لأن حواسّه كلها مع الحركة البطيئة للسيارة، والأمل يملأ جوانحه في أن جهوده تأتي بنتيجة، وأن

لا يفاجأ بانفجار في المكنة، نتيجة الضغط المتوالي، الذي قد يتعدّى الجهد الموضوع فيها من صانعها. فالسيارات يا بُنيّ، في تلك الأيام هزيلة، ولكنّ الفرحة بها أكثر من حقيقتها. وفي هذه الأثناء ركابها الذين نزلوا منها، كل واحد منهم بيده حجر بقدر قوته على الحمل، يضعه خلف عجلاتها حتى لا تنحدر إلى الخلف، وكلما مشت خطوة نقلوا الأحجار خطوة، حتى تصل إلى قمة المرتفع، ثم يبدأ همهم في النزول وصعوبته، والنزول، كما هو في كل أمر صعب، ويتحمله في هذا السائق الذي يداري مقدرة سيارته، والمهم بين آلات السيارة، في هذه الحالة، هي «الفرامل» الكوابح، التي تحد من انحدار السيارة واندفاعها، وتراها وقد إنتكست مقدمتها، بعد أن كانت هي المرتفعة في الصعود. وبدأت تتمايل يمنة ويسرة، كأن هناك من يدغدغها، وتتماوج تبعا لهوى الطريق، وما فيه من عوائق، حتى إذا استوت على الأرض «الجلد» السمحة القويّة إنطلقت تسابق الريح، وتقيّد

الأوابد، وكأنها حيوان أطلق من عقال. تحس كأنها من لحم ودم، فرحتها بهذا النوع من الأرض واضحة في اندفاعها. وفي انتظام أصوات آلاتها. وكأنه يغذيها في انطلاقها مداعبة الهواء لمقدمتها وصفحتيها، وضحكات راكبيها وأغانيهم وحُداهم.

لا تسأل عن الألم والأسى و «الغلدمة» التي تصيب الركاب فيما لو سمعوا فرقعة إحدى العجلات، فإذا نجوا من خطر «الانقلاب» فلن يسلموا من الوقوف، وانتظار تغيير هذه العجلة، في جوّ قد يكون حارا جدا. وقد يكون بارداً برود الزمهرير. والوقت الذي يقضونه في هذه الوقفة قد يكون طويلا، لأنهم في ذلك الوقت يضطرون «لرقع» قلب العجلة، وهذا أمر دقيق، يحتاج إلى تأنٍ وصبر. هذا إذا تبين أنهم لم ينسوا الاستعداد لهذا بإحضار لوازمه، وإلا فأنهم يجلسون منتظرين مرور سيارة أخرى، قد يكون معها مطلوبهم، وإلا فالحسنى عليهم من أحد ينقل أمرهم إلى أقرب

مكان يمكنه إسعافهم، أو أخذ أحدهم ليقوم بهذه المهمة. على هذا تكون الرحلة شهرا بدل أسبوع.

سأروي لك قصة طريفة عن طلوع أحد السائقين مرتفع «بويب» قرب الرياض. هذا المرتفع كان يمرّ به السائقون الذاهبون للمنطقة الشرقية عند مرورهم «بالعارض». وحذّر أصدقاء أحد السائقين صديقهم من «بُويب»، وطلبوا منه الاستعداد، ومداراة هذا المرتفع. وكان واثقا من نفسه، فهزئ بهم وبرأيهم، وأكد لهم أن أيّ مرتفع لا يقف عقبة أمامه لحذقه. فلما أقبل على المرتفع أعطى السيارة كل قوتها، و«شبّ» عليها وأوقد، حتى لجّ فيها كل شيء بالحركة والصراخ، وكان معه حمل ثقيل تنوء السيارة تحته، فلم يرحمها، وأخذها من قوة إلى قوة، ومن لهب إلى لهب، ومرقت مروق السّهم، ولكنه والفرحة تملأ جوانحه، وقد استوى على المرتفع، إكتشف للأسف أن صندوق

السّيـارة بحمله، قد تركـه خلفـه ملقى في منتصف الجبـل، وهــذا هو سبب مروق السيارة في النّهاية مروقا، فنكسّ رأسه خجلا ممن معه، ومن سيارته، ومن حمله. ومن ثنايا الجبل الشامخ تحته، وهو يطل على الطريق تحته، وكأنها تضحك منه.

ولـلأمطار مع السّيارات أمر مقلق في الماضي، لرداءة الـطرق، فالمـطر يجعلهـا مصائد للسّيارات بصـور مختلفـة، فالمـطر يخفي الحفـر، فيقـع فيها السائق دون احتراس، ظانّا أن الأرض المغمورة بماء ضحل أرض مستوية، وبعض ما يفاجأ به من حفر أو أحجـار تكـون قاتلة، أو تتسبّب له وللركـاب بالعجـز المقعـد، والمطر يجعل من الأرض الصّلبة أرضـا رخـوة، إذا دخلتهـا السيـارة صعب عليها الخـروج منها، أو الرجوع عنها، فيضطر السّائق والركاب إلى استعمال الحيل الحاذقة لاخراجها من مأزقهـا، مع ما يصيب المــلابس من بلل ملطّخ بالـطين، ومما دهى الأشياء المنقولة من المطر الذي

ربما كان صبّه مثل أفواه القرب. أما إذا كان الوقت شتاء فستجد أمراض الشتاء مرتعا خصبا في السائق والركاب، زكاما وعطاسا وكحّة ونزلات معوية وروماتزم.

وكما ترى، يا بُنَيّ، السيّارة في الماضي وطرق المواصلات، بينها وبين طرق اليوم وسيارات اليوم بون شاسع، وتفصيلي هنا إنما جاء لأنك لم تعاصر هذه الأمور، وأنا أريدك أن تعرف مشاقّ الماضي، حتى لو كانت وسائله حديثة، لتقارنه بما أنت فيه من نعمة، لتشكر الله كثيرا على ما أنت فيه، وما سوف تراه وجيلك مما هو آت من مظاهر التقدم الفني الحديث.

ليت عندنا في تلك الأيام آلات تصوير مثل آلات تصوير الفديو المستعملة اليوم، لنصوّرك، أو على الأصح، لنصوّر صاعدا من الصاعدين على جبل كرا، وكان طريقه أحد الطريقين الموصلين من مكة إلى الطائف، وأنت تعرف، يا بُنيّ، أن الطائف هي مصيف مكة في ذلك الوقت، كان الناس

يصعـدون على أقـدامهم، وأحيـانا يصعدون على ظهـور الحمـير جزءا من الـطريق، ولـو أرينـاك الصورة فيما بعد لرأيت شيئا مسلّيا، فالقرود قبائل تخايل الناس من بعيد، هذا فحل من فحولها يحمي نسـاءه، وتلك أمّ تحمـل طفلهـا، وطفل قرد، أو صغـير قرد، عقله لم ينضـج، ويجـرؤ فيقترب من المسافرين ولكنه في لمح البصر يصعد الجبل بخفة ورشاقة، وصوته خلفه يردد الجبل صداه. والويل، يا بُنيّ، لمن يحاول أن يؤذيهـا، فهـي تتـقـن فنـا منجنيقيـاً، رميـاتـه لا تخطئ ، فلا تدري من أين سيأتيك الحجر، ولا كيف. يرفع أحدها مؤخّرته، وينـزل رأسـه، ويرسل الحجر له حفيف من بين قدميـه المنصـوبتين كأنهما مقلاع، فيصيب الهدف أحسن من أيّ إنسان مدرّب على الرمي. ومع هذا فأنت لا تعدم أحيانا أن ترى قردا يباع في المدن أو في القرى، إحتيل في صيده، والإنسان إذا صمم غلب حتى الحذر من القرود. أليس هذا انجازا!؟.

أيْ بُنيّ

أمـا السَّفـر، يا بُني، من مكة إلى الطائف عن طريق السيـل، فلا يخلو من جهـد وعناء. فهناك «بهيتـه» و «اليمانية» «بعبع» السائقين الذاهبين من مكة إلى الطائف، لأن في احداهما ارتفاعاً متدرجا، ولكنه ممتد إلى مسافة طويلة يضطر السائق معها إلى إراحة السيارة عدة مرات، وفي الأخرى رمل يخيف السـالكـين بالسّيـارات، أمـا «الـزيمة» فواحة في صحــراء، ماؤهـا عذب، ومـوزهـا وليمـونها هما المبتغى. إذا وصلهـا النــاس وقفــوا يتنفســون الصعداء، ويستعدّون لاستئناف الرحلة الشاقة، فإذا لاح لهم السيل الكبير تهلّلت وجوههم وجلسوا فيه وقتا يفوق وقت الرحلة في هذه الأيام من مكة إلى الـطائف. والسبب أنهم يغتسلون، ويقتـاتـون، ويستعدّون لصعود «الريع المنحوت» وهو من أشق طرق الجبـال حينئـذ، وقـد بقي العمل في تنزيله وتسهيله سنوات وسنوات.

أمـا اليـوم فأنت يا بني تختـار أحـد الـطريقين السـابقـين، ولكن أمرهما اليوم يختلف: الجبل لا

تأخـذ فيـه أكثر من ربع ساعة صاعدا عن طريق «كرا» إلى «الهدا» أو نازلا منه، طريقه طريق مزفّت متعـرِّج حتى يخفف لك نسبـة الارتفاع، فيه من الإشارات والتعليمات ما يزيد الأمان فيه، صيانته مستـديمة، والإشراف عليه لا ينقطع. في طلوعه متعـة وجـاذبيـة، تراها في تعرّجه، وكأنه يصاول صعـوبـة الجبـل ويـطارحهـا. ترى جمال أنـوار السيارات وهي تتلوىّ معه في الليل صاعدة أو نازلة.

أمـا الـطريق الثـاني، وهو طريق السيل، فهو طريق مستوٍ إلا في نهايته عندما يقترب من الطائف، ولكنـه ممهدٌ مزفّت، فُصِل فيه طريق الآتي المتسع لأكثر من سيارة، عن طريق الذاهب المماثل له في السعـة والتمهيـد، ولم تعـد تشعـر بالارتفـاع أو «التغريز» الذي سمعت الآن عنه. وفوق هذا ليس هنـاك خوف من حيـوان يشـاطـرك الـطريق، ويعرضك لحوادث الاصطدام، فهناك شبك مساور للطريق بطولـه، يمنـع تسلل أي حيـوان. أمـا

السيـل، يا بُنيّ، الـذي كان في المـاضي حفنة من العشش فقد أصبح مدينة متكاملة. فيها من المرافق ما لم يكن في المدن العريقة قبل خمسين عاما. وفيها ما يحتـاجـه المسافر لنفسه ولسيّارته. والناس اليوم يمرونها مرّ الكرام، لا لعدم أهميتها، ولكن لقرب مبتـدأ سفرهم من منتهاه، قرّبه جودة السيارات، وسهولة الطرق.

ولو سافرت، يا بُنيّ، من الطائف، إلى الباحة، مارّاً ببلاد بني سعد، لرأيت منظرا مدهشا، رأيت طريقا سهلا، وأنفاقا تخترق الجبال. والطريق يعلو حينا، وينحدر حينا، يستقيم حينا، ويتلوىّ حينا. لا تشعر أثناء سفرك بالملل، لكثرة القرى التي تمرّ بها، واختلاف طرازها، وجمال بنائها. يجاور المبنى الحـديث القـديم، وتتكـوّر المبـاني الحكومية على رؤوس الجبـال، وعـلى شعـاف المرتفعات، وعلى جوانب الأوديــة، والاخضرار يطرز المنــاظــر. ويمكنك أن تستمر إلى أن تصل إلى عسير، لترى بعض المعجزات هناك أحدثها «عقبة شِعار»، التي

وصلت بين أعلى السراة هناك وتهامة، بتدرج مريح للسائقين حتى لو كانت سياراتهم من السيارات الكبيرة ذات الأحمال الباهظة طلوعا أو نزولا، النظر إليها متعة، وهي لسان ناطق بجهد منظور مشكور في هذه المنطقة، لأنها ساهمت في تبادل خيرات الزراعة بين من هم فوق، في شعاف الجبال وبين من هم تحت، في تهامة في مستوى البحر، وليست هي الوحيدة، بل هي ثالثة ثلاث، على طول السلسلة من غامد حتى توازي الجبال جازان.

وما دمنا في هذه المنطقة، ولمسنا بعض المعجزات في المنجزات هناك، فلأتكلم لك عمّا هو مغاير لهذا، مما كان من وسائل الانتقال في الماضي، هناك مكان لعلك سمعت به، اسمه «الحَبَلَه» هذا اسم لواد سحيق، بين جبال لايرى من في قاعها قمم الجبال في الارتفاع والضباب أحيانا. يسكنه قوم مصرّون على البقاء فيه رغم صعوبته. لم يلتفتوا إلى الإغراءات التي عرضت عليهم لهجره إلى ما هو أسهل منه، وهم بهذا يؤكدون غلاء الوطن ومحبّته،

طريقهم منه إلى أعلى لتبادل التجارة مع الآخرين، يمر بمراحل مخيفة وخطرة، بعضها حبال يتعلقون بها لمسافات معينة، ثم رفوف بارزة يمشون عليها منبطحين، أو أوتاد مثبتة تساعد أيديهم وأرجلهم على الثبات طلوعا أو نزولا. وقد تزلّ قدم أحدهم فيقع، فتتناثر أعضاؤه على الصخور أشلاءً.

وهناك جبال مُمَهِّد فيها طريق لا يسلكها في الماضي إلا الراجل، يراه أهله وهو يصعد، فلا يصل إليهم إلا بعد نهاية اليوم، وبعض طريقه يصعده فارجاً ساقيه بين جبلين متلاصقين أو متقاربين.

إن الفرق بين الماضي والحاضر في الطرق واضح وضوح الشمس في رائعة النهار. والمَرافق، يا بُنيّ، خاصة المدارس، يمشي نشاطها خلف نشاط الإنجاز في الطرق. وقد غطّت الطرق مسافات كبيرة في زمن قصير مثالي. وأصبح المواطن يسير في هذه القارة من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى

الغرب، بسيارته لا يحمل زادا، إن أراد، لا له ولا لسيارته، فالبقالات ومحطات البنزين متقاربة، ومتنافسة في خدمة المسافر.

قارن هذا، يا بُنيّ، بما جرى للمسافرين في القصة التالية في زمن مضى، قبل مجيء السيارات:

سافر أحدهم من العارض على جمله إلى القصيم، وحيدا ليلحق بركب تواعد معهم في مكان في الطريق، وقبل غياب الشمس، وهو يحث مطيته، وهي «تدرهم» تدعرم ناهبة الأرض، قبل غياب الشمس، المحتضرة أمامه، رأى شيئا يتحرك عن بعد، وقد التفت إلى يمينه، فغلبه حب الاستطلاع إلى أن يتجه إليه، لأنه كان شيئاً مساويا للأرض يشبه الحيّة، ولكنه ليس بحيّة. فلما وصل إلى المكان الذى رأى فيه الحركة، رأى ما هاله، مما لم يكن يتوقعه، رأى رجلا قد حفر لنفسه قبرا، وتمدد فيه وبجانبه إبريق خال من الماء وصرة ليس فيها شيء. ورأى

من ملامحه أنه رجل هندي، وكان المسافر يعرف اللغة الهندية، لأنه سبق أن عاش في الهند ما يقرب من اثنتي عشرة سنة، وكان ما رأى في أول الأمر هي يده خارج قبره، فسأله عما أوصله إلى هذا، فقال إنه ضلّ الطريق، وهو في طريقه إلى مكة للحج. فحمله معه، بعد أن أطعمه وسقاه، وعرض أن يوصله إلى المدينة التي هو ذاهب إليها، ليذهب للحج مع ركبها الذين يذهبون كالعادة في تلك الايام إلى مكة تحت حراسة مع مجموعة كبيرة، لأن الطريق في تلك الحقبة لم تكن آمنة، فشكره، ولكنه طلب أن يوصله إلى أقرب مورد ماء في الطريق. وتمّ هذا.

وبعد ثمان سنوات، وبينما هذا المسافر يقطع طريقه مع جماعة من الرياض إلى إحدى مدن القصيم، وقد أسدل الليل أستاره، رأى وصحبه نارا يتراقص لهبها من بعيد. فطلبوا من أحدهم أن يذهب

«ويحوف» من حولها، ويكشف ما إذا كانوا مسافرين أم قطاع طرق، فذهب المبعوث، ودار عن بعد حول القوم فلدهشته تبين أنهم من أهل بلدته هو ورفقاؤه. فرجع وبشّرهم بما رأى، فنزلوا عندهم. ولاحظ الرجل الذي ذكرت أنه أنقذ الهندي، أن أحدهم قام من مكانه، ولم يتبين وجهه، فأخذ ناقة هذا، وابتعد بها، وعقلها، وأنزل مِن على ظهرها «الشّداد». فظنّ أنه شاب من خدم القوم، وأنه لأنه من أهل بلدته، أكرمه بهذه الخدمة، إحتراما لمقامه. وعندما ذهب لينام وجد أنه قد وضع عند فراشه إبريق ماء. وفي الصباح وكان الوقت بردا، عندما استيقظ لصلاة الفجر، وجد بجانب فراشه إبريق ماء دافئ. كل هذا وهو لا يشك إلا أن القائم بهذه الخدمة شخص من أهل بلدته.

وقبل أن يتبين نور الصباح، وبينما القوم حول النار، وضحضاحها لا يسمح برؤية

تفاصيل الوجوه، نطق هذا الخادم المجهول موجّها الكلام إلى هذا المخدوم. وقال له باللغة الأردية، (ألا تعرفني «صاحب») فقال المخاطب: «لا أعرفك، هل قابلتك في دلهي»؟ فقال: «لا»، فقال: «أفي كراتشي قابلتك»؟ قال: «لا». قال: «أفي كلكتا»؟ قال: «لا». قال: «أفي مكة المكرمة، أم في المدينة المنورة»؟ فقال: «لا». قال: «أفي الهند، في أي مكان»؟ قال: «لا»، فقال له: «إذاً أخبرني فقد استنفدت ما عندي من الأماكن التي يمكن أن أتقابل فيها مع مثلك». فقال: «أنا الذي أنقذته من الموت قبل ثمان سنوات». فقال له: «ألم تنكل عن هذه المخاطرات في البراري». قال الهندي: «لا»، لي ثمان سنوات أحجّ ماشيا من الهند إلى مكة، أقضي ستة أشهر ذاهبا، وستة أشهر عائدا».

أي بُنيّ !

هل تظن أن بأمكانك، أو أحد من جيلك أن يتحمل مثل هذه المشاق، أو أن يصبر على هذا العناء؟ المهم عندنا أن تعرفوها حق معرفتها، وأن تقدروا ما أنتم فيه من نعمة يمتعكم بها ما ذكرته في الصفحات السابقة عن الارتفاع بمرفق المواصلات، ويضفي عليكم الهناء والراحة ما سهلته من توفر مدارس ومستشفيات، رفعت من مستوى الذهن وتقبله وإنتاجه، ومن مستوى صحة الجسم وعافيته.

أي بُنيّ !

إن قيمة الحياة، كما خبرتها، هي في أن يستفيد المرء من كل دقيقة في حياته في بناء شيء ما: القراءة بناء، وتعوُّد الكتابة بناء، وتدوين الأفكار بناء، والعمل النافع بناء، والقول النافع بناء، والمشي في الخير بناء. إذا حاسب المرء نفسه في نهاية اليوم، أو آخر الاسبوع، أو بعد انقضاء الشهر، أو بعد تمام

الحول، ووجد أن في كل من هذه حصيلة تتناسب مع بالغ قدرته، وجد راحة لا تعدلها راحة، وشجّعه هذا على المزيد، وأدّى به هذا إلى جعل الأمر هذا عادة، وعادة من هذا النوع أكرم بها من عادة.

لا تعجب يا بُنيّ إذا أنا أطلت في أمر المواصلات، فهذا لأنها مهمّة، ولأن وسائلها متعددة، لو أفردت للطائرة حقلا، وتحدثت عن السيارة وحدها، وفرعت منها ما تنقسمان إليه، لوجدت أن ما قلت قليلا. هذا وأنا لم أتكلم كلاما رئيسيا عن الباخرة أو القطار، أو الترامويّ لأن دخولها في حياة جيل والدك في الجزيرة كان محدودا وطارئا.

ولن أبطئ عليك في ذكر قصة كما تعودت أن تتطلع وأن تطالب، وأن أتأبى ثم أجيب، تمنعا أحيانا وأحيانا تشويقا. هذه المرة سوف أروي لك شيئا عن أمر تاريخي، عناصره: الطريق، والقوافل، والمسافرون، وأمر الطرق، وإيمان الناس.

سافـرت قافلة من بغداد قاصدة الحج، وفي الطريق خرج عليها قاطع طريق مشهور هو وجمـاعتـه، وأخذوا ما معهم وأوثقوهم بالحبـال. وحـان وقت العصر، فاذن مؤذن القافلة وأقام الصلاة، وتقدم رئيس العصابة وأمّ جماعتــه، وبعـد أن سلّم قال له أحـد المقيـدين من رجال القافلة: «خلطوا عملا صالحـا وآخر سيئا». ما هذا الذي تفعله، تخيف المسلمين، وتنهب أموالهم، ثم تستقبل القبلة وتصلي، وتحْرص على أدائها في وقتها، وتخشى خروج الوقت». قال قاطع الطريق: «نعم، أردت أن أُبقي خيطا رفيعا بيني وبين الله، سبحانه وتعالى».

وبعـد سنوات وبينما هذا المسافر يطوف حول الكعبــة، رأى رجــلا عليــه ثيـاب النساك، يدعو بين زمزم والكعبة، فعرفه، وجـاء إليه، وخاطبه قائلا: «ألست فلاناً، قاطـع الـطريق المشهـور، منذ سنوات».

قال: «نعم». فذكّره بما كان من أمره معه.
قال اللص: «أرأيت كيف منّ الله عليّ، فمتّن هذا الخيط الدقيق، وجعله قويا، جذبني إلى رحاب الله سبحانه، وأرجو أن يقبل توبتي، ويخفف عني ذنوبي مع الناس الذين آذيتهم وأخفتهم وهم ضيوفه».

قد تسمع مثل هذه القصة، يا بُنيّ، تقال عن شيخ قبيلة في هذا الزمن المنصرم، وانه كان يعترض طريق حجاج شرق الجزيرة بعد ان يقطعوا الدهناء، فيسلبهم أموالهم وأنعامهم، وصادف مرة أنه فعل هذا بقافلة لأمثال هؤلاء الحجاج، ورؤي عند أذان المغرب أنه أفطر إفطار الصائم، ولما سئل عن كيف يجمع بين الصيام ونهب الحجاج، قال: «لا أريد أن أحارب على جبهتين».

وقد تكون القصة الثانية حدثت، وقد تكون قيست على الأولى، فان كانت حدثت فلأن مجرى الفكر الانساني متماثل، ويأتي بالمتكرر المتشابه، وإن تباعدت الازمان والديار. وإن كانت قيست

فليست أول أمر يعجب ويقاس عليها ما يُتبنّى ويدّعى.

ولمثل قصة قاطع الطريق قصة وردت في أحد كتب الرحالة، أو في إحدى الروايات عن أحدهم، وهو أن هذا الرحالة تعرض لمثل هذا مع القافلة التي هو فيها وكانت لتجار، لعلهم كانوا ذاهبين بما معهم من العراق إلى الشام، وكان رئيس العصابة شاعرا، فعطف على هذا الرحالة، الغريب عن القافلة لأدبه ولمعرفته مثله بالشعر، وبهذا الاشتراك في هذا الفن الجميل، ولتأثيره في إزالة الهيبة بينهما سأل الرّحالة رئيس العصابة التي قطعت عليهم الطريق عن تبريره لأخذ أموال هؤلاء. فقال له: «إنني وزملائي من المسلمين، وإنّ لنا حقا في بيت مال المسلمين، نأخذه عادة من هؤلاء وأمثالهم لأنهم لا يؤدون الزكاة». فقال له: «كيف تعرف أنهم لا يؤدون الزكاة»؟ فقال: «سوف

أثبت لك هذا». ثم ناداهم واحدا واحدا، فكشف له أنه ليس من بينهم من يعرف ما زكاة ما معه من المال.

تذكر هذه القصص، يا بُنيّ، عندما أتكلم معك في صفحـــات لاحقـــة، إن شاء الله، عن الأمن واستتبـابـه، وعن النعمـة التي تنعم بها وجيلك، وستقـدرهـا حق قدرهـا عندما أزيح بعض أستار الزمن عما كان سائدا في الجزيرة من خوف و «ذلّ» في زمن مضى.

وأخشى يا بُنيّ، ألا تكون القصص التي ذكرتها قد «ملأت عينك»، وذلك لأنها ليست من الطرافة بما اعتدت، وفيها من الجد والموعظة ما لا يجعلك تضحك، وأنت تحب الضحك، لاقترانه «بالنكت» والطرائف، وهذه أعرف أنك لا تملها، ولأنها مظهر من مظاهر الهزل، وأنت تحبه، لأنه ظاهرة سنك. وكأني بك تريدني أن أحول «الموجة» إلى هذا الذي تريده.

وأزف إليك البشرى بأني تذكرت نوعا يشبع رغبتك وهو عن السيارة، وعن المستجدين في تعلم القيادة، أو اقتناء السيارة.

الأولى تروي أن أحد الناس فرح بأنه استطاع أن يجمع المبلغ الكافي لشراء سيارة، فدأب على تعلم القيادة، حتى عرف هذا الفن الجذّاب الممتع. فأخذ السيارة من وكيل السيارات، وخزانها مليء بالوقود، وأخذ يتنقل بها من البيت إلى العمل، ويذهب بها عصرا إلى الفسحة والتنزه، وفي الليل لزيارة الأصدقاء. وبعد أيام كان متجها إلى عمله، وعند إشارة المرور وقفت السيارة، وحرنت، وأبت أن تستجيب لمفتاح تحريكها، وبقيت الجميلة المفيدة، قبل دقائق، جثة هامدة الآن، كومة من الحديد، وسدّت الطريق، واحتار سائقها فيها، فتركها في مكانها وذهب وأحضر مهندسا ليكشف علّتها، ويعرف كنه دائها، وبمجرد

أن دخل وأدار محركها، عرف ما بها: إنها خالية من (البنزين). كانت دهشة صاحبها بالغة، وتعلم أول درس في أمور السيارات. هذا درس لك، يا بُني، بدون مقابل، إلا إذا اعتبرت أن عناء قراءة هذا ثمن، وأنت قريب من مثل هذا التفكير.

وقصة أحد أصحابنا ممن بدأ يتعلم قيادة السيارة، وقبل أن يتقن العودة بها إلى الخلف دخل شارعا ضيقاً لا يتسع إلا لسيارة واحدة، فقابله آخر بسيارته، وظن أنه سيرجع، ولكن لم يتحرك أحد منهما، وبقيا متقابلين، فذهب الذي يتعلم إلى المتعلم وسلم عليه بأدب، وقاله له: «إني لا أزال أتعلم القيادة، فأنت مخير إن أردت أن تصل إلى عملك أو أهلك، إما أن ترجع إلى الوراء لأتمكن من المرور، أو أن تأتي وترجع سيارتي إلى الخلف وتمر». وقد اختار الرجل أحد الحلّين والضحك يكاد يقتله.

وقد سمعني أحدهم أقص هذه القصة على ابنه، فقصّ عليّ القصة التالية، وهي مماثلة:

> دخل أحدهم في شارع ضيق ليعبره، فوقفت السيارة، ولم يستطع تشغيل مكنتها، واستحى أن يستعين بأحد، وقد سدّ الطريق، فتركها، وعليها مفتاحها، وذهب بعيداً، وأخذ يرقب. فجاء رجل بسيارته، وصوّت بمنبّه سيارته، ولّما لم يجُد هذا نفعا، نزل وجاء إلى السيارة، فلما لم ير أحداً بها، ورأى المفتاح. شغلها، وأخرجها، فجاء صاحبها إليها بعد أن أصبحت في «البراح».

وصاحب هذه السيارة بعينها، وهو يتعلم، أوقف سيارته على مرتفع، ونسي أن يجذب كابح اليد الاضافي، كما تقتضيه أصول قيادة السيارات، وما إن جلس يتغدّى هو وزميله حتى «تدحدرت» السيارة وتدحرجت، واصطدمت بجدار الغرفة التي هما فيها ودخل مقدَّمها، وكأنها تحتج أنهما لم يدعواها إلى الغداء فجاءت متطفّلة بدون دعوة،

والحمد لله أنها لم تأكلهما.

يكفي، يا بُني، هذا عن المواصلات. وأختم هذا الموضوع بتذكيرك بشكر الله على ما أنعم به عليك وعلى جيلك، من سهولة المواصلات التي يسرت وصول التعليم إلى كل بقعة في المملكة، وهيأت لكل إنسان أن يتمتع بتوفر المواد الغذائية والكساء ومواد البناء، والرعاية الصحية، الذي كان يتبع تمهيد الطرق، ويسير مع الطريق أينما سار، وشكر النعمة، كما سبق أن قلت لك وكررت، ينمّيها. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبده: هل شكرت فلانا؟ فيقول: يارب علمت أنك المنعم، فشكرتك، فيقول الله تعالى: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يده»[1].

---

(١) محاضرات الأدباء ١٥٠.

خبز التنور والصامولي

أي بُنيّ !

أهم مادة في عناصر غذاء الانسان هي الخبز، لا أحد إلا ويعرفه، ولا بلد إلا ويحاول أن ينتجه، ولا مائدة في بلد موسر إلا وتحويه. توفّره دليل الرخاء، وشحّه دليل العسرة والفقر. تتسابق الدول على تحسين سلالاته، وتخفي أسرار هذه السلالات إخفاءها أثمن ما تقتنيه. المُتاجر فيه رابح، توريدا وتصديرا، اختفى عنصر من عناصر الغذاء في الماضي، أو قلّت أهميته، إلّا الخبز، فبقي لا يختفي ولا يعدم ولا يضعف الطلب له. قد يصاب بالضرّ إذا أصيبت الأمة التي هو لها، فتتردّى حبّته، ويسودّ لونه، ولكنه يبقى وإن كان عليلا قد خالط قرصه ما ليس منه أو غلب عليه. وجودته وصفاؤه وتعدّد طرق خبزه وتشكيله، يبقى دائما بين الأمم محل مفاخرة وتسابق. حاربت من أجله أمم، وسالمت

بسببه دول، تغنّى به الشعراء ومجّده الأدباء، دخل في القصص الحقيقية والخياليّة.

لهذا، يا بُنيّ، سوف نجعله مادة من مواد حديثنا، ومثلما هو إحدى مواد مائدة الأكل سوف يكون ضمن مواد مائدة غذاء الفكر والروح.

وسوف نتبعه في رحلتيه: رحلته في الماضي من الحقل إلى المائدة، ورحلته المماثلة في الحاضر، وسترى أمرا يدعو، يا بُني، إلى تسويد هذه الصفحات فيه، بل لعلها قليلة عليه. وما يُحقه حقه إلا كتاب منفرد، تجمع فيه أموره، ويحصر فيه ما قيل فيه وعنه، وما لعبه من دور. وسيكون وصف رحلتيه داخل المملكة وليس خارجها. ولا تنس أن الهدف تبصيرك ومن سانتك بما كانت عليه بلادك، وما كان عليه أهلك، وما صاروا إليه. بل إن الأمر سوف يقتصر على ما سيرويه شاهد عيان، حتى يكون ما يقال صورة واضحة لا غموض فيها، وثابتة لا اهتزاز بها.

كانت الحقـول في كثـير من الأحيان، يا بُنيّ، بدائية، بتعبير هذا العصر، وأرضا فضاء لا يميزها عن غيرهـا إلا البئـر الـذي يجعل لها ثمنا وقيمة، والـشجـر المحيط بها بعـد مدة، ليحميهـا من «المهابّ»، ويحدد معالمها. وقد تكون الأرض التي يزرع فيها القمح أرضا في الخلاء، يعتمد في زرعها على مياه الأمطار. وتتسع الأراضي المملوكة وتضيق حسب قدرة محييها أو مالكها. والإحياء، يا بُنيّ، بحفر البئر فيها وزرعها، وهي قاعدة إسلامية تؤمن الـرخـاء في الـرزق لمن عنـده همّة للعمل، وقدرة لمتابعته، ورفاه للبلد المزروعة فيه. وهذه الحكمة الاسـلامية تنفرد باستغلال الأراضي البور بطريقة طبيعيّة سهلة، تساعد على بروز من عنده القدرة على العمل، والتميّز به بين أفراد المجتمع وتهيىء سبيـلا موائـما لمن عنده رأس المال للمساهمة. أما الحاكم فقد ربح رخاء بلاده، وتوفّر الرفاهية لأمته، وقـلّص من المـسـاحـات البـور، وزاد في عدد الموسرين، وأنقص من عدد الفقراء والمعسرين.

يُحدَّد الحقل الذي سوف يزرع، في الوقت الذي يراد زراعته، وكان الناس في ذلك الزمن متعاونين، فليس هناك عمال يستأجرون، إلا القليل منهم، وإنما يساهم الفلاحون عادة في مساعدة بعضهم بعضا. إذا جاء وقت «الخَتَام» لحرث الأرض، إجتمعوا في الحقل الذي يراد قلبه وحرثه، وتعاونوا على ذلك. تسمعهم، يابُنيّ، وهم يغنون أغانيهم الجميلة، ينقلها هدوء الليل من مكانهم، عبر الحقول، إلى داخل المدينة، حيث الناس نيام، أو على وشك أن يناموا، هذه الأهازيج التي كان جيلنا، يابُنيّ، ينام على أنغامها، حتى يأخذ من هؤلاء العاملين الجهد، وينال منهم التعب، فينتهون إلى ما قرروا أن يصلوا إليه من حدٍ في عملهم، وإحدى هذه الأزهايج كانت تبدأ بالآتي:

أوّل الفال نبدأ بذكر الوليّ
ومن تبدّا بذكر الولي ما يخيب

وبعض الناس، يا بُني، حقولهم لا تستحق أن

يتجمـع لها عدد من الناس، فعندهم القدرة على تهيئة حيوان من الحيوانات المناسبة، لجرّ المحراث على هدى صاحب العمـل، الـذي يسـاعد نفسه وحيـوانـه بالأغاني المطربة. والعناء الذي يقابله لم يكن يتحمله إلا ذوو العـزائم والارادة القـويـة. وهؤلاء الناس في الغالب هم أصحاب الشأن، وقد يكون معهم من يعمل بجُعل يُجعل له، والحظيظ منهم من تَوفر له مثل هذا عاملاً أو معمولا له.

واليـوم هؤلاء «الختّـامـة» الحارثون يعملون في حقـل هذا، وغـدا في حقل ذاك. تعاون سمح، وتساعد بنفس راضية. أدرك هؤلاء الناس حاجة بعضهم لبعض، فهيَّؤوا السبـل لذلـك، وأتقنـوا العمل، ونفّذوه بحدب وجد وإخلاص. ليس منهم من يتذمّر، وليس منهم من يتوانى، وليس منهم من يشكو، وترى الواحد منهم يعمل بجانب أخيه، فلا تعرف مما يبديه من إخلاص أيهما صاحب العمل، أو «الفازع» المساعد.

ويأتي بعد الحرث الزرع، ووضع البذر، وتعهد ذلك بالسقي والعناية. وغالب السقي من آبار حفرت لذلك. وحفر الآبار، يا بُني، أمر يستحق أن يوقف عنده، وهو أمر صعب. ولو كان السقي سهلا وغير مكلف لغطت الآبار الصحراء، ولانتشرت الحقول، وغلب عددها عدد الناس. يأخذ الحفر فترة طويلة، والأجرة عالية، والمشقّة توجب ذلك. يبدأ الناس الحفر في الأرض الرخوة السهلة، حتى يصلوا إلى ما يسمى «الجبل» فيبدأ العناء، ويطلّ التعب المضني برأسه، فترى «الهيم» أو «الهيب» في يد الحافر يرتفع ويهوي، وحصيلة ذلك شذرات هزيلة من الحصى تتطاير يمينا وشمالا، كأنها جنادب متجمّعة أقلقتها قدم سار. ويستمر هذا العمل على هذا النمط، والأيدي يلعب براحتها الحفاء، والأكتاف يهدها ثقل «الهيم» والعضد والساعد تبعا لذلك، تشتدّ وترتخي حتى تخور، والبطن خاوٍ بعد أن كان مملوءاً، والعمل مملّ وبطيء والنفس «متغلّثة» ومغلقة وعازفة، ولا يُعفى

من هذا الجهاد إلا الراحة للصلاة مؤقتا، يفرح بها ضارب الصخر، والراحة الأخرى عندما يظلم الليل، وظلام الليل هذا بياض في النفوس المستعفية.

يذهب العاملون أثناء النهار «فيتبلّغون» بالغداء الذي يسكت صراخ معداتهم، وفي الليل يلقون بأنفسهم في فرشهم، بعد أن يصلوا العشاء الآخرة. لو رأيتهم وهم ينتظرون الإمام لهذه الصلاة لرأيت منظرا متّحدا: رأيت هؤلاء ينعسون لما بهم من تعب، لا يكاد يفتح الواحد عينه حتى يغلقها. أرأيت، يا بُني، السّيارة في «البطناج» كيف يخفت نورها، ثم يقوى، نتيجة مرورها على هذا الطريق الذي كأنه شعر رأس مجعد، إنهم يبدون وكأنهم سَيارة في «بطناج». والتعبير هذا، يا بُني، ليس تعبيري، وإنما استعرته من شاب في سنّك، وصف به شخصا ينطبق عليه هذا الوصف، فأردت الاستفادة منه وتسجيله.

وأحيانا، يا بُني، وبعد أن تقدّم العصر، وأُدخلت المخترعات، صاروا يستعينون بالديناميت، فكان يساعدهم على تفجير مناسم في الصخر، وقلّل هذا مدة الحفر، وإن كان زاد المؤونة، ليس في قيمة الديناميت الغالي وحدها، ولكن في الضّحايا البشرية، التي تتعرض للحوادث، لبعض جهلها بأصول هذه الصنعة. لنا جار لعلّه في الثمانين من عمره الآن فقد بصره، ولكنّ الله لطف وسلمت حياته، من جراء انفجاء ديناميت، وهو يعالج حفر بئر، ولعله عاجله الانفجار قبل أن يصعد من البئر، فأظلم عينين طالما تمتعتا ببهجة النور.

ويستمرّ الحفر، والضرب بالآلات البدائية، ويتكسّر منها ما يتكسّر، ويعوّض ما يعوّض، ويصلح ما يصلح، ويستبدل ما يستبدل، حسب المراحل التي يمرّ بها الحفر، حتى تبدأ الأرض تتندّى أمام أعينهم المتلهّفة، فيغشاهم من الفرحة ما لا مزيد عليه، إلا كثرة الماء وحلاوته. رؤية الماء، يا

بُني، في بلادنـا حياة، ولمسه حياة، وشربه حياة، واستعـمالـه حيـاة، لهذا يفرح الفارحون به عندما يرونه في هذه البلاد بعد الجهد والتعب، فرحة لا يقدرها إلا أهلها.

ثم يبدأ طيّ البئر بالحجر بطريقة فنية، يختلف فيها طاوٍ عن طاو، ويبدأ هذا الطيّ من بدء المنطقة الصخـرية في البئر، إلى أعلى، حتى يتعدى ذلك الطيّ الأرض، وينتهي بعد أن يعمل «الكافّة» شفة البئـر. يتبـع هذا استكـمال بنـاء ما تحتـاجـه عدّة «الســواني»، من مبــان أو مسـتلزمــات. يُطلّ «الـزرنـوق» و «الدامغة» من مكانهما الشامخ على البئر وعدّتها التي فوق فوهة البئر، ومنها «المحّال»، وهي عجـلات ذات أسنـان طويلة، وفيهـا مجرى للرشـا عميق حتى لا يفـرط «يمرس». وللمحال «قبّ». ومنها «الدرّاج» وهي عجلات لا أسنان لها، بسيـطة لا تعـدو أن تكـون خشبـة اسطوانية فيها محور، تدور عليه. وعلى جانبي «المحال» والدراج «الزابنان» بذراعيهما الحنونين امتدا «لتلقم» وتدور

بينهما كل من «المحّالة» و«الدرّاج»، ينحدر «الرّشا» و«السّريـح» بالغـرب، وهـو نوع من الـدلاء مستطيل، أحد طرفيه «القبة» واسع به «عرقاة» لملء الماء، وطرف آخر «الكُمّ» ضيق ينقفل وهو صاعد، وينفتح بعد أن يتم صعوده، ويكون فوق «اللّزا» وهو المكان الذي تصب فيه الغروب ماءها. وهو أول مكان يرى فيه الماء وجه الأرض والسماء، وأول خطوة يتخذها في رحلته الطويلة المقبلة. هناك يلتفت الناظر حوله فيرى أول ما يرى عند «الدرّاج» «الكـافّـة»، وهي فم البئر من الجهـة الأمـامية. ويـوازنها من الجـانب الآخر لفم البئر «الجُوبة». وتـرى المـاء قد بلّل «الكـافّـة»، وأطفـأ عطشها، وسوف ترى منه أكثر وأكثر فيما بعد، حتى يركبها «الشّبا» أو «الخوبان» باخضراره المعهود، وهو طاغ على ما حوله من الرواكد هناك. تجده هناك، وفي «اللّزا»، في أطـرافه، وفي السواقي وفي الشّعب، وفي البرك.

ثم يستقر الماء في «اللّزا» ليستجمع قواه، ليدلف

من «الخـرّاره» وهـو منـطلق إلى «السّـواقي» و «الشّعب»، وهذه بعضها طويل، وبعضها قصير، تظللها، في الغالب، شجيرات تحنو عليها، بكثافة أوراقها، مثلما حنت عليها هي بمائها العذب يروي جذورها، ويطفئ عطشها. ومنها يمر إلى البركة حيث يستقرّ ليلتقط أنفاسه، ويجتمع بما سبقه وما سيلحقه من دفعات من الماء. ثم تخرج من البركة دفعات من الماء تذهب هذه لتسقي ذلك الحوض، وأخـرى لحوض ثان وثـالث ورابع، مارة بقنوات صغـيرة تزن توزيـع المـاء ليتنـاسب مع حاجـة الأحـواض إليه، ولملء أفواهها الغرثى العطشى، فهـو ماؤهـا وغـذاؤهـا. وتبتسم له «المـديـان» والأحواض. وينشط «الرائس»، ليوزع بالقسطاس بين هذه وتلك، وكأنهن أولاده أو بناته، ويرقبهن في شربهن، وفي نمـوّهن. بينهن وبينـه لغـة صامتة، ولكنها معبّرة بتعبير مفهوم منهما. لا يفوت أحدهما من الآخر معنى، ولا تغيب إشارة.

أظن الـوصف، يا بُني، طال عليـك، ولهـذا

سأريحك قليلا. افتح أذنيك واستمع إلى هذه القصة، وهي خاصة بما نحن فيه، وتلمس ما تكلمنا عنه. وسنردفها بأخرى متصلة بما تحدثنا عنه. ولا تستغرب من تعبيري «بتحدثنا»، والمتكلم واحد، ولكني اعتبرتك متحدثا لكثرة مقاطعتك، وتدخّلك في الحديث. واللغة العربية، يا بُني، سمحة، وواسعة في هذا المجال وأمثاله. ألا ترى أنك تقول «كلمة» وتعني «مقالة». ما أجملها من لغة إذا تعمقت فيها، ونزلت إلى قاع أسرارها، وتجوّلت في دروب الجمال فيها. لو عرفها العالم حق معرفتها لما نطق بلغة غيرها. أليست لغة القرآن الكريم؟ يكفيها هذا. وإياك ثم إياك أن تقول كما قال ابن دريد لابن نفطويه:

أُفٍّ على النحو وأربابه
قد صار من أربابه نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصيّر الباقي نواحاً عليه[1]

---

(١) نزهة الألباء ١٩٦.

والآن إلى القصة الأولى: كان هناك رجل، وله ابن أخ، يرعاه، ويقوم على تربيته، بعد وفاة والده، ولم يكن عندهم، يا بُني، في ذلك الوقت دراسة تشغلهم، قليل من الشباب في ذلك الوقت الدارس، ولا يكاد يذكر القارئ، وإذا درس أحدهم أو قرأ، اقتصر ذلك منه على القراءة والكتابة، وقراءة القرآن. وأقلّ من القليل أولئك الذين ينقطعون لطلب العلم الديني: من قرآن وفقه وتوحيد وحديث وتفسير، وأصول وفرائض. لا تجد هؤلاء إلا بين أناس في الغالب لهم أملاك تدرّ عليهم رزقهم، أو أوقاف رصدت لتساعدهم. ولهذا كان العلماء قليلين، والقضاة يعدّون على الأصابع، ولم يكن ينجدهم إلاّ قلة المنازعات والشكاوي، لأن أمور الناس كان يغلفها التسامح، ويدخل فيها الصلح. وكان منهم من يذهب إلى القاضي تحرّجا من

أن يتنـازل عن شيء قد يكون التنازل عنه إثم، أو يأخذ ما ليس له بحق.

وهذا الشاب كان في دور النّشاط، ولكن لم يكن هنـاك مجال لنشاطه فكان يملأ وقته أحيانا بعبث الأولاد في ذلك الوقت، أو يقوم باللعب والسباحة والصيد وهذه كلها تأخذ كل وقته. وكان إذا جن الليل ربط في وسطه حبـلا، ونزل إحدى الآبار التي تأوي إليها العصافير بعد غياب الشّمس، وقد وضعت لها أوكـارا في طيّ الـبئـر، تأوى اليهـا، ويستكنّ فيها فراخها. فينزل بحذر، أحياناً ينحـدر بحبـل، وأحيانا «يصوبع» يتمسك بأصابعه في أحد النتوء، أو المخافق، وكذلك يفعل بأصابع قدمه، حتى إذا «وازن» أحد هذه الثقوب بين حجار الطيّ، وحاذَى أحد الأعشاش أدخل يده، و«سَلَت» ما في الثّقب من عصفـور وعشّ، فلا وقت للانتقاء فلا حالته وهو معلّق، ولا ما يتوقّع من العصفور

من فرار، يسمحـان له بالاكتفـاء بالتقـاط العصفور. يجمع حصيلة مجزية بهذه الطريقة وينتقل كل ليلة من بئر إلى بئر.

وكان عمّه ينصحه، ويعظه، ويحذّره من إخافة هذه المخلوقات الرقيقة ويعتبر عمله أمـرا لا يليق، وخـاصّـة أن معيشته ليست فيهـا. ويخّـوفـه من عقاب الله، فقد يقع، بسبب ذنـوبـه، في البئـر، ويكـون الثمن حيـاتـه. وقد ينقطع به الحبل، وقد ينفلت «المشقاص» الذي هو ممسك به. ولكن هذا الكلام يذهب أدراج الرياح، دون جدوى. فالأذن غير صاغية، والعقل غير حاضر، ولا من منصت أو مستمع، ولا من متّعظ ولا من خائف. حتى يئس عمّه من كثرة ما يتكلم معه عن هذا الأمر، فتركه في النهاية.

وفي ليلة من الليـالي، كالمعتـاد، جمع حصيلة رحلة من «مشـاكّ» البئر، وثقوبها،

وكان يضع ما يجمعه داخل ثوبه الذي أقفل جزأه الاوسط بالحبل الذي ربطه في وسطه، وسار وهذه الطيور تتقافز بين ثوبه وجلده، حتى إذا وصل إلى البيت، وضع صيده تحت قدر كبير كالمعتاد، على أن يأتي في الصباح فيدسّ يده، ويأخذ الطيور واحداً واحداً يذبحها، أو يقصصّ أجنحتها ويلعب بها. ولكنّه لم يجد في الصباح، في هذه المرّة، ولا عصفورا واحدا. ولهول ما رأى، رأى حيّة تسعى، خارجة من تحت القدر، فَرحة بالفرجة التي بدت لها، عندما رفع طَرف القدر، فتجمدّ في مكانه من هول الصّدمة، ولحسن حظّه أنه لم يكن في الطريق الذي سلكته، ورأى داخل جسمها نتوءاً أدرك أنها عصافيره، وأنها بمجرد أن استيقظت في الصباح بدأت إفطارها بصيده بلا حمد له ولا شكور. ولكنّ شكرها كان لخالقها الذي لم يحرمها رزقها الذي اعتادت أن تجده في

شقـوق البئـر، منسابة مخاطرة، تبحث عما يقيتهـا، فمنّ الله عليها بوليمة لم تحسب لها حسابا، جاءتها بدون تعب أو نصب. وتبينّ له أنه كان قد «خمطها» مع العصافير في البئر.

ولم يعد صاحبنا يقترب بعد ذلك من العصافير أو الآبار، فقد جاءه إنذار من الله بليغ، لم يخطر له أو لعمّه على بال، وأدرك أنه ليس الوحيد الذي ملأ فراغ فكره صيد العصافير، وأن له منافسا خطيراً، أنجـح منه وأخطر، وحمد الله على السلامة. وكان كلما تذكّر أنه كان بامكان هذه الحيّة التي «قشّها» مع العصـافـير، في ظلام الليل، دون أن يدري، أن تلدغه، فتميته، لولا أنها في الغالب انشغلت بالبدء بهذه العصـافير وهي على مائدة بين جلده وثوبه. ولعـل رائحـة العصـافـير كانت أشهى للأكل من رائحة عرق بدنه للدغ.. كلما تذكر ذلك حمد الله وشكره.

تُرى، يا بُنيّ، هل تتعظ أنت ومن حولك ممن هم مثلك في طباعهم بمثل هذه القصة، وهل تقتنع

بأن «من هو أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة» . وأن من يعطف عليك ويحنو يرى في ما يضمن سلامتك وصحتك وخيرك ما لا تراه، والعاطفة هي، يا بُني، ما خلف كثير من أعمالكم التي لا تُرضي من هو أكبر منكم. والعاطفة إذا ركبت الانسان وساقته بعيدا، مخلّفا العقل وراءه، أوردته موارد الهلاك. العاطفة والعقل مثل كفتي الميزان، أو هما ميزان، إذا رجحت واحدة خفّت الأخرى، هذا لا يعني، يا بُني، أن العاطفة يجب أن تلغى أو تهمل، أو يستهان بها وتترك، لا، ولكنها أقرب إلى الجموح، فأولى بها أن تخزم، ويستقى منها بمقدار، لأن لها وجها جميلا إذا أحسن الانسان التعامل معها.

والآن إلى القصة الثانية : وهي قصة قديمة ترويها العجائز للصغار في زمان مضى، وفيها حِكم ومواعظ غُلّفت في ثياب الوقائع. قيل إن خزانة السلطان سرقت، ولم يعثر على الأموال التي أخذت منها، وكان هناك شاب أخرجه ظرف، علّمه درسا، من

قريته، وصادف أن دخل هذه المدينة، وكان الغريبَ فيها في ذلك اليوم، فتوجّهت التهمة، كما يقال، إليه، ومُسك فقال لهم أطلقوني، وامشوا معي، وسوف أدلّكم على السّارق. فأطلقوه. فسار في شوارع المدينة وأزقّتها، وخارجها في بساتينها وبين أشجارها وحقولها. فرأى أول ما رأى رجلا يسير، وقد وضع أجراسا في عصاه، فسأله عن الهدف من وضع الأجراس، وبُطء السّير الذي لاحظه عليه، فقال: «يا بُني، إني أخشى أن أطأ نملا فأقتله، دون إنذار، فرأيت أن أنبهه بهذه الأجراس، فأخرج من الحرج والأثم». قال للشرط: «إمسكوه، فهذا أحدهم».

ثم سار فرأى رجلا، وكانت الدواب هي أدوات الركوب في ذلك الوقت، يعلّف جملين، وكان أمامه «قَتّ» و«عرفج» وهما مما تحبه الجمال. والمفروض أن يخلط بين جزء من

هذا، وجزء من ذاك، ويعلفه لهما، وكانت العـادة أن «المعلِّف» يقـدّر هذه الخلطة بفكره، أما هذا فقد أحضر ميزانا يزن فيه خلط القتّ مع العرفج. فسأله صاحبنا عن أسباب هذه الدقّة، مع أن الأمر لا يستلزم ذلك. فقال: «يا بُني، لا أريد أن أقف مع الجملين غدا عند الله فيقـول هذا: «لقـد غمطتني حقّي، وأعـطيت ذاك أكثـر مما أعطيتني». فقال للشرط: «إمسكوه فهذا ثانيهم».

ثم ذهب إلى أحد الحقول، فرأى رجلا معه «مسحاة»، قد استؤجر ليفرق الماء بين الأحـواض، بين مزرعتـين لشخصـين مختلفين. ورأى أنه عندما ينتهي من العمل في حقـل أحـدهما يغسـل المسحاة جيدا، بطريقـة توحي كأن «المسحاة» من الفضّة. فسـألـه عن أسبـاب هذا التـدقيق، وهـذه العنـايـة، فقـال: «يا بُني، أخشى أن يأتي

أحدهما يوم القيامة فيقول: «نقلت من مزرعتي حبات من التراب، وأضفتها إلى مزرعة جاري، فتبرئة للذمة عملت ما عملت». فقال للشرط: «إمسكوه فهذا ثالثهم».

لاحظ يا بُني أني سقت القصة من أجل الثالث، لأني سبق أن تكلمت عن «الرائس» وهذا رائس، وسارعت بتنبيهك حتى لا تسارع كالمعتاد، دون تروّ وتقول: «هذه القصّة ليس هذا محلّها».

وَوُضع الثلاثة في السجن، وَوُضع من يستمع إليهم دون علمهم، فسمعهم يقولون مندهشين: «كيف عرف أننا الذين سرقنا خزنة السلطان، وهو غريب، ولم يقدم إلا بعد السرقة، ولم يرنا، ولم يعرفنا؟». ولم يعلموا أنه عرفهم بالتصنع الذي بدر منهم، والتظاهر بغير ما يبطنون، و«الملزق يا بُني يطيح» كما سبق أن ذكرت لك.

نعود إلى متح الماء في البئر، بعد أن أوصلناه إلى الأحواض، التي أترعت بالماء القراح. والعبء، يا بُني، في متح الماء يقع على الدابّة الماتحة، و «العامل» يحثّها، نازلا صاعدا في «المنحات»، وهو المضمار الذي عادة يتساوى طوله مع عمق البئر. وهو ينحدر قليلا حتى يساعد الحيوان على جرّ «الغروب» الملأى، حتى يصل إلى «المصبّ». وعندما يعود تكون فارغة، فلا يزعجه صعود هذا الانحدار حتى يصل إلى «المحرف»، الذي تدور عنده الدوابّ. والمحرف أملس ناصع البياض لكثرة حكّ أقدام الدابّة له، ولهذا يضرب به المثل لرأس الأصلع، فيقال إن رأسه كحصاة «المحرف». ثم تستمرّ الدوابّ غادية آتية في «المنحات». وحاديها يغني أصواتا نديّة، وتمرّر الوقت، وتساعد على تحمل التعب، ويمشي خلفها وبيده «المِسْوقة» التي يحثها بها على الاستمرار، وعدم التوقف. والَحيوانات تكون أحيانا جمالا «معاويد» وأحيانا حميرا، وقليلا ما تكون بقرا أو ثيرانا. وعدّتها

القتب وهو بصفة «الشدّاد» لبعير الحمل. أما «العلق» فهو حبل من العصب متين، أحد طرفيه يمسك السريح والآخر يمسك الرشا. وتحت الشداد «الوقاة» ويدلّ عليها اسمها.

وينبت القمح المزروع، وتخضرّ سنابله ثم تصفرّ، فيفتر ثغر الفلاح، وهو يرى ثمرة جهده قد أينعت، وحان حصادها. ويبدأ الحصد، وتبرز الروح الجماعية مرة أخرى، ويجمع الحبّ في «الجرين»، ثم ينقل إلى حيث يداس على أرض صفا، قوية، تدوسه البقر في الغالب، وهي تدور حول محور ثبّت لها، ثم يذرى، فيعزل «الهبوب» القمح عن التبن: هذا للإنسان وهذاَ للحيوان أو البناء. ويوضع القمح في أكياس، أو في زنابيل «محادر» كل واحدة تكبر أو تصغر، ثم يباع، وينقّيه من يشتريه. ثم يطحن منه ما يحتاج إلى الطحن والخبز.

والطحن يحتاج مني ومنك إلى وقفه، لمشقّته وعنائه، فبعض الموسرين يستأجرون من يطحن

لهم، والـرّحى التي يطحن عليها نوعان: رحى لطحن الدقيق، وأخرى لطحن الجريش أو على الأصح لجرشه. والجريش يخرج منها خشنا، لأن حبّة القمح فيه تكسر إلى خمسة أقسام أو ستة. وكثير من النّاس، حتى الأغنياء يطحنون دقيقهم بأنفسهم، وهو عمل تقوم به النسّاء عادة. وكثيرا ما يخصص للرّحى «صفّة» أي غرفة خاصة بها. ويتمّ الطحن ليلا أو نهارا، حسب الوقت الذي تكون فيه الطاحنة غير مشغولة بعمل آخر.

والرحى حجر مدوّر ثقيل قطره في حدود ٥٠سم، مخروق من وسطه، تحته مثله، يوضعان طبقا على طبق، يسمّى الواحد «طبقة» الرحى «الرحا». وفي الأعلى عند الحافّة تجويف يركز في عود يستعمل يدا لتحريك الرّحى. ويسقط الحبّ إلى «التبرقة» وهي خشبة معترضة في الفتحة التي في وسط الطّبق الأعلى، يسقط منها الحبّ، فينداح بين الطّبقين، وينطحن من جراء الحركة الدائرة بتخالف بين الطبقين، الأعلى والأسفل، ومع كثرة

الطّحن يصبح صفحاهما ناعما فيحتاج إلى تخشين، ويسمى في عرف أهل المهنة «نقش الرحى».

ويخرج الدقيق من الجوانب، ويتجمع في حوض مبني لذلك، يسمىّ حوض الرحى. ومن مسمّيات أجزاء الرحى: «المنخاس»، وهو عود لتحريك الحب المتراكم عند الفوهة التي يسقط منها الحبّ «اللّهوة»، و«المخفّة»، وهي فتحة أسفل الرحى في المقدّمة، عن طريقها يوصل إلى «المِخفاف» الذي يثقّل حركة الرحى أو يخفّفها. ومن أمثالهم عن الرّحى قولهم: «من كمّك للرّحى» إشارة إلى النّظافة، لأن الحبّ إذا كان نظيفا اختصر طريقه إلى الرّحى، بدلا من أن يمر (بالمحدرة) والصحن للتنقية.

وتتقابل امرأتان أحيانا تتساعدان على الطحن ومشقته، وقد تغنيان للأطفال:

(نطحن عشانا سلّم الله رجانا
نطحن عشانا مرقوق)

وفي غياب الأطفال تغني النّساء أغاني جدّيّة، قد لا تخلو من لمسة غزل، إذا لم يكن حولهن من الرجال من يسمع، خاصة إذا كن مستأجرات من الممتهنات للطحن.

وللرّحى صوت معروف، يَعرف من في البيت أو من جاوره بأن الرحى تعمل. وطحن الحرب للمتقاتلين شُبّه بطحن الرحى للحَبّ، فالصورتان متشابهتان. ولا تعجب، يا بُني، إذا قرأت في كتاب ما عن حرب ما بأنها طحنتهم طحن الرحى بثفالها، فالصورة مطابقة كما ترى، وصوت الرعد من بعيد يشبّه بصوت الرحى. وقلت هذا لأني لا أظن أنك سوف تسمع صوتها رغم أنك قد تراها في المتاحف ولعلّ أكبر رحى موجودة في الجزيرة تلك التي في نجران، في منطقة الأخدود، وهي رحى أثرية، تدل على قوة أهلها، وازدهار حياتهم، وتقدّمهم. ولابد، أن الذي يقوم بإدارتها للطحن فريق كامل.

ثم يؤخذ الدقيق من حوض الرّحى، يابُني، وينخل ويعجن وقد يخمّر، ثم يقرص ويفرد،

وتحـرص المـرأة التي تتولى ذلك أن يكون القرص رقيقا ما أمكن، ثم يلصق في التنوّر في جوانبه التي انصهـرت من النـار في أسفله، والمرأة التي تخبز، وهي تهوي بيدها لتضع القرص في التنور، تتعرض «لحمو» النار، و «صليها»، ولكنها تصبر على ذلك، وتشتهـر امـرأة عن أخـرى «بنـدارتهـا» وإجادتها للخبـز، وفـرد القـرص، ورقتـه. ويصبـح الخبز ناضجـا بعـد هذا الجهـاد، وجاهزا للأكل. وفي بعض المنـاطق لا يخبـز الخبـز في التنور، وإنما في الفـرن، وهـو تجويف في الجـدار تُحمى النـار في أطرافه، فيعكس سقفه النار إلى وسطه في الأسفل حيث يوضع الخبز غير الرقيق، فينتفخ مع الخميرة والحرارة، ويتجوف.

وفي بعض المنـاطق، في تهامـة، حيث الطقس صعب، والرياح تهب في منتصف الظهيرة، فلا تدع شيئـا إلا كَفَـأتْـه، أو ملأتـه بالـتراب، وأضاعت معـالمـه، وتنّـورهم في العراء غاطس في الأرض، ولهـذا يضعـون، بعد الانتهاء من خبز الخبز، في

وسط التنور، رمحا يهتدون به إلى تنورهم في المساء.

هذه، يا بُني، صورة رحلة القمح في الماضي إلى أن يصير خبزا، أما في الحاضر فالأمر مختلف، يا بُني، ليس هناك مشقّة تذكر، فالآلة وفّرت على الناس أشياء كثيرة، لم يعد هناك إنحناء ظهر، ولا آلام مفاصل. ولا تشنج عضلات من جراء العمل المجهد المضني، ولا ضرب بالهيم أو الهيب، ولا تفجير بالديناميت حتى يخرج الماء. بل هناك حفّار على وجه الأرض، يغرس سنه فيها، ويدور ويحفر، حتى يصل إلى الماء، وقد ينبع الماء، أو يركّب عليه آلة تخرجه، وأخرى ترشّه على الزرع. ذراع يدور قد يصل قطر دورته إلى نصف كيلو أو أكثر. حرث الأرض بآلة، وزرع الأرض بآلة، وتسميدها بآلة، وحصدها بآلة، وفصل الحب عن القصب بآلة، والطحن بآلة، والخبز بآلة، حتى تصل إلى المائدة دون عناء يذكر. والمال في كل هذا خادم مطيع.

إن البون، يا بُني، بين الرحلتين شاسع كما

ترى، ومع هذا فلا يزال في الجعبة ما لم يعرف، فقد تختصر رحلة القمح الحديثة بما قد يخترع من آلات جديدة.

هنا، يا بُني، يتضاعف واجب الشكر على هذه النعمة، وشكر النعمة سبب لدوامها. والنّعمة دوحة باسقة غذاؤها الشّكر، فان سقيت وأطعمت بقيت خضراء، وزادت ورقا وأغصانا، وظلّلت، وأعطت ثمارا، وإلاّ جفّت وماتت، وموت النعمة وفقدانها لا يعدله فقد وانعدام. والشكر ليس باللسان فقط، وإنّما به وبالعمل، وبالنّيّة الطيبة، وإعطاء النّعمة حقّها وافيا.

وكتب الأدب يا بُني ملأى بما ورد عن الشكر، بعضه مقتبس من القرآن أو السنة، وبعضه مستقى من الشعر والقصص، ولعلّ كلمة القصص هذه نبهّتك إلى ما قلت، وتتطلع إلى قصّة، سوف أسرد لك شيئا مما قيل من غير القصص في باب النّعمة، وإن كانت نيّتك حسنة، فسيذكرني الله قصّة في هذا فأنت -كما يقول العامة- وحظّك.

وأول ما يجب أن تعرفه، وأنت تعرفه، قول الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾. وقال تعالى: ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾. وقال تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾. وقال عزّ من قائل: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾. وقال جلّ وعلا: ﴿ فابتغوا عند الله الرّزق واعبدوه واشكروا له﴾. وقال تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾. ومدح نوحاً عليه السلام بأنه عبد شكور.

وقد وردت كلمة الشكر في القرآن ما يقرب من خمس وسبعين مّرة. وحبذا، يابُني، لو رجعت أنت أو بعض صحبك إلى تفسير بعض هذه الآيات، ورأيت ما قاله المفسرّون عما ينطوي تحتها من المعاني المبهجة.

والرسول عليه الصلاة والسلام، إمام الحامدين، وقدوة الشاكرين، قد ردّ على إحدى زوجاته في ملاحظتها على كثرة تعبّده، وإجهاده نفسه في رضاء الله، وهو من غفر الله له ما تقدّم من

ذنبه وما تأخّر. قال: أفلا أكون عبدا شكورا[1].

وروي عنه، ﷺ، أنه قال: «خمس يعاجل صاحبهن بالعقوبة: البغي، والغدر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، ومعروف لا يشكر»[2]. فتدبّر هذه، يا بُني، فتحتها درر من التوجيه الصادق يحميك الأخذُ بها من الزلل.

وقال الفضل بن سهل: «من أحبّ الازدياد من النعم فليشكر». وقيل: «أشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فانه لا زوال للنعم إذا شكرت، ولا إقامة لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِيَر».

قد يكون، يا بُني، فيما سردته بعض الثقل على ذهنك وعلى صبرك، ولكنك سوف تحمده يوما ما عندما تعود إليه. بل إنك قد تحمده قريبا إذا جاءك موضوع في الإنشاء، أنا متأكد إن أنت أجبت بها

---

(١) المحاسن والمساوى. ١٢٣ .

(٢) المحاسن والمساوى. ١٣٨ .

حفظت منه فسوف تبزّ أقرانك، وتحصل على درجات أكثر منهم، فاشحذ طموحك.

وكتب، يا بُني، أحد الكُتّاب لآخر مما يلمس هذا الموضوع فقال: «ولست أقابل أياديك ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر الذي جعله الله جلّ وعزّ للنعم حارسا، وللحق مؤديا، وللمزيد سببا»[1].

ولاحظ، يا بُني، أن الشّكر ممن يقدّره لمن يستحقه، وهناك يا بُني من يسير مخالفا لهذا النور الهادي، فيكفر النعمة بدل أن يشكرها، ويكفيك هنا قصة واحدة من كفران النعمة بدل شكرها.

طارد جماعة من الصيّادين ضبعا، فلجأت إلى خباء شيخ من الأعراب شهم، حماها منهم، وأجارها، وكانت هزيلة متهالكة، فأخذ يسقيها الحليب، ويطعمها اللّحم حتى اكتنزت، فنام ذات ليلة فوثبت عليه وقتلته، فقال أحد الشعراء عن ذلك:

(١) المحاسن والمساوى. ١٢٣

ومن يصنع المعروف في غير أهله
يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر
أعد لها لمّا استجارت بقربه
غذاء من ألبان اللّقاح الغزائر
وأسمنها حتى إذا ما تملّأت
فَرَتْه بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من
يجود بمعروف إلى غير شاكر[1]

ويكفيك هذا من الحديث عن النعمة وشكرها، وإسداء المعروف وإنكاره، وسنعود في باب آخر إلى تذكيرك بالنعمة وشكرها، فالمقارنة التي اتخذناها في حديثنا معا في هذه الوريقات تقتضي تذكيرك كلما كانت المقارنة باهرة.

---

(١) المحاسن والمساوى. ١٢٥

أيْ بُنَيَّ

الدوشق واللحاف والمرتبة

أي بُني !

لقد أطلت عليك في الحديث، والوقت ليل، وأرى النوم يداعب عينيك مداعبة النسيم لزهرة ندية، في صباح باسم، والأمر يزيد معك، ويذكرني، يا بُني، ما أنت فيه من النّعاس بأيام مضت حين كانت أمهاتنا يستجبن لرغباتنا في أن يقصصن علينا قصّة «السّعلوة» أو «أمّ العنزين»، ولكثرة الإجهاد الذي تعرضن له، أثناء النّهار، من غسل وتنظيف، وطبخ وطحن، يغالبن النّعاس، وهن يقصصن علينا هاته القصص الخيالية، فإذا أخذ النّوم من التي تقصّ مأخذه، أيقظناها. فتقول: أين وصلت؟ فنذكرها بموقفها من القصّة. ولا تكاد تبدأ حتى يخفت صوتها، وتهدأ حركة يدها، وتبدو كأنها سيارة قد انتهى وقودها. وأحياناً تكمّل القصة، وقد تبدأ بأخرى، وننام، وتنام معنا، فتترك نائمة حتى يأتي من يوقظها لتذهب إلى

فراشها، وقد لا يكون بعيداً.

ولعلك تعودت أن أحكي لك حكاية «أمّ العنزين»، سأحكيها مختصراً، لأنك الآن شببت عن العمر الذي تُقصّ عليك فيه مثل هذه الحكاية. ولكن إثباتها يفيدك عندما تريد أن تنظر إلى الجوانب الفنيّة فيها، في ضوء مفهوم النّاس في ذلك الزمن.

> «أمّ العنزين» نتصورها من الوصف وكأنها عنز، أوحى إلينا اسمها بذلك، وعدوّتها «السّعلوة»، ولك أن تتصوّرها كما تريد، والحوادث هي التي ستحدّد الصورة في ذهنك. «أمّ العنزين» لها أولاد تقفل عليهم باب منزلها، وتذهب للمرعى كلّ يوم، وهي تقفل الباب عليهم خوفا من أن تأكلهم «السّعلوة»، و«السّعلوة» قد أضمرت سوء النية تجاههم. ولهذا انتهزت أول فرصة غابت فيها «أمّ العنزين» فجاءت وطرقت باب «أمّ العنزين»، فسألها أولاد «أمّ العنزين»: «من أنت»؟ قالت: «أنا أمّكم»،

فقالوا: ألمسينا مؤخّرك، فوجدوه خشنا، فرفضوا أن يفتحوا الباب لأنّهم عرفوا أنها «السّعلوة».

لما عرفت «السّعلوة» الفرق بينها وبين «أمّ العنزين»، إحتالت على تمليس مؤخرتها، فدهنتها بزبدة، وأعادت الكرّة، وطرقت باب «أمّ العنزين» في غيابها، فردّ أولادها، وسألوها من هي. فقالت: «أنا أمّكم» فطلبوا أن تُلمسهم مؤخّرتها، ففعلت، فوجدوها ملساء. ففتحوا الباب، وانقضّت عليهم، واختطفت «حتيش، ومتيش»، وتمكّن الباقون ومن جملتهم «قضّام العيش»، «واللّي لابس خيش» و«الرّبيش»، «واللّي ما أدري ويش». ودخل أحدهم بالمكحلة، والثاني في «المخفّة»، والثالث في «المثعوبة»، والرابع بالدلّة. وسلموا من «السّعلوة». فلما جاءت أمّهم في اللّيل، وعرفت ما حدث، غضبت وراحت وتحدّت «السّعلوة»، واتفقتا

على المُنــاطحــة في اليــوم التــالي. فذهبت «السّعلوة» إلى النّجّار، وقاولته على أن يصنع لها قرونــا من خشب. أمـا «أمّ العنـزين» فذهبت إلى الحدّاد، وقاولته على أن يصنع لها قرونا من حديد ففعل.

وفي اليــوم المحــدّد تقــابلت الاثنتــان وتنــاطحتا، فتكسّرت قرون «السّعلوة» من أول منــاطحة، وأصبحت لقمة سائغة «لأمّ العنــزين» التي أجهــزت عليهــا بقــرنيهــا الحــديــديــين فَفَــرتْ بطنهــا، واستخــرجت ولديها، وذهبت بهما إلى الغدير، ونظّفتهما، وعادت بهما يقفزان أمامها فرحين بالسلامة والعودة مع والدتهما إلى إخوانهما.

لا يبدو، يا بُني، أن هذه الحكاية قد أيقظتك، ولا يزال النعــاس يداعب أجفــانــك، ومادام هذا حالك، وهذا حال النّوم معك، فلعلّ من المناسب، يا بُني، أن أتحدث معك عن الفِراش، وكيف كان

الناس ينامون في الماضي. وما سأقصّه عليك سوف يجعلك تقرّب حاجبا من حاجب لا «تقطيبا» وغضبا، ولكن دهشة وعجبا. لأنه فعلا كذلك إذا ما قورن مع ما تنام عليه اليوم.

مرّ زمن على أناس كانوا، يا بُني، يفترشون الثرى، ويتوسّدون أيديهم أو الحصى، يفرحون بالرّملة الناعمة، ومفرشها الوطيء، وبرودتها في الصيف. أما إذا كانت الأرض قاسية أو غير مستوية، فإنها «تعلِّم» وتؤثر في جنوبهم وأصداغهم أحيانا، فيصحو أحدهم وقد ينام ولم ينم، مفاصله تؤلمه، وجنبه موجع، وعضلاته تئنّ، وجسمه مهدّم.

ولكن هناك، يا بُني، من هم أحسن حظّا من هؤلاء، لا يفترشون الأرض، دون أن يكون بينهم وبينها تبن، أو قطعة خيش، يماثلها غطاء يفرح به «المشتيّ». كل حركة منهم تثير عليه ما اكتنز في فراشه من غبار هو بخوره، ورائحته هي عطره،

يفضل الحيوان، لو خير، أن ينام واقفا ولا يفترشه. والدابّة يابُني ذكرتني بأمر وهو أن هناك من يقضي الليل نائما على ظهر بعيره أو حماره، قاطعا الفلاة بين مدينتين، أنيسه الوحدة، ورفيقة الظلمة، يحوطه حرّ أو قرّ، ويتهدّده الضياع والجوع والظمأ. فإذا كانت البهيمة تعرف طريقها، فانه لا ينتبه من نومه إلا وهو عند باب الدّار، ففرحته أكثر من فرحة أحد أندادك وقد أخذته الكونكورد، ونام فيها، ولم يصح الا وهي تلمس المطار في البلد المقصود.

وهناك الفِراش العادي الذي يتوفر ظاهره لكثير من الناس، ويختلفون فيه إختلاف الفصول داخل أبواب الكتاب. فهذا يفرش بساطا فوقه «طرّاحة» فوقها «شرشف». وآخر يضع «خصّافا» فوقه «طرّاحة» أو «مضرّب» «بتشديد الراء» أو قل «دوشق» أو سمّه «لحافا» إن شئت، وفوق ذلك «شرشف» أو بلهجة أخرى «ملاية»، والغطاء شرشف في الصيف، و«بّطانية» أو «لحاف»، في الشتاء، وقد يضاعف ذلك تبعاً للمناطق وبرودتها،

وكلما ذهبت شمالا زاد الأمر برودة، وزاد عدد «البّطانيات».

ويفرش الفراش في الليل، ويطوى ويخفى في النهّار، وقد يستفاد منه مسندا يستند إليه الجالسون في النّهار، وليس هناك غرفة في بعض الأحيان مخصّصة للنّوم، إلا في بيوت الذين حالهم تسمح بمثل هذا، سواء كانوا من متوسّطي الحال أم من الأغنياء. وتفرش الفرش في الشتاء في غرف أسفل المنازل طلبا للدفء، وتفرش في السطوح في الصيف طلبا للبرودة، و«تضفّ» وتطوى في الصباح، وتوضع في «المنفوح»، وهو سطح مسقّف، أو في «المبيت»، وهو اسم مرادف. والمبيت والمنفوح لهما دور مهم، ففيهما يحلو النّوم بين الوقتين، حينما تكون المنازل حارة، متجنبة، والسطوح باردة لا تحتمل. أو إذا خيف من مطر الصيف.

ولا تسل، يا بُني، أحيانا عن فرد الفُرش وطيّها،

فالأمر أحيانا يتطلب أن تحمل وتنزل ويصعد بها كل يوم، ويحرص من يفرشها أن يقوم بذلك عند غروب الشمس، حتى تكون باردة عند النّوم، وقد يلزم الأمر نصب «كِلّة» أو «ناموسية»، تنصب كأنها خيمة رقيقة، تسمح للهواء أن يدخل على الرّحب والسّعة، وتمنع البعوض «الناموس» من زيارته الثقيلة. ينام المرء داخلها، ويحرص، ما وسعه الحرص، عند دخوله فيها أن لا يدخل معه هذا الضّيف الثقيل، فان واحدة منه تكفي لاقلاق النائم، وإبعاد النوم عنه. و «الناموسة»، أو البعوضة أحياناً تنجح في التسلل لأنها تكون واقفة مختفية عند مدخله، فتسبقه بمجرد أن يرفع طرف الناموسية ليلج، وقد تختفي عن العيان في أول الأمر، فلا يكاد ينام حتى تنقضّ عليه إنقضاض الصاعقة. وهي تعرف أين موقع الوريد من العضو المكشوف يدا أو رجلا أو فخذا. ولعلها تشمّ رائحة الدم من مسافة بعيدة، فتقع على جسم الشّخص، ثم تبدأ تغرس زلومتها خلال الجلد لتصل إلى الدم.

ويبدو أنها تعاني من تجلّط الدّم، وهي تمصّ، لأن طبيعته هكذا، يتجمدّ بمجرد أن يخرج من العرق أو الـوريد، أو الشعيرة الدموية، فتفرز البعوضة مادة تسـاعـدها على جعله سائلا، ويبدو أن هذه المادة حارقة، لأنها هي التي تنبّه الملسوع بأن عملية المصّ قد تلت الإنقضاض. ثم تبدأ إذا اتيحت لها فرصة إطالة المكث والمصّ، تتخلّص من الخلف من بعض الماء المحتوي عليه الدّم، أو لعلّه ماء كان في جسمهـا، ليزنه، وتُحل محله دما، ينفعها لساعات وسـاعـات. وكـان الشّبـاب أمثـالك يابُني أحيانا يتسلّون بتركها تمتصّ، ويصبرون على الألم، حتى إذا ما شبعت وامتــلأ خزان جسمهـا الشّفـاف، ورجحت مؤخّرتها ضربوها ضربة تفجّر جسمها، واقتصّوا منها.

وأحيــانــا، يا بُني، لا يصـبرون عليهـا، بل يصعقونها بضربة بمجرد ما يحسّون أنها وقعت على أجسامهم، أو بدأت تمصّ فأيقظتهم. ، وأحيانا تمرّ من أمـامهم فيضربـونها في الهـواء بيـدين تطبقـان

عليها، فلا تنجو، خاصة إذا كانت قد طارت لتوّها من على جسم ضحيّة أخرى. ولا أشدّ يا بُني من أن يسمع المرء صوتها في الظلام، فيتّجه بكل إحساسه لمتابعتها، ومعرفة أين ستقع، ليهاجمها وهي في سكرتها من رائحة الدّم الذي جذبها. ووالدك، يا بُني، ضحيّة سهلة لها، لأنّ في دمه ما يجذبها، فإن كان في المكان عشرة أشخاص تركتهم وعاشت في دمه، وليته يعرف، يابُني، ما إذا كان الناموس يحبّ الدّم الحلو أو المرّ، إذن لعرف طعم دمه. والمرء لا يشبّه، يابُني، صوتها إلا بصوت الطائرة المقاتلة، التي ليس لها طيّار، وهي عبارة عن قنبلة طائرة، إستعملها الألمان ضدّ الانجليز في الحرب العالمية الثانية، فكانت القنبلة تقبل، ويسمع صوتها من بعيد، حتى إذا صارت فوق لندن وضع الانجليز أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وركضوا إلى المخابئ، وأشق ما يشق عليهم الأمر عندما تسكت، فيعرفون أن محركها وقف، وأنها بدأت تسقط. إن البعوضة مثلها، يا بُني، وأنا سقت لك

هذا المثل الحديث لعله يخفّف عنك طول سماعك للقديم، هذا إذا لم تكن الآن قد نمت. فاكتشف أنني كنت أخاطب نفسي. ولا أشد من أن يظنّ الإنسان أنه يخاطب أحدا، فيكتشف أنه يخاطب نفسه، إن هذا مثل الذي كان يسجل حديثا مهمّا، فيكتشف بعد الجهد أن الحديث لم يتسجّل. هل مرّ بك هذا الموقف؟ إنه مؤلم حقا.

لقد أسهبت، يا بُني، في الحديث عن البعوضة، وأطنبت في وصفها ووصف هجومها، وذلك لما خزنته عنها من مرارة، بُنيت على مدى سنوات. وما وصفت إلا القليل، وقد تركت مثلا كيف أنها أحيانا تنال من النائم رغم حرصه، ورغم تأكّده أنه لم يدخل معه الناموسية ولا واحدة منها، أو إن كانت دخلت فقد قتلها في الحال، إلا أنه لم يسلم منها وهي خارج الناموسية، لأنه إذا نام، وانقلب في نومه وجاءت يده على طرف الناموسية، فإن البعوضة تهاجمه، ويبدو أن زلومتها تقصر وتطول بدليل أنها تخترق جدار الناموسية، وتمتصّ الدم. وأحيانا يا

بُني، بمجـرد أن يتحرك تتركه ولا تبتعد، وتنتقل قليلا، وتقف. فيفرح لأن له طريقة في قتلها بضم جانبي الناموسية، والتضحية بنظافتها. لم أذكر هذا خوفا من أن يطول عليك الأمر.

ولكن ما سأذكره مؤذ محبوب، هناك حيوان غير البعوضة، يراك داخل الناموسية فيظن أنك وضعت من أجله، لعبة له، وتسلية يمضي معها اللّيل كله، لأنه نائم نهارا. يقف خلف الناموسية، فإذا اقتربت يدك، وأنت نائم، إنقض عليـك، وعضّك عضّا رفيقا، يوقظك ولا يؤلمك، ولكن أليس الأيقاظ من النـوم قبـل أن تشبـع منـه مؤلما؟! هذا يا بُني هو صديقك الصغير اللّعوب القطّ، نعم كان أبناء جيل أبيك يلاعبونه كما تلاعبه، هذا من الأمور التي لم تتغيّر، ولن تتغيّر، وهي هكذا في كل زمان ومكان، القطّ الصغير صديق الطفل الصّغير.

والبعـوضـة، يا بُني، على حقـارتها وصغرها، استأهلت من ابن شهيد في رسالة: التوابع والزوابع

أن يقـول فيهـا: (وهـو ماسـأختم به حديثي عن البعـوضة) «البعوضة مليكة، لا جيش لها سواها، تحقـرهـا عين من يراهـا، تمشى إلى الملك بندبها، وتضرب في بحبـوحة داره بطبلها. تؤذيه بإقبالها، وتعرّفه بإراقة دمه مالها، فتعجز كفه، وترغم أنفه، وتضرّج خدّه، وتفـرى لحمـه وجلده، زمجـرتهـا تسليمها، ورمحها خرطومها، تذلّل صعبك إن كنت ذاقـوّة وعزم، وتسفك دمك، وإن كنت ذا حلف وعسكـر ضخم. تنتقض العزائم وهي منقوضة، وتعجـز القـويّ وهي بعـوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته».

لقد صرفني البعوض والقطّ الصغير عن الفِراش وأنواعه، وكدت أنسى نوعا من الفراش، طوّر في زمنكم، وصار يستعمله الكشّافة والسائحون، وهو معروف من قديم الزمان في بعض مناطق المملكة. وهو الكيس الذي يدخل فيه النائم، فيقيه البرد في الشتـاء، ويحميـه من البعوض في الصيف، فترى النائم، في كيسه فلا تعرف، أرجل هو أم امرأة، إلا

إذا كان من الـذين لا ينامون ورؤوسهم مغطاة. والكيس اختراع عملي، فكرّ فيه عبقري، بدليل أن هذا النوع من الفِراش لم يمت بل تطوّر، وصار في أرقى البلدان، وأخذ عددا من الأشكال والألوان.

هذا، يا بُني، الفِراش الذي كان ينام عليه الجيل الـذي سبق جيلك، بأنـواعـه المختلفـة، وبتأثيره المتبـاين في الـراحـة والتعب، والملاءمة وعدمها. المتـواضـع منـه، والشامخ بأنفه. وكما رأيت كان الفِراش وسيلة لا يؤبه بها كثيرا إلا عند النوم عندما تأتي الحاجة إليه. ولعلك تقول لي إني لم أذكر نوعا من الفِـراش وهـو أكثـر من فِراش، وهذه مسألة تهمّـك لأن فيها قصّة، ولا بأس من ذكرها لمن لم تحكهـا له من «ربعــك». وهي فعــلا، يا بُني، طريفـه، وتعـطي مفردات متعددة لصور متتالية. تريك الناس على الطبيعة، وتكشف عن الجواهر التي كثيرا ما يغطيها التصنّع. وتريك فئة من الناس جدّهم فيـما يجب فيـه الجـد، أما اللّباس ومظهره ونوعه فلا يزيد الأمر معهم له عن أدائه المطلوب.

والقصة تجري حوادثها كالآتي: إستدعى إمام المسجد الجامع نفرا من أهل المدينة في شمال المملكة، وعاتبهم لما سمعه عنهم من أنهم لا يعطون الطريق حقّها، وأنهم أحيانا يتبعون المارّة بأعينهم، وأحيانا يلحقونهم بضحكة أو إماءة سخرية. ونصحهم باعطاء الطريق حقّها، كما أمر الشرع، أو عدم الجلوس في طريق المسلمين. فاعتذروا بأنهم ملتزمون حسب جهدهم بما يوجبه الشرع، وهم لا يخرجون عن حدود الأدب إلا إذا غلبهم الأمر. ولم يقبل منهم الإمام هذا القول، ولم يجد أن بإمكان الأمر أن يغلبهم. فطلبوا منه أن يجلس معهم، ويرى بنفسه، وكان الوقت صيفا، فجلسوا قبل أذان الظهر بقليل، ومعهم الإمام. ومرّ أناس عديدون لم يثيروا أي ملاحظة، حتى جاء رجل من الصحراء، وعليه فروة، رغم شدة الحرّ، فانفجر أحدهم أمام الإمام ضاحكا، وقال:

فروة في شدة الحر، فعذره الامام، لأنّ المنظر كان مضحكا حقاً، ولولا رزانة الإمام لسبقهم إلى الضحك.

والحقيقة يا بُني أن المنظر لم يكن مضحكا، فهذا الرجل الذي رأوه يمشي ومعه بيته، أو يمشي داخل بيته، ما رأوا هو كل ما يملك. وليس له في المدينة من يترك عنده فروته، وهي وإن كانت ثقيلة على أكتافه، وكاتمة لمسامّ جسمه، إلا أنه سيحتاجها في الليل ينام عليها فهي فراشة، بل غطاؤه، لأن آخر الليل في الشمال في الصحراء بارد، هذا إذا لم تكن أيضاً ساترة لخلل في ثوبه لو تبين للناس لأوجب ضحكا أكثر، وخاصة أن ذاك الزمن الذي حدثت فيه الحادثة كان زمن فقر وجوع، وذلّ وخوف.

وحيث إنك تعرف هذه القصة قبل اليوم ولن تجد مكسبا في قصّها عليك، وأن المكسب أخذه زملاؤك، فسأعوضك بأخرى فيها روح الفكاهة التي جاءت بها هذه.

هنـاك قاض، في أحد الأزمان السابقة، كان يسمي «القاضي النطّاح»، لما اشتهر به من نطح الناس برأسه عندما يثور بينهم اللّجج، ولا يسكتهم الكلام، أو يخرجون عن الطريق المعتادة في المحاكمات، فتحدّث معه الخليفة، وبيّن له ما يُلاحَظ عليه، وما يتناقله النّاس مما يحسن أن يبتعد عنه القاضي. فقال له القاضي: إني لا آتي بالنطح طائعا راضيا، ولكني أفعله مرغما بدون إرادة، لأن تصرّفات الناس تجبرني على هذا، وليتك تأتي، وتجلس خلف ستار في المحكمة، وتسمع وترى ما يزلزل الرزين. ويطير الصّواب، ويضلّ الرشيد، فاستجاب الخليفة، وجلس خلف الستار. وجاء متخاصمان، أحدهما من عليه القوم، والآخر من جملتهم، فأشير إليهما أن يجلسا معا متساويين أمام القاضي، فاعترض الذي من علية القوم، بأن مقامه أعلى من خصمه،

وأن مكانه بجانب القاضي. وبعد لأي أفهم أن مجلس القضاء يتساوى فيه الخصمان، وأنه هو الشاكي فإن لم يرض فليخرج مكرما من الباب. فرضخ على مضض. ثم لما اقتضى الأمر أن يأتي ببيّنة أَبَى وقال: «إنّه من عِلية القوم، وأن على القاضي أن يقبل قوله بدون بيّنة». ولما قيل له إن قضيّته سوف تطوى إن لم يذعن، أذعن مرغما، وهو يتأفف، ولمّا طلب من خصمه أن يحلف، قال الذي من علية القوم: «إن حلفه لا يعني صدقه، فأمثاله يحلفون كذبا».

هنا فقد الخليفة صبره، وهمس من وراء الستر إلى القاضي: «أتنطحه أم أخرج لأنطحه»؟ فضحك القاضي وردّ: «إنه لم يأت دور النطح بعد فنحن لا نزال في أول أدوار الاستفزاز، ولا يزال في الصدر صبر، وفي القوس منزع».

والآن يا بُني أخذتَ حقك من الترفيه، فاسمع ومن معك، عما تعرف جوانب منه مما يخصّ الفراش في زمنك. أصبح يا بُني للنوم غرفة مخصصة، لا يلجأ إليها إلا في الليل، وأوقات النّوم في النهار، ولها فرش خاص، إن كانت للنساء فهي غالبا ورديّه، وإن كانت للرجال فزرقاء أو خضراء فاتحة أو بنّية، أو بلون الزبدة الصافي، أو بيضاء، أو أيّ لون فاتح. وقد يغلب ذوق المرأة على ذوق الرجل فتكون ورديّة لها. «والديكور»، يا بُني، له أصوله، ويكفيك أن تعرف الخطّ العريض المهمّ فيه، وهو إمّا أن يكون موافقا أو مضادّا، بمعنى أن يكون لون ما في الغرفة من أثاث وفراش متماثلا، أو متضادّا تماما. هذه قاعدة من قواعدكم، يا أيها المتنفّذون في هذا الجيل. والقاعدة الثانية أنه إذا كانت الغرفة واسعة ضُيّقت باللون الغامق «الداكن»، وإذا كانت صغيرة وسّعت باللون الفاتح، وتسمى عندهم خداع نظر، وأهمس في أذنك حتى لا تنتصروا عليّ، إن هذا لصدق، وإن

جيلكم يستحق أن يكتسب منّا درجة على هذا. ويسعدنا هذا يابُني، لأن الأب لا يفرح بأن يغلبه أحد إلا إبنه، وأنت تعرف هذا فكم مرة انغلبت لك في اللعب معك، وآثرتك بالفرحة. وحاولت ألّا يبدو ذلك مفتعلا، لأنكم أيها الصغار أذكى مما نسمح لأنفسنا أن نقرّ به لكم. نحتقر عقولكم تكلّفا، ثم نبدأ نعتقد هذا، فإذا جاء منكم ما هو طبيعي في الذكاء إندهشنا. ولم يكن لهذه الدهشة داع لو أعطيناكم حقّكم في الاعتبار من أول الأمر. ولكن لا تعتب يا بُني، فنحن مررنا بمثل هذه التجربة مع آبائنا، وإذا كنا اليوم نستدرك بسرعة في هذا الأمر فالفضل لله ثم للعلم التربوي الذي عرفنا عن طريقه مثل هذا.

هذه هي الغرفة يا بُني ولونها، ويجب في عرف هذا الجيل أن يتلاءم فرش الأرض مع السجف على النوافذ. وإذا كان هناك طنافس فلابد أيضا أن تتلاءم مع ما ذكرنا لونا وطرازا، فهناك الطراز القديم، وهناك الطراز الحديث، وذاك قديم في

شكله، وفي تاريـخ إبداعه، أما هذا فجديد لأنه بتكـوينـه لم يعـرف من قبـل. وأصـول الـذوق الحديث، يا بُني، ألا يُخلط بينهما، هذا هو الاعتبار أو المعيار اليوم، ولكنّه قد يتغيّر، وقد يصبح غدا الأمر مقبولا أن تخلط بينهما، ألم يجعل جيلكم من المهندسين التضادّ في الألوان مقبولا مثل التواؤم. إذاً لا تعجب، يابُني، إذا وجـدت أن الأمـر تغـيّر، فجيلكم سريع التغيير، لا يكاد يهضم ما اخترع، ويهنأ به، حتى يغيّره، وهي صفة تفقد المرء كثيرا من لذّة الحياة. ولكن هذا زمنكم، وأنتم أعرف به.

ثم يأتي السرير، وما أدراك ما السرير، يابُني، أنواع وأشكال وقياسات، لا يحكمها عدد، وتَعدد أنـواعهـا وأشكـالها يزداد يوما بعد يوم. وإذا كان المجـزىء منـه أربـع قواعـد من الخشب، عليهـا «مـطرحـة» و «مخـدّة»، و «مِفـرش»، أو «ملاية» وبـطانيّـة، فإن هذا وصف عام، فأحيـانا خشب السرير يكون صافيا بلونه الطبيعي أو مدهونا، كما تعـرف، خاصـة تلك التي تستـورد من البلدان

المصدرة للخشب، لأنهم يفاخرون بطيب خشب بلادهم، ونظافة صناعة الخشب عندهم. ولكنّ بعضها يلبّس، وينجّد بأنواع من القماش، تضيف منظرا بديعا، وفائدة زائدة. وبعضها مفرد لا يتسع إلا لشخص واحد، وبعضها لشخصين، وبعضها لطفل رضيع وبعضها لشاب يافع، وارتفاعها عن الأرض مختلف، تبعد عن الأرض أحيانا، حتى لكأنها تجافيها، وأحيانا تقرب منها حتى لكأنها «ترومها» أو تغازلها. تصور يا بُني، بعضكم وقد شبّ عن الطوق، وابتُلي بسرير مرتفع، وهو كثير التقلب في نومه، تجده يسقط أحيانا، فتؤذيه السقطة أو ينجو من أذاها. وهذه تجعل للفراش الذي على الأرض، والذي استعمله جيل أبيك ميزة على سرركم، فلا خطر ولا خوفاً من أذى، إلا إذا كان أحدهم عنده خاصة التقلب المفرط الذي يوصله إلى حافة الدرج في نهاية الغرفة، أو قام أخوه، وفي الظلمة «داس في حوض بطنه».

وقد يكبر السرير حتى يصبح كأنه غرفة، هذا

إذا كُمّل بناموسية وستارة، وقد يلين حتى لا يكون صحيا أن يُنام عليه. وأغرب ما وصل إليه التفنن في السرر والرغبة في الاجتذاب إلى هذه البضاعة، هو ما توصل إليه بعض صانعي «مراتب» أو «طراريح» السرر، لقد صنعها وملأها بالماء، وأصبح النائم عليها ينام على ماء في «بالون»، يتحكم في لينه وقسوته حسب ما يريد، ان أراده صلبا زاد في ملئه، وان أراده لينا قلل بعض الشيء من مائه. الا أن هذا النوع لم ينتشر، ولعل الناس خافوا أن يغرقوا في نومهم!!

وهناك سرر تتحول إلى غير سرر، أو تَخفَى وتَظهر، وهذه في الغالب دعا إليها ضيق المكان، فهي سرر في الليل، كراسٍ بالنهار، وتختفي داخل جدار، أو وسط مائدة في النهار، وهي أحيانا في الشقق الضيقة، أو في البواخر الصغيرة، أو في الطائرات، أو في القطارات، أو في البيوت المتنقلة. وهي من ابتداعات العصر الحديث طبعا. وتحل إشكالا كبيرا لبعض الناس. وهناك، يابُني، سرر

المستشفيـات، وهي طبيّـة وصحيّـة، ومـركبٌ بها وعليها من الأجهزة، ما يلبي حاجة المريض، فهي ترفع بضغط زرّ كهربائي، أو يرفع جزء منها، وهي تسير بعجل، ولا يخطر على بالك شيء يريح المريض أو يساهم في علاجه الا وجدته فيها.

لقد كددت ذهني، يا بُني، أن آتي بقصّة تصلح مكمّلة للحديث عن الفِراش، فوجدت أني سبق أن حدّثتك عن الفراش الذي أرادت الحية أن تشارك فيه الرّجل، وانتهى الأمر بموتها، وهذه قصة يمكن أن تستعيـدهـا هنـا وتستعيرها من هناك. أو لعلي قصصتها ولم أدونها، ان لم تجدها استدركها لك في الجزء الثاني إن شاء الله.

أما القصة القديمة في زمنها، الحديثة في شكل سريرها لأن صاحبها فعلا استعمل سريرا في ذلك الزمن، فاليكها وهي، يابُني، طريفة.

افتقـر رجـل بعـد غِنىً، ومـدينتـه التي يسكنها صغيرة، فشعر بحرج أن يبقى فيها،

وأهلها يعرفونه، وتشاور مع زوجته، ووصل بهما الرأي إلى الهجرة إلى بلد لا يعرفان فيها. فسافرا إلى بلدة أخرى، وأخذا عندما وصلاها يتسكعان في المدينة، فوصلا إلى قصر، ملحق به ملعب، به أطفال يلعبون، فوقفا يتطلعان، ويتسلّيان بما يريان، وكان القصر لحاكم المدينة، وكان ابنه يلعب مع أقرانه، ولاحظا أنه سقطت من خاتمه درّة ثمينة، استعملت فصّاً لهذا الخاتم، فالتقطها ديك كان قريبا من اللاعبين، دون أن يشعر ابن الحاكم بما حدث.

وانتهى اللعب، وافتقد الشاب الدرّة، وجنّ جنونه، وبحثوا عنها في الملعب شبرا شبرا، وأعادوا البحث مرات عديدة إلى أن يئسوا، فأعلنوا عن جائزة لمن يجدها. فجاء الرجل، وقال إن بامكانه أن يعرف مكانها، ففرحوا ووعدوه خيرا. فقال لهم: إنها في

مكان رطب لينّ مظلم، كما يقول الحساب، وإن أقرب مكان لهذا الوصف حنجرة طائر، فما هي الطيور الداجنة عندكم. فأخبروه بالدّجاج وما معها من الديوك. فتظاهر بأنه يحسب، ثم أشار إلى الديك الذي رآه يلتقط الدرّة ويبتلعها، وقال: «إذبحوا هذا فهي في حوصلته». ففعلوا ووجدوها. فأكرمه الحاكم إكراما زائدا، يليق بما فعله، وبما يحمله من علم. وهو لا يعلم أنه لا علم عنده إلا أنه الحظ الذي خانه في تجارته الأولى أسعفه في تجارته الثانية.

أنزله الحاكم منزلا كريما هو وزوجته، وعاشا عيشة مرضية. ولكنّ الرجل وزوجته فكرا في الأمر، وتدارسا حالهما مع الحاكم، وأنه ربما طلب منهما كشف أمر لايقدران عليه. فوجدا أن من الأفضل لهما أن يهربا، واتفقا أن يقوما بذلك عندما تطلع «بنات نعش» في السماء، وقال لزوجته لننم

بالتناوب، حتى يطلعن فيوقظ من يراهن منا الآخر. وقبل الليل جاءهما مندوب من الحاكم يخبرهما بأن خزانة الحاكم قد سرقت وأن على الزوج الارشاد، عن طريق الحساب، عن السارقين، فأسقط في يده، وقال لها: الآن تعينّ علينا الهرب أكثر من ذي قبل، وحبل الكذب قصير.

نام الرجل ليأخذ قسطا من الراحة، استعدادا للسفر والهرب، وأخذت زوجته ترقب السماء، لتوقظه عندما تبدأ بنات نعش في الطلوع. أما اللصوص، فإنهم لما علموا أن الأمر أحيل إلى هذا الرجل العارف بالحساب، إتفقوا على أن يرسلوا أحدهم، ليحوم حول داره ويتحسس ويتجسس، لعله يأتيهم بما يدل على أنه سوف يعرفهم أم إنه لن يعرفهم. فذهب أحد اللصوص، وأطل وأنصت، فصادف في تلك اللحظة أنها تبينت إحدى بنات نعش، فلما رأت

زوجة الرجل هذا النجم، أيقظت زوجها، وقالت: «إستيقظ فلقد تبين أحدهم»، فظن اللص أنها تعنيه، فعاد مسرعا إلى عصابته، وأخبرهم بأن الرجل وزوجته يعرفانهم، وأنهما عرفاه بمجرد أن أطل عليهما. وقال: «إن الرأي أن نذهب ونسلمهما ما سرقناه، على شرط ألا يخبرا عنا»، فوافق رفيقاه، وذهبوا إلى الرجل وزوجته، وعرضوا عليهما ما اتفقوا عليه، فقبل الرجل، واستلم منهم المسروق من الخزنة.

وفي الصباح، بعد أن نام هو وزوجته نوما هنيئا، ذهب فرحا جذلا إلى قصر الحاكم، وسلّمه المسروقات. وقال له: إن اللصوص أحضروها، وتابوا عن السّرقة، وإني وعدتهم مقابل ذلك الا أكشف أسماءهم، وعندما أبدى الحاكم رغبته في معرفتهم، قال له الرجل: إن كشف أمرهم بعد إعطائهم وعدا بعدم الإخبار عنهم يبطل

مفعول الحساب. فاقتنع الحاكم بما قال، وأغدق عليه العطايا والهبات، وأسكنه معه في قصره، ظناً منه أن هذا يزيده سعادة. وتظاهر الرجل وزوجته بالفرح لهذا الشرف، وأبطن الهمّ والغمّ. لأن هذا يفسد عليه خِطّة الهرب التي كان قد قررها مع زوجته.

بدأ الامر يزداد صعوبة بوجوده في بيت الحاكم، وبعد البحث المضني قرر أن يتظاهر بالجنون، ورأى أن أنجح وسيلة يقنع فيها بجنونه، أن يتعرى من ملابسه، ويخلعها جميعا، ويذهب إلى الحاكم في غرفة نومه، إمعانا في التظاهر بالجنون، وضمانا للتصديق. وفعلا ذهب، مخترقا الممرّات، ومسببا دهشة لمن يمرّ بهم، حتى وصل إلى غرفة نوم الحاكم، ففتح الباب بعنف، ودخل، وكان لسرير الحاكم (وهنا بيت القصيد) سلسلة يجر بها السرير لفخامته، حتى يسهل جرّه، وتنظيف ما تحته، فاستيقظ الحاكم وزوجته عندما بدأ الرجل يجّر

السرير، ودهش الحاكم عندما رأى سريره يجرّ، وهو فيه، وأكثر دهشته أن يكون هذا الرجل هو الذي يجره، وهو عريان، وقبل أن يفكر فيما يقوله، كان الرجل قد أخرج السرير من الغرفة إلى الممرّ، وفجأة سقط سقف غرفة النوم، فانبلجت أسارير الحاكم، وزالت دهشته، لأنه تصوّر أن الرجل قد اهتدى بالحساب إلى أن سقف غرفته سوف يسقط، وضاق عليه الوقت أن يلبس ملابسه، فضحّى بأدبه، واللياقة، وجاء عاريا لينقذه وزوجته. فكافأة مكافأة عظمى. وجعله من جلسائه وصار يستشيره فيما دقّ وجلّ. ووجد الرجل أنه لا مناص له من البقاء، وليفعل الله سبحانه ما يشاء.

وهكذا، يا بُني، لعب السرير لعبة الحظ كما يقولون، وهي أمور رتبها الله سبحانه، ليقول الناس عنها إنها الحظ، وما هو إلا تدبير العزيز الحكيم.

والآن، يا بُني، لعلك تنام نوما عميقا بعد أن

سمعت كل هذا عن الفراش القديم وعن السرير الحـديث، فعـلى أي منهـما أنت الآن؟ وبأي منهما ستحلم؟ لعلك تنـام نومـا عميقا كما فعل الرجل الذي طلب من زوجته ان ترقب النّجوم، فنام نوما عميقا بعد أن ردّ اللصوص ما سرقوه.

أم العوف وبنت الجرسي

أي بُني !

الحليب اليوم تجده يباع في البقالات، له أشكال وأنواع، وأحجام. شيء منه من انتاج بلادك، وشيء منه مستورد. بعضه في زجاجات، وبعضه في علب مقفلة. بعضه قصير المدى في الحفظ، وبعضه طويله. بعضه مركّز، وبعضه ليس كذلك. بعضه فيه زبدته، وبعضه قد أزيحت منه. بعضه محلّى وبعضه على طبيعته. أما الأسماء والماركات فأنواع وأشكال. لا تملّ النظر إليها وما فيها من فن وتزويق. ولا تفتأ أن تجد المضحك أحيانا، خاصة في مشتقات الألبان من أجبان تنافس الحليب واللبن في تعدد أشكالها وأنواعها. كيف لا تضحك وأنت ترى اسم الجبنة: البقرة الضاحكة، ومعها رسم البقرة التي تضحك فعلا، فكيف تضحك البقرة وأنت لا تضحك!

وأنت لا تتعب، يا بُني، إذا كان عنــدك ثمن الحليب. تجده في كل «بقالة»، ومتاحا لكل مشترٍ، وبمشتقاته التي لا تحصى ولا تعد. تدخل البقالات فترى رفوف العرض مزدانة وملأى بأنواعه، تأخذ «صفحــة» كاملة من الــدكـان، لا ينـافسهـا إلا اللحوم، أو الخضروات أو الفواكه، وقد لا تنافسها أو تطمح في هذا.

تحضرها، يا بُني، إلى البيت، وتشرب ما تريد من الحليب، وتأكل ماتريد من الجبن، وتستفيد ما تستفيــد من اللبن واللبنـة، ثم تضـع البـاقي في الثّـلاجة. لتعود إليه متى شئت، دون أن يتسرب إليه العفن، أو تجد «البكتريا» إليه طريقا، مادمت لا تتعدى في خزنه التاريخ المحدد لعمره. فله عمر أيضـا للاستهلاك، كما لك عمر للدراسة، وعمر للسفر، تحدده اللوازم لذلك، فعمر الدراسة ينتهي بالعطلة الصيفية، وعمر السفر ببدء الدراسة، يا ترى أي الأعمار أحب إليك!

والنساء، يا بُني، في هذا الزمن قديرات في أمور الـطبـخ والأكـل، لأنهن بطبيعتهن مهيـآت. ثم تعـلمن، فصرن لا يكتفــين بما يقيت من هم في ذمتهن. ولكن يبحثن عن الطريف، ويَجُبن أرجاء الدنيا، عن طريق تتبعّ الطبخات، في أنحاء العالم، ويـأتين كل يوم بطريف، ومدهش. ولولا الخوف من الانـزلاق في مضـمار الـظلم، وتجنّب العدل، لقلت إنهن السبب في سمن الــرجــال وأمـراض السِمّن، لما يهيئنه من الطبخات اللذيذة، ويقدّمنَه من الأكـلات الشهية، ويُضِفنه للطبخ من روائح عبقة، وأبازير تفتح الشهية لأكل ما فوق الشهية. وإذا كانت الشجــاعــة، يا بُني، في زمن مضى، تقاس بما يأتي به المرء في ميدان القتال من شجاعة واستبسال، فانها اليوم فيما يستطيعه من مسك الأكل جماح نفسـه عن الاسـترسـال في الأكـل، ومجـانبة السمنة التي تقتضي أن يكون ثلث البطن للأكل، وثلثه الثاني للشراب، والثلث الثالث للنفس.

ثم كيف، يا بُني، يمسك عن الأكل، والطابخة

تنظر إليه، فان لم يأكل اتهمته بأنّ طبخها لم يعجبه، رغم أنها بذلت فيه جهدا، ورغم شهادة صديقاتها بأنها أبرعهن. ومهما قال عن الصحة ومستلزماتها، وعن السنّة وهديها في هذا المجال، فانها أصمّت أذنها، وقفلت عقلها، وغرست قدميها في مكان العناد لا تحيد عنه، ولا يوقف العاصفة إلا الأكل والأكل والأكل حتى يخرج من العينين والأذنين. وهذا أهون من غضب أم العيال، لأن البيت بأجمعه سوف يغضب، ولا تقل: «تشرب من البحر» أو «تطق براسها الجدار»، فان وراء غضبها أمر مخيف، ووراء الاكمة ما وراءها، وربما أتيتَ في اليوم التالي، ورأيت السفرة قاعا صفصفا، ورأيت الصحون في مراقدها. ولهذا تُقدم على أخف الضّررين، وتأكل ما يوضع أمامك، ومع كل لقمة مقالة من المدح، ولا بد أن تتفنّن في المدح، فلا تكثر من إعادة ما اعتدت أن تمدح به، وإلا تبين التصنّع، وعدم الاهتمام. ويحسن بك أن تقرأ عن أصول اللياقة وألفاظها، وإن وجدت لفظا بينها

يصفها بعبارات النفاق فلا تصدق أو لا تهتم، فالنفاق في هذه المواقف، وما يفيد البطن، مقبول. والناس إن رضوا سموها عبارات المجاملة واللياقة، وإن سخطوا سموها المداهنة والنفاق. وبعض العارفين يقولون إن بينهما فرقا، وأحيانا يدق حتى يكون في «دقّ» الشعرة.

لقد أبعدنا، يا بُني، عن موضوعنا، فلنعد إليه، وقد كنا نتحدث عن تفنن النساء في الاستفادة من مشتقات الحليب للطبخ، وإدخالها في أنواع الطعام ليؤثر تأثيرا حسنا فيه، خاصة في أنواع ما يسمى الحلو أو الحلويات، لأنه قلّ أن يُستغنى عن الحليب أو البيض فيهما.

أما عن مصدر الحليب، يا بُني، إن كان من الداخل مجلوبا، أو من الخارج مستوردا، فانه يأتي من أبقار، تعب أهلها على تربيتها، وتهجينها، وأحاطوها برعاية تامة في الغذاء، والتطعيم والمراقبة الصحية، بما يفوق الاعتناء في الانسان. لأن

مصلحة الانسان الغذائية والصحية تتوقف عليها، إلى حد كبير. خاصة الأطفال الذين لا يتحملون أقل مرض يصيب البقر ويظهر أثره في حليبها، والتهجين يأتي لعدة أسباب أحدها يرمي فيه إلى زيادة الحليب، والآخر يؤدي إلى قوة البنية، وثالث لحسن الانتاج من العجول.

وفي الخارج، يا بُني، تَلحظ العناية الفائقة، وتراها تبلغ ذروتها في بعض البلدان التي تعتمد في صادراتها على الحليب ومنتجاته، فترى تشجيع الفلاح، برفع الضرائب عنه في هذا المجال، وإعطائه الاعانات، وإجراء مسابقات تُعطَى فيها المكافآت المادية والمعنوية، وسبحان الخالق الذي يوصل في خلقه هذه الحيوانات إلى هذا الكمال في الجسم والمنظر والانتاج، حقا، يا بُني، إن جهودهم تأتي بفائدة.

وتعرف، يا بُني، أن بلادك بذلت الغالي والرخيص، وذهبت إلى أقصى قدرتها، لتؤمن

الغذاء بوفرة في بلادنا، حتى صارت مضرب المثل، والحمد لله في الرخاء، فلا تسأل عن سلعة إلا وتجدها في كل مكان بأنواع وكميات تزيد عن الحاجة، وتجدها في المدينة الكبرى والصغرى، وفي القرية وفي الهجرة، وفي محطات البنزين في الطرق. لا يحتاج المسافر كما سبق أن أخبرتك، أو ما سوف أخبرك به، لأن يحمل معه زاده إذا وجد أن حمله يضيق عليه في سيارته. لهذا فبلادك لم تتأخر في أن تضع الخطط المتقنة، لتجعل الحليب متوافرا، وبطرق حديثة، لتضمن احتواءه على أحدث الطرق في وسائل السلامة. وعنايتها جاءت من أنه غذاء رئيسي للأطفال ثم الكبار، وكان للتنبيه لأهمية توفيره في وقت مبكر أثر في أنه جاء في وقت تواكب فيه مع وعي الناس لأهميته وتطلعهم إلى الاستفادة منه.

وهذه الالتفاتة من الدولة جاءت بصور مختلفة منها تشجيعها لجلب الأبقار، ودفع مبالغ طائلة مساعدة لجالبها إعانة له وتشجيعا. وتسهيل أمر

مجيء الفنيين من أطباء ومن مزارعين ومن «موالين». ومنها المساهمة، في إعطاء قروض وإعانات لانشاء المزارع التي تغل أعلافا لهذه الابقار، ومنها المساهمة في إعطاء قروض وإعانات لإنشاء الحظائر، ومعدات التعقيم والتعليب. وأنشئت شركات لتستفيد من الإقبال على الحليب الوطني واللبن، يشجعها ما تقوم به الدولة من مساعدات وقروض ليس لها مثيل. فازدهرت هذه الشركات، وتعدّدت وتوسّعت. وأصبح «لأم العوف» البقرة قيمة أكبر من قيمتها في الزمن الماضي، ونالت من الرعاية مالم تنله جدّتها، ولكنها يا بُني تغيّرت صورتها كلية.

ولكن لا تزال البادية، يا بُني، تقدر مع بعض الحاضرة حليب «الخلفات»، ولها بعض الاعتماد على حليب الضأن والماعز، خاصة أولئك الذين في البادية، أو على حواشي المدن، وفي بعض المزارع، والقرى.

هذه، يا بُني، لمحة سريعة عن الحليب، ومكانه

في مجتمع اليوم، ولعلك لاحظت أني هذه المرة بدأت بالحاضر، وهو شيء تعرفه، وسوف أتسلق أنا وأنت السلّم إلى الماضي، ونطل من أعلاه إلى باحة فيه، فنرى ما فيها، ندقق في الأركان وفي الزوايا، وفي المنحنيات وفي المنعرجات. (وهذا الترادف في الألفاظ له هدف، وهو أن تزيد حصيلتك من الألفاظ). لنرى كيف كان الأمر في زمن مضى.

في الماضي، يا بُني، كان الطفل يعتمد على حليب أمه، وإذا لم يكن فيها شيئ، أو كان ما فيها لا يكفيه، تلمّس أهله له مرضعة، فتصبح له أُمّا من الرضاع، وكم أفاد هذا عندما يكبر الطفل، وكم أحدث من إرباك ومشاكل، خاصة إذا كانت المرضعة قد أرضعت عدة أشخاص، وتبدأ المشكلة عندما يخطب شخص امرأة فيتبين بعد ذلك أنها اخته من الرضاع، وتبلغ المشكلة قمتها إذا لم يتبين هذا إلا بعد أن يتم الزواج، ويولد الأولاد. وليس الأمر دائما بالوضوح فقد يكون هناك شك، وأن دعوى الارضاع كيدية، فيصعب البتّ فيها على

هذه الصفة، ويصعب رفضها، وقد يأخذ الزوجان بالحيطة، فيفترقان. وقد حُلّ في زمننا هذا الأمر بالحليب الصناعي، الذي أُعدّت له العدة، وصنع له الثدي الصناعي، ووضعت الإرشادات الواقية للتطهير والتعقيم. ولم يعد للمشكلة ذكر إلا نادرا، في بعض أطراف المملكة. وأصبحت الأبقار هنّ المرضعات، ورضاعتهن لا تأتي بأخ ولا أخت.

أما الكبار فكان لا يشرب الحليب تقريبا في بعض أنحاء المملكة إلا الموسرون، فإذا كان الحليب حليب أبقار، فامتلاك بقرة أمر مكلف، ثمنها ليس في متناول كلّ النّاس، وعلفها لا يستطيع جلبه إلا من عنده من الرزق ما يساعده على ذلك. والبادية لا تمتلك عادة أبقارا، واعتمادها على الله ثم على الإبل والضأن، فمنها حليبها، ومن حليبها الأقط والزبد. وفي بعض المدن يعتمد متوسطو الحال على حليب الماعز، وإعاشتها تأتي عن أحد طريقين: إما أن تترك تجوب الشوارع، وتأكل مما تجده من بقايا الاطعمة في البيوت، أو يأتي من

يجمعهـا من البيـوت بأجـر ويـأخـذها إلى خارج المدينة، حيث العشب والبراري، ويعيدها في نهاية النّهـار إذا كانت حلوبا، أو يبقيها إن كان الوقت مناسبا معه في البرّ حتى تلد، وأهل المدن القادرون يعلفونها الذّرة والشعير عندما تعود من دورانها في الأسواق.

وليس هنـاك عناية صحية بهذه الحيوانات التي يستفاد من لبنها، وقد يكون في البقرة أو في الماعز أو في الضأن سلّ، فلا يعلم عنه أهل الدّار إلا بعد أن يفتـك الـداء بضحـايـاه. وقليـل من الناس يغلي الحليب ليتعقم، وإذا غُلي فليس لذلك، ولكنه فُعل به هذا لأنّ مقتضى اللّذة في شربـه تطلّب ذلك. ويشرب الـرجـال أحيـانـا ولا يشرب النسـاء ولا الاطفال إلاّ إذا كان الحليب كافيا، وأحيانا يُزاد ماءً ليكفي الجميع.

وقد يعمل من الحليب لبن، «يُخض» في السقاء، الـذي ينصب له «قِنّارة» ثلاث أرجل منتصبات، فيخض ويمخض جيئة وذهابا، وهذا المخض هو

لإخــراج الـزبـدة منـه، «وفـرزهـا» عن الحليب الرائب. ويتمثل الجهل بمستلزمات الصحة هنا في أبرز صورة، إذ إن المرأة تملأ «الصّميل» السّقاء، إلى منتصفه تقريبا، وتنفخ فيه حتى ينتفخ، حتى يمكن للبن أن يتحرك داخل هذا الفضاء المنفوخ، ونَسَمها ونَفَسها يمـلأ السّقـاء، ويختلط باللّبن، وبكل ذرّة فيه، وقد تكون المرأة مصابة بداء السل، أو بمرض الاسنان، أو بالتهاب اللوز أو الحلق، أو مرض اللّثـة، فتنتشر هذه الأدواء بين أفراد العائلة بالتسـاوي، لا يفلت منها إلا من وهبه الله المناعة والقوة للمقاومة.

أرأيت، يا بُني، هذه الصورة، هذه تجعلني أعيد عليك طلب حمد الله على ما أنت فيه من نعمة، هذه صورة لم ترها، رآها أبوك، وجيل أبيك، وحصدت من حصدت ممن دنت منيّته، وقرب أجله، دون أن يعلم من حوله أنها السبب، وقد يسقونه الحليب، ليصحّ ويقوى وما يدرون انهم يداوونه بالتي كانت هي الداء.

أين هذه الصورة، يا بُني، من صورة الجيوش المؤلفة من المطهرين والمعقمين، والمشرفين والمراقبين في العصر الحديث. أين هذه من الأطباء الذين يشرفون على تغذية الحيوان وصحّته، وعلى الحليب وجودته، ونظافة أدواته وأوعيته. أين هؤلاء من أجهزة أشعة الليزر، ومعدات الالكترون التي وضعت في خدمة قطرة الحليب التي تشربها، ولا تفكر فيما مرت به من أدوات، وجهود، وما صرف عليها من مبالغ منذ أن نشأت في أول الطريق حتى تشرفت بملامسة شفتيك، وانحدرت إلى معدتك.

في مرحلة من المراحل بدأ في المملكة في بعض المدن، المتقدمة نوعا ما، بيع الحليب، يقوم به أناس جمعوا لهم خمس بقرات أو عشراً، يجلبون حليبها في الأسواق لؤلئك الذين لا يستطيعون توفير مكان للبقرة، أو لا تسمح لهم البلدية، ولا يوافقهم الجيران، على وضع بقرة بجوار بيوتهم. ففي وجودها أذىً في الرائحة، وفي الأصوات، خاصة إذا طلبت الثور. ولا يمكنك الاعتماد على هذا

الحليب حتى لو كان خاليــا من الأمــراض، لأن الغذاء فيه ضئيل، ولا يتناسب مع ما دفعت له من ثمن، لأنه ماء فيه حليب، وليس حليبا فيه ماء، ولو وزن الماء فيه والحليب، لغلب الماء لأن الأغلبية معه.

كرِّر، يا بُني، شكر الله على أن أوجدك في هذا الـزمن الذي توفر فيه كل شيء، بأحسن صورة، وأكمل مثال. إحِمد الله أنك تسمع عن هذه الصور المرعبة ولا تراها، إن جيلنا يقوم فزعا عند ذكرها، أو إذا رآها في الحلم، وخاصة، يا بُني، أن البقرة طالما نطحتنا لكثرة أذيتنا لها. كان الشباب، يا بُني، في تلك الأيام يفرحون أن يذهبوا ليستقبلوا البقرة، بعد أن عادت من «السرّح». والبقرة عادة يأخذها الراعي في الصباح من البيت، ويعيدها إلى البيت في المساء، بعد أن تكون قد رعت طوال النهار في البر، وهذا لا يعني أنها لا تتطلع إلى عشاء فاخر عندما تعود إلى بيت أهلها، بل إنها تتطلع إلى البرسيم أو «الدقسيّة» أو «الصّبط» أو «النّصي». أتدري لماذا

يفـرح الأطفال باستقبالها؟ لأن فيها يقومون به من استقبال، بعض الأذى، والأذى يا بُني عند أمثالهم مصدر لذّة لا تعدلها إلا لذّة مؤذي القطّة بالضّغط بالظفر على ذيلها، لتعضّ من أمامها. يُهيىء أحدهم عصا «يحَذرب» طرفها حتى يشبه المسمار، «ينحَز» البقرة ليحثها على الركض، وقد يغافل الناس، إذا مر بسوق ليس فيه أحد، فيركبها، ويريدها أن تطير به كالحصـان، وهو يلهب جلدها بهذا «المنحاز». وقـد يعـاقبـه الله سريعـا بالـوقوع منها على بعض أعضائه فيرضّه رضا يستحقه.

واليوم عندما يتذكر أحدهم، وقد غسل الشيب لحيتـه، ما كان يجري منـه على هذه المسكينة التي عندما تصل إلى البيت، لا تستطيع أن تبين لوالديه ولا تشكو، ولو نظروا في عينيها لوجدوا أن الدموع تكاد تطفر منها. ولو استمعوا جيدا لسمعوا فحيح صدرها من الركض، والعرق الذي يكاد يصب من جلدها صبّا. عندما يذكر ذلك يؤنبه ضميره ويدعو الله أن يغفر له، ويقول مع إبراهيم بن نفطويه:

أستغفر الله مما يعلم الله
ان الشقي لمن لم يرحم الله
هبه تجاوز لي عن كل مظلمة
واسوأتا من حياتي يوم ألقاه[1]

يبدو يا بُني أنه ليس لدي حكاية تسليك في أمر الحليب، واكتفي بالبيتين، ليتك تحفظهما. كأني أسمعك تقول: إنه لا شيء يغنيك عن القصة وأنك تريد أن تُحمض بها بعد أن حلّيت، وتحتج عليّ بما سبق أن أخبرتك به مرويا عن الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو قوله: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرف الحكمة»، فأرد عليك بأن تلك القلوب لا تشبه قلبك. ولكن ما بالك لم تردفه بقول عبدالله بن عباس وذلك عندما يكثر عليه في مسائل القرآن والحديث يقول: «إحمضوا»، يعني خذوا بالشعر وأخبار العرب.

(١) نزهة الألباء ١٩٦ .

وهذا الباب عن الحليب، والحليب من البقر، ولا بأس أن أقص عليك قصة عن البقر. كان هناك اثنان من جيل والدك يدرسان في القاهرة في الجامعة، وفي يوم من الأيام كانا واقفين على محطة «التراموي» في شارع الروضة بالقاهرة. والمحطة عادة بعيدة عن الرصيف قليلا، وقبل منتصف الطريق، ومعْتليه قليلا عن الأرض، وفي نهايتها عمود للنور، الذي يسرج بالغاز، وكانا يتجاذبان الحديث، عندما أقبل قطيع من الأبقار يقرب من الثلاثين بقرة أو يزيد، قد قرنت جميعها بحبل واحد. ومعها صبيّ يسومها سوء العذاب بالعصا. وظن الواقفان أنها سوف تمرّ متوسطة الطريق، إلا أنها جعلت المحطة في منتصفها، فأدركا أنهما سوف يكونان في وسطها، ثم تحت أقدامها، لأن عمود النّور الذي يقفان بجانبه سوف يَنصفها، فاضطرا أن يتسلقا كأنهما قردان إلى أعلى عمود النّور، وكان منظرا مزريا أن يفعلا ذلك بأناقتهما ومظهرهما المحترم، إلا أن الحياة حلوة كما يقولون، يا بُني، ولو

كان بدون أرجل البقر ماتا لهان الأمر، ولكنهما تصورا الخبر عندما يصل إلى أهليهما. والتفت أحدهما إلى الآخر ذاهلا، وقال: أليس الخبر بأننا متنا تحت عجلات رولز رويس أحسن وقعا على أهالينا، من أن نكون متنا تحت أظلاف البقر، وقال الآخر: إن خبر الموت سوف يُنسي أهلنا وسيلة الموت. وأصبحت لهما هذه، يا بُني، ذكرى، وما أحلى الذكرى عن شيء مرّ.

المر والحلتيت والبندول

أي بُني !

أيهما تريدني أن أبدأ به اليوم بـ: القديم أم الجديد؟ لأن في ذهني أن أتحدث معك عما ترفل به من نعمة أنت وجيلك، عندما تحتاجون إلى علاج. وما دام الأمر عندك سواسية، أبدأت بالقديم أم بالحديث، فسأختار أنا. والحمد لله أنه خيار سهل، لأن بعض الخيارات صعبة حتى ولو كانت متعدّدة، ومن هذا جاءت جملة: «ليس فيهما حظّ لمختار»، عندما يكون هناك خياران صعبان، أو ليس في أحدهما للمختار فائدة. وهناك جملة أخرى تقال باللغة العامية تعبيرا عن الحيرة في الاختيار، وهي: «إذا أردت أن تحّيره فخيره».

سوف أفترض أنك تفضّل أن أبدأ الحديث عن القديم لأنك لا تعرفه، ولأنك تحبّ ما هو من طبيعة هذا الحديث من القصص القديمة، خاصة تلك

التي تشبه «الكرتون» في هذه الأيام. وعندما يكون الموضوع واسعا ومتشعبا يحتار المرء كيف يبدأ، ولكنه يبدأ على أي حال، ثم يبدأ الأمر، يا بُني، يتناقص بعدد ما يُنهي من هذه الشعب. وقد ذكرت لك هذا لأنه سيمر عليك في يوم من الأيام، فتعرف أن الأمر طبيعي، ويمرّ بذهن الانسان، ولا بد أنه مرّ على آلاف ممن حاولوا ان يكتبوا عن أمر واسع ومتشعب. والآن إلى الموضوع، ويكفي محاولة التأجيل التي مرّت.

الناس في الماضي، يا بُني، لا يعرفون من الأدوية إلا عددا محدوداً منها، وغالبا ما تستعمل في كثير من الأدواء، فمثلا: «الصبر» و «المرّ»، و «الحلتيت» توصف لكثير مما يشكو منه الناس، وترى أنها توصف لأمراض متضادة، والثلاثة يا بُني، كريهة الرائحة، مُرّة الطعم، بشعة المنظر، ولابد أن كثيرين فقدوا حياتهم بسببها، أو زادت أمراضهم بسبب تعاطيها. والقليل من الناس استفادوا منها لأنها وافقت الداء الذي تنفع في معالجته. و

«الشبّ» و «وسخ الحديد» و «الصت» أشياء ترد من بين ما يوصف و «الحبة السوداء» أو الخضيرا أو السميرا، و «الحلبة» و «الثوم» و«الثلبة» (بذر الكتان) لا يستغنى عنها أحد في تلك الأيام. وهناك أسماء لأدوية كثيرة لا أريد أن أسردها لك يُلجأ إليها في العلاج.

وقد تكون هذه، يا بُني، عرفها الناس نتيجة التجربة ممن يعرف بالاستقصاء فوائدها، والمقادير اللازمة منها، إلا أن الناس مع الزمن صاروا يصفونها ويستعملونها بدون تلك الدقّة التي بدأت بها، ولو رأيت المساحيق التي تعالج بها العيون عندما تمرض، لأدركت مدى الخطورة التي يُعرّض لها الناس، خاصة الاطفال، فهي أبعد من أن تكون صحيّة، لا في تركيبها، ولا في حفظها، ولا في طريقة اعطائها. وهي حارّة يصرخ الطفل بأقصى جهده عندما يعطاها، ولا يتقبلّها بل يرغم عليها، وقد يتعاون عليه اثنان، أحدهما يمسك بيديه والآخر يضع الدواء في العين، ثم يترك يبكي

حتى تنفطر رئته! وقد راح ضحيّة هذا، أو عدم المبادرة، أعين أناس كثيرين، سواء بفقدها أو ضعفها، أو تشويهها.

والجدري والحصباء من الأدواء التي تحصد الناس حصدا، وقد يدخل أحدهما البيت فيخرج من فيه إلى المقابر، خاصة الاطفال والشبان الذين لم يتعرضوا لهما من قبل، لأن الشفاء منهما يعطي المناعة، والجدري قلّ أن يسلم منه أحد، فان لم يمت الشخص، فانه يترك ندوبا أبشعها تلك التي تشوّه الوجه، أو تفقد البصر، أو تعشيه. أما الحصباء فأخطر ما فيها أنها مميتة، أما إذا سلم منها المرء فانها لا تترك أثرا. ومن حسن الحظ أنها مثل الجدري لا تأتي للمرء إلا مرّة واحدة، وهذه المرّة تُعطي مناعة كاملة. إلا أن الجدري ارتفع من الكرة الأرضية وهي «أي الحصباء» لا تزال تزور.

ومن الأدواء التي كانت تلعب بالناس الإسهال، فكم حصد من الأطفال، خاصة الرضّع، وقلّ أن تجد بيتا لم يمت من أطفاله أحد بهذا الداء، بل إن

بعض البيوت لم يعش لهم أحد بسببه. ووالدك يعرف رجلا وزوجته لم يبق لهما من الأطفال إلا ولد وبنت، رغم أنهما رزقا بخمسة عشر طفلا، وكانوا يموتون في شهورهم الأولى. ولا غرابة، يا بُني، في هذا عندما ترى حياة الناس وبُعدها عن أصول الصحة والنظافة، ولم يكن يقاوم الموت إلا أولئك الذين أعطاهم الله مناعة فائقة، كسبوها من وراثة أو من مرض «مكروبه» كان منهكا فكانت إصابتهم به أقرب إلى التطعيم.

والكيّ، يا بُني، مما شقي به إبن الأمس، لكثرة ما يستعمل، وغالبا فيما لا يفيد فيه. والسبب ان كثيرا من الذين لا يعرفون يداوون الناس اقتداء بمن يعرفون، فتكون النتائج مؤلمة، خاصة إذا كان الكي في بعض الأماكن الحساسة، كتلك التي في عروق توصل إلى العين، فإذا كويت ذهبت بالعين بدلا من أن تداويها أو تلك التي في مجامع أعصاب، أو ملتقى مفاصل وأعصاب. وقليل من هؤلاء المعالجين يقف عندما يعرف ولا يتعداه إلى ما

لا يعـرف. وأحيـانـا يكسب المـداوي خبرته على حساب من يداويهم، بعد أن يعيث في أجسادهم تشويها، وتحطيما. ومع هذا فقد تجد بينهم من اشتهر في تجبير الكسور لتمكنه من هذا الفن بعد التجارب التي مرت به. ومثل تجبير الكسور داء ذات الجنب التي يبدو أن أعراضها عندهم واضحة. وعلاجها متفق عليه، وهو الكيّ في مواقع قرب الرئة، لأنها عبـارة عن التصـاق في الرئة، قد يكون في شهقة المـداوَى عنـدمـا يلامسه المكوى ما يبعد الجزأين المتلاصقين. وثالث الأدواء التي كان الناس يعانون منها هو عرق النسَّا، وهذا مؤلم، يُقضّ مضجع من يصاب به، وفي كيّ البصير للمريض به ما يريحه.

أما الحمّيات فيكاد يكون لا دواء عندهـم لها، فهي تنتشر نتيجة وجود البيئة الخصبة، وأبرز هذه الحميـات المتـوطنـة حينئـذ البلهـارسيا والملاريا، وكلتاهما متوطنتان بسبب المياه الراكدة، والمخاضات الملّوثة، والبعوض في الملاريا من وسائل انتشارها وأذاها.

وكانت تأتي أمراض واردة تنتشر بسرعة وتقضي على كثير من النّاس، وأحيانا تسمى السنين بها، فسنة «الصخنة» أو «الرحمة»، وسنة «الشوطة» وما إلى ذلك. وأمثال هذه تكون بصورة وباء، ولا يبقي ولا يذر، الا من كتب الله له البقاء. ومن رحمة الله أن ميكروب هذه الأمراض الوافدة لا يفتأ أن يضعف، فيرفع الله البلاء عن النّاس.

وكان من الخرافات السائدة ما كان يعتقد أنه يمنع الأذى عن الطفل، مثل العين والحسد، فيوضع بين عيني الطفل نقطة كحل سوداء مثلا. وكان في بعض الأحيان، خاصة عندما (يطهّر) الاطفال ويختنوا، يشمم الطفل عددا من أنواع العطور، باعتقاد أنه إذا لم يُشمَّم هذا ودخل عليه من قد تعطّر، فإنه «يستشم» أي ينتكس جرحه بسبب ما شمّ. وأحيانا يوضع هذا في ثيابه ليتأكد من «تَبلُّغه» به. ويستفاد أحيانا من المرّ والحلتيت للحماية من «الاستشمام» فتوضع منه كِسَر صغيرة توضع في صرّة يتشممها المريض بين آن وآخر.

ومنظر الرجل المريض في عينه، وقد صرّ ذلك في طرف «غترته»، ليكون قريبا لشمّه، أمر مألوف.

أمور مثل هذه، يا بُني، لو رآها بنو جيلك لوجدوا فيها مجالا للسخرية، إذا ما قورنت بما تعرفونه في زمانكم هذا. ولكنهم معذورون يا بُني إذا ما وقعوا ضحيّة لمثل هذه الأمور، أولا لأنهم لا يعرفون غيرها، والمريض يتعلق مثل الغريق بأقرب شيء واهٍ يكون في متناول يده، حتى لو لم يكن فيه إنقاذ له. ألم تر بعض أصحاب الأمراض المستعصية في زماننا هذا بعد أن يعجز عن ابرائهم الطبّ الحديث يلجؤون إلى بعض الدجّالين. إن الأمل، يابُني، بعيد الأغوار، واسع الآفاق.

وثانيا، يا بُني، المحيط حولهم يقنعهم بفائدتها، والقصص التي تتداول، وتَحكي حال من تداووا بها وبرئوا كفيلة بأن تقنع أي أنسان مريض. وتعرف يا بُني كيف تبنى القصص في مثل هذه المجتمعات التي نصيبها من العلم

محدود، يُزاد في القصة، وهي تَدرج من شخص إلى شخص، ومِن تَجمّع إلى تجمع، حتى لا يكاد يميزّها، بعد فترة، منَ بدأها، ويبنى على «الحبّة» منها «قبّة»، ويركز فيها على جوانب الاقناع، وتلبس ببعض الأفراد حتى لو لم يسبق أن لبسوها. ولعل أحد المروّجين لها هو المداوي الذي يخترع القصة ليقنع من يتردد في قبولها، لأنها أبعد ما تكون عن العقل. ولا يعدم المداوي، إذا لم ينجح الدواء، أن يجد الحجة في تبرئة طبّه من الاخفاق، والصاق السبب بغيره. فالجرح الذي تعفن، رغم الدواء، ناتج عن أن الشخص «مستشم». أي شمّ عطرا لم يتقّه بشمّه عندما انجرح. أو لعل شخصا عليه جنابه زاره، أو امرأة حائضا مرت به. وهكذا يلعب الخيال مع ذرّة من العاطفة وذرّة من العادات والتقاليد، فتخرج المُداوي من اللوم.

أما كيف يتعلم الطبيب المعالج، فهو

يأخـذهـا من غيره، خاصة إذا كان والده قد مارس هذه المهنـة، وساعده فيها ابنه. ولعله يسليك أن تسمع هذه القصة:

مرض طبيب بلدة صغيرة مرض الموت، وعنـده ابن ينقصه الذكاء، فلم يبد اهتماما بمهنـة أبيـه، واستخسر الـوالد ان تذهب الصنعة من عائلته. فنادى ابنه، وقال له: يا بُني إنك لم تُلق بالا لعمل والدك، ولم يبق من الوقت متسع لتعليمك الطب. ولكن هناك أسـاس إذا التفت إليـه جيدا، وتفحّصته، وركّـزت عليـه، ربما أفادك. عندما تدخل على المريض، انظر إليه، فان رأيت به كسرا أو جرجـاً، فالأمـر واضـح، وإن لم يكن مكسوراً أو مجروحا، فانظر حولك، فان ما حولك لابد أن يوحي لك بسبب الداء.

ووعـد الابن البـار أبـاه بأن يكون عند حسن ظنـه، وأنه سوف ينفّذ وصيّته. فلما

مات الأب، فكّر الناس في أن ابنه لابد أن يكـون مثله. وأول من احتاجه رجل فلاح فقير، مرض أحد أفراد عائلته، فأحضر ابن الطبيب هذا. ولم يكن بيت الفلاح يزيد عن غرفة واحدة، يأكل فيها، وينام، ويجلس، ويضع فيها مستلزماته، ومستلزمات دوابه. فلما دخل ابن الطبيب تمسك بوصّية والده، ونـــظر إلى المـريض، فلم يجد به كسرا ولا جرحـا، فانتقـل إلى الخـطوة الثـانيـة ونظر حوله، ولم ير إلا بردعة حمار، وقد قذف بها في ركن المكان، فبرقت أساريره، وظن أنه وجد السبب، فقال لا عجب أن يصاب هذا المـريض بهذا الـداء لأنـه أكـل لحم حمار، فالتفت الفــلاحــون، ونـظر بعضهم إلى بعض، وظنوا أنهم لم يفهموا، فاستفهموا، فلما تأكدوا، رأوا أن صفعه خير ما يفعلون، فصفعوه وأخرجوه مطرودا. وكانت هذه هي أنسب أجرة يمكن أن تعطى لأمثاله.

أيْ بُنيّ

العقل يهبه الله لمن يشاء، يا بُني، ويحرم منه من يشاء. ولا يفيد التعليم إذا لم يوافق استعدادا عند المـرء، فالأرض غير الخصبـة لا تنبت الـزرع. والقصة التالية سوف تفسّر لك ما أقوله هنا، وهي ليست بعيدة عن السابقة.

يئس رجل من تعليم ابنه، فكلما أدخله في كتّـاب من الكتـاتيب مرّت السنـة ولم يستفد. فذُكر للأب شخص قيل إنه خير من يدخل العلم إلى الرؤوس الفارغة. فقصده ومعـه ابنـه، وأخـبره خبره. فقال له المعلم النحرير: «اترك ابنك عندي سنة وسأحاول أن أفيده». وبعد سنة عاد الوالد يسأل المعلم عن ابنه. فقال له المعلم: «إن ابنك يخزن المعلومـات، ولكنـه لا يفهمها. إنه يعرف ولكنـه لا يدرك». فلم يفهم الأب، وكأن المعلم كان يقـول لغـزا، فقـال له المعلم: «سـوف أريـك فعـلا ما رويته لك قولا». فالتفت المعلم ووجـد خنفسـاء عنـد طرف

الحائط، فأخذها وأطبق عليها يده، ثم أرسل من يستدعي التلميذ من بين أقرانه الدارسين. فلما جاء، قاله له: «يا بُني، إن في يدي حيوانا له أربع أرجل، وله قرنان، فما هو؟ فقال التلميذ: «إنها بقرة». فالتفت المدرّس إلى الوالد، وقال: «هل فهمت قصدي؟ إني علمت ابنك أن البقرة حيوان له أربع أرجل وقرنان، ولكني لم أقل له إنك لا تستطيع أن تقفل عليها يدك».

والمستوى الصحي، يا بُني، يحتاج منى إلى كلمتين تفيدانك في تصور هذا المستوى الذي كانت عليه الأمراض في الماضي. لأن بعض مظاهره كانت وراء تفشي الأمراض، باذن الله. وكما كان مستوى العلاج متدنّيا كان مستوى النظرة إلى ما يجب ان يراعى أو لا يراعى في أمر الصحة العامة. فالذباب كما تعرف عدو للانسان لدود، وتتضح عداوته وأذاه عندما يكون المحيط قذرا. ومع أنه كان مكروها في الماضي، كما هو في الحاضر، إلا أن مكافحته لم تكن

قائمة على أساس سليم، وليس هناك خطة متقنة، لا على المستوى الشخصي، ولا على المستوى الجماعي. ولو افترض أن جاء شخص واع، وأراد ان يحاربه في محيطه فإن جيرانه بإهمالهم وجهلهم يبطلون عليه جهده ويضيعون تعبه، وما قد يخسره من مال يذهب هباء، فبيت جيرانه قد يكون مصدر توليد، يفوق ما يقوم به من مكافحة وحرص. والسبب أن الأفق في الوعي الصحي محدود، حتى لتجد من ينتقد الحكمة التي تقول لا تشرب من إناء شرب منه غيرك، ويقول متعجبا: «حتى إذا كان والده أو والدته !؟».

والسؤال التعجبي في محله عندهم لأن احترام الوالدين عند المتسائل يرجح على احتمال العدوى، ولم يخطر بباله أنه إذا أراد الله للعدوى أن تنتقل فإن أذى المرض له سوف يزعج والديه أكثر.

وهذا باب، يا بُني، واسع، ولا أريد أن يأخذ صفحات أود أن أملأها بما يجذبك للقراءة

والاستماع، ولكني سوف أكتفي برسم صورة لعلها تعطيك الكثير عن الجهل بوسائل الصحة، مما يؤدّي إلى كوارث عائلية، دون أن يعلم المنكوبون أن سبب مصيبتهم هي محبتهم وعطفهم على أولادهم. ربما أنك تذكر كلمة «اليبيْس» وهو تمرة السكرية اليابسة. قبل أن تنبت أَسنان الطفل، ورغبة من والدته في إطعامه هذا الغذاء الجيّد، فانها تلوكه بين أسنانها، حتى يصبح مثل الماء، ثم تطعمه إياه. ولا تحتاج إلى أن تتصور سهولة انتقال المكروبات إلى هذا الطفل الذي لم تكتمل مناعته. وقد يكون في هذا «الزّق» العصفوري منيّته. وقد لا يسلم لهذه السيدة طفل واحد إذا كانت مصابة بداء الصدر، فهي تطعم ابنها الموت وهي لا تدري، وإذا كتب الله له النجاة، فقد يبقى طوال عمره يعاني من علة في صدره.

هذه، يا بُني، الأمور التي ذكرتها لك، ومررت بها مرّا سريعا، ضعها في كفّة ميزان الصحة والادوية، ودعنا الآن ننتقل إلى الكفّة الثانية

لنملأها بما تعرف اليوم عن الصحة التي تتمتع بوسائلها أنت وجيلك. وسوف نأخذ من الكفة الأولى بعض الأمور القديمة لنقارن بينها وبين الجديد، واعتبرها «رجاحة» لاحدى الكفّتين وليست خلطا بينهما، كما قد يتبادر إلى ذهنك، لأنك سريع الالتماس للأمور التي تظن أني أخطأت فيها، وخرجت عن الخط الذي رسمناه للسير في هذه الأحاديث. وفي أكثر من مرة اكتشفت خطأك بعد أن بينت لك ما سبّبته لك عجلتك، ولا غضاضة في ذلك، يابُني، لأن سنّك تقودك إلى هذا، ولكنّ النّضج التدريجي سوف يجعلك تتغلّب على تسرّع الصغير ولا تندهش إذا كان الدرس أحيانا قاسيا، فالدرس الذي تؤخذ منه الحكمة قد يكون قاسيا، وكلّما كان قاسيا انغرس في الذهن فلا ينسى، والله سبحانه لا يجمع على المرء عسرين.

أيهما تود أن نبدأ به، هل تحب أن نبدأ بالدائرة الواسعة، وندخل منها إلى الدائرة الأضيق، أو العكس، الأمر يشبه يا بُني ما سبق أن قام من جدل

أمامك حول أيهما أكثر فائدة للطالب أن يبدأ بمعرفة تاريخ العصر الجاهلي نزولا إلى عصرنا الحاضر، أو يبدأ بالعصر الحاضر صعودا إلى العصر الجاهلي. ولكن، يا بُني، بما أن الدائرة الأضيق، هي البيت، والبيوت تختلف، فسوف نؤجّل الحديث عنها، ونبدأ من خارج البيت، وقد نبدأ من خارج المدينة، لأن أثر ذلك على البلاد واحد.

نبدأ بالاحتياطات الصحية التي تتخذها الدولة، حسب ما تتبعه الأمم المتمدنة. فهي تطلب من الشخص الذي يأتي من بلد فيه وباء، أو أمراض متوطّنة، شهادة صحيّة تثبت خلوه من الأمراض. وقد تصرّ على فحصه بعد دخوله البلاد، وتُعطي هذا الجانب أهمية فتُسهّل امر فحصه في المرافق الصحيّة فيما لو لوحظ بوادر مرض لم تظهر عوارضه من قبل. أو أفلت من الفحص الأوّلي. وفي فترة كثرة القادمين للعمل اصدرت الدولة بعض التنظيمات التي تكفل إتقان عمل هذا الجانب، فرتبت على من زاد عدد عمّاله عن حدود معيّنة أن

يكـون لهم عناية صحيّة منتظمة في مرافق صحية خاصة. وساعدت، لأجل هذا، المرافق الصحية التي يجد أصحابها في نفسهم القدرة على الخدمة في هذا الجانب.

لقــد لاحــظت يا بُني بأني حمت أولا حول السفــارات والقنصليـات في الخــارج فيـما قلتـه، ومررت ماسحا بجناحي حدود المملكة، ومداخل القـادمـين سيّـاحـا، وحجـاجا ومتاجرين، وأهل أعمال. وبدون علمي وجدتني مثل الاشعاع أخذت طريقــا رفيعــا ولمست المستــوصفـات الخـاصـة والمستشفيـات الأهليـة. وهـذا يعني، يا بُني، أننّا دخلنـا المدن ولم نعد على الحدود، أو في الحدود. وأعانك الله، يا بُني، على تناوب حروف الجر عندما تدرسهـا في النّحو، وترى الجدل حولها، ويصبح رأسـك بين المتجـادلـين ككرة بأيدي لاعبين (لقد فتحت اذنيك جيدا عندما سمعت كلمة كرة، وأكاد أجزم بأنّي رأيت أذنيك تتحركان!) وستسمع كلاما كثـيرا في هذا المجـال، مجال الاختـلاف في اللغة

والنحـو والصرف، وأعطيك مثلا، ستسمع اثنين متحمسين أحدهما يقول: الصحيح أن تقول: «في ضوء كذا حصل كذا»، والآخر يقول: «الصحيح أن تقـول: «على ضوء كذا حصل كذا». فيحتج الأول بأن المـرء لا يرى على الضـوء وإنـما تحت الضوء، ولكن الناس خلطوا بين «على هدي كذا» و «في ضوء كذا»، فقالوا: «على ضوء كذا». ويلجأ الثاني إلى الحجة في تناوب حروف الجرّ، فيقول: «إنها تتناوب»، وأنت «مشدوه» بينهما، تصغي لهذا وتقـول: «الحقّ معـه»، وتسمـع بعـده الآخـر، فتقول: «أتبع كلامه فهو صحيح ومنطقي». ثم في النّهاية تسأل من تسأل فيهزّ كتفيه، ويقول: «إِتبع سليقتك»، ثم يفتح لك باب مشكلة جديدة، فما هي سليقتك؟. ثم تحصره في ركن، وتقول: هل أتبـع الخـطأ الشائع أو الصحيح المهجور؟ فيقول لك: «إن كنت شجاعا فاتبع الثاني، ولكن لا تفعلْ إذا كان مبهـمـا إلى الحـد الـذي لا يجعـل أحـدا يفهمك». (تذكّر هنا، يا بُني، البيتين عن نفطوية).

ستقول لي، يا بُني، إني استطردت كثيرا. وقد كان ذلك، ولعل الله سبحانه أراد أن يخفف عنك بهذا الاستطراد جفاف الحديث عن الصحة وأمورها، وإمعانا في هذا الاستطراد الذي قد لا يكون ساءك، وإن كنت لاحظته، أكمل ما خطر بذهني وأنا أحدثك عن الحروف، ولكنّي لم أرد أن أقطع الحديث عنها، وتركتها حتى الآن. ما خطر في ذهني يا بُني أن أحد أقاربك، عندما انتهى في زمن مضى، من الصف الثالث التحضيري، وهو ما يعادل، اليوم الثالث الابتدائي، حرن وأبى أن يستمرّ في دراسته، لأنه فهم أنه في السنة الأولى الابتدائي، وهي ما يعادل الرابعة الابتدائية اليوم، نحواً أو قواعد، وهو حتى الآن لا يعرف إلا القرآن والتجويد والفقه والتوحيد والحساب والمطالعة. وكان «هائبا» القواعد، لأنها مبهمة والمبهم مخيف. أرأيت، يا بُني، لو

أنك سمعت حركة في الظلام أول ما يتبادر إلى ذهنك أسوأ التفسيرات. ولعلك سمعت بالـذي سمع في «صفّة» المقبرة، وهي أكثر الأمكنـة، وحشـة، لظلامهـا، ولالتصاقها بالموتى، سمع حركة ارتاب منها، وتخيل أنّ فيها ذئبا، وجلس له الرجال ببنادقهم حتى الصباح، فتبين أنه جرو كلب تائه، أو لعل أحـد عفـاريت الاطفال قد خبأه هناك عن أهله. وقد كان هذا حديث أهل القرية مدة طويلة، وتسليـة لهم، ومـا أقـل ما كان يسليهم، في كدّهم وكدحهم حينئذ.

نعـود إلى قريبـك الـذي عاند وأبى أن يستمر في دراسته بسبب النحو فأقنعه أخوه بأن الأمر سهل، وليس كما تصور، وأنه مثل بعض الـدروس الـتى عرفهـا وأسهـل. ولنفـرض أن قريبـك هذا اسمه علي، وله زميل اسمه أحمد، فقال له المقنع: سأشرح لك النحـو لترى سهـولتـه: «عليٌّ ضرب

أحمـــد»، وقـــد، راق لعـلـيّ أن يكـون هو الضارب، فأصغى، وانتفخت أوداجه، لأن أحمد هو الذي يعتدي عليه عادة لأنه أكبر منه قليـلا، فسأله المقنع: «من هو الضارب»؟ قال: «أنا» قال: «من هو المضروب»؟ قال: «أحمـد»، فعـل الله به وصنع. قال المُقنع: «مــاذا عمــلت به حتــى بكــى»؟ قال: «دشـــدشتــه». قال المقنـع له: «هـذا هو النّحـو». قال عليّ: «مـادام الأمـر كذلـك فالـلهـم اسرع بيــوم الــسبت حتى أذهب للمدرسة»، ولعل في ذهنه ضرب أحمد وليس درس القواعد.

أظنـــك اكتفيت بهذا الاستـــطراد، وإن كنتَ تتحـرق أن تعـرف هذا «القـريب» حتى تضحك منه، وإن كان في سن أبيك. ولكنّ هذا ما سوف لا تعرفه، وفي الحدس والتخمين من اللذّة ما ليس في الكشف والبيان أحيانا.

والصّحّة العامّة في بلادك اليوم، لا تقل عن أي

بلد متحضر، ووراء ذلك جهود، لعلك تعرف بعضها، لأنك سمعت عن الأقسام التي في وزارة الصّحة والتي في شؤون البلديات، هذه تهتم بالتطعيم والتلقيح، والارشاد والتوعية، وتنبيه الناس إلى ما ينفعهم وتحذرهم مما يضرهم، شارحة ومعيدة الشرح، معطية تفصيلات للأسباب ببرامج ونشرات. وتلك تساندها في القضاء على المياه الراكدة، ورش المبيدات، وتساند الجهات المسؤولة عن مياه الشرب والصرف في التعقيم، والتطهير، فلا يصل إليك الماء للشرب إلا بعد أن يكون مرّ بمراحل من العناية، والاشراف الدقيق. وصرف المجاري في حدود برامجها الموضوعة، يعالج فيه الماء المستعمل، ليستفاد منه مرة أخرى لأغراض تحتاجه. وتساهم في ردم المستنقعات ومحاربة القواقع الضّارّة في المياه الراكدة. وتحارب البعوض والذباب، وتصرف المبالغ الطائلة، لتجعلك سعيدا في حياتك لتمتّعك بالصحة التي توفرت لك من جراء محاربة أعداء الصحة.

واختلفت اليوم الصورة عن ذي قبل، فأنت حين تمرض يزورك طبيب مؤهل، أو تزوره، طبيب تعلّم في أرقى المعاهد الطبيّة داخلية أو خارجية. طبيب يداوي على بصيرة، تعلّم كيف يكشف الداء، لأنه قد فهم أعراضه، وكيف يصف الدواء لأنه درس أصول الأدوية، وتناسبها مع الأدواء. ومعه من المعدات والأجهزة ما يساعده على ما قد يغمض عليه أو يبهم. وهذه المعدات والأجهزة هي من آخر ما وصل إليه الفكر الانساني في هذا المجال.

وقد يحتاج أحد أبناء جيلك إلى كشف صحّيّ مركب، يقتضي بقاءه في مكان صحّي، فيجد المستشفيات المعدة بمبانيها الحديثة، وأجهزتها البشرية، والآلية، كلها في خدمته. وكل شيء يجري في بؤر نور من المعرفة، وليس هناك تخمين كما كان في الماضي، وقد تقدّم الطبّ، يا بُني، فأصبحت أعضاء كاملة من أهم ما في جسم الإنسان تنقل، وتزرع كما تزرع نبتة أخذت من حقل إلى حقل.

وانفتحت في الطب أبواب، يا بُني، لم يكن يظن أنها تفتح، ولو قيلت في الماضي لاعتبرت من الخرافات المستهجنة. فتحليل الدم يكشف عددا لا يحصى من الأدواء، والاشعة تخترق الجسم فتسبر غوره دون أن يحس بها أو يدري عنها، وتتخلل الأجهزة رأس الانسان دون أن تدخله. ترسل اشعاعات لا ترى. تجوب الرأس طولا وعرضا، مثل ما تدور أنت أدوار طبقات مبنى، تبحث عن شقّة صديق، أو غرفة قريب. وأمامك جهاز يريك ما يراه الطبيب، ترى هذا المتسلّل إلى ثنايا المخّ، يبحث عن متسلل آخر، أزعج صاحب المخّ، وقد يجده وهماً لا غير. فيطمئنه الطبيب، ويخرج وهو سعيد بما عرف.

وقد تكلمت معك عن الكسور وتجبيرها، والطريقة التي كانت مستعملة من قبل. والناس في ذلك الزمن ليس عندهم إلا جبس يخلطونه بمحّ البيض ليقوى. أما اليوم فالأمر مختلف، هناك حدائد يشد بها العظم، وجبس صيغ بطريقة

طبيعة، جاهز للاستعمال، وأشعة تريك إذا كان الطبيب أجاد تركيب المكسر على المكسر أم لم يفعل. وكل شيء بمقدار ووقت. ولطف الله بعباده جعل هذا الفن يتقدم، لأن الحضارة يا بُني التي سهلت اقتناء السيارات أكثرت من ضحاياها، وكثير منهم يابُنيّ، من الشباب، لأن الشاب لم ينضج بعد، فالسرعة تغريه، ولا يتنبه للأخطار إلا بعد أن يقع المحذور. والرجل الناضج المجرب يحتاط، ويراعي حق الطريق، وإذا أخطأ عليه آخر يغض النظر، فلا يجاريه، أما الشاب فتأخذه العزّة بالإثم، ويرد له الصّاع صاعين، وقد تكون النتيجة أن الاثنين ينتهيان في المستشفى في سريرين متجاورين. وكان بالامكان تفادي ذلك لو أن المخطأ عليه ترك المخطىء ليؤدّبه غيره ممن يملك هذا الأدب.

والشباب، يا بُني، تعميهم كما يقولون «فورة الشباب» فلا يحسبون للعواقب حسابا. وينظرون إلى الأمور من زاوية واحدة، وغالبا ما تكون الكبرياء الوهمية: «كيف يسبقني هذا»؟ «كيف

يضيّق عليّ»؟، كيف «يكسر عليّ»؟، «لن أتركه»، «أنا لست أضعف منه»، «سأريه»، «سوف أؤدبه». وينسى قائل هذه العبارات أن الشرارة مع الشرارة تكوّن نارا، وأن العنف يجلب العنف، ويصبح الأمر سباقا إلى الشّر، ولا يمكن أن يُتنبأ بالمنتصر، لأن الكفّتين قد لا تكونان متكافئتين. والنجاح والاخفاق، يا بُني، وسائلهما في العراك خفية، ومفاجئة، وتأتي بها الصدف أحيانا. يقول أحد القواد الفطاحل: «لم أدخل معركة وأنا ضامن النّصر، حتى لو كان جندي هم الأكثر، ومعدّاتي هي الأفضل، ومكاني من الموقعة مختارا، وعدوّي قليل العدد، ومعداته ضعيفة، ومكانه سيئا. لأنه لا يعرف متى يدخل ظرف مفاجئ، فيغير سير المعركة. قد يتوهم جانب من جيشي هزيمة، فتسري الإشاعة، فيختل التوازن. لهذا تجدني أبقى طوال المعركة قلقا، أتوقع الهزيمة، لا أدري متى تأتيني». أتدري يا بُني، أن هذا سر نجاح هذا القائد في معاركه، لأن الاطمئنان، والاعتماد على

العـدد والعدة، والتهاون في أمر العدو، جزء من الغـرور، والغـرور هدّام. وفي هذه الحالة يشعر القـائد باطمئنان إلى ما عليه جيشه، إذا ما قورن بجيش العدو، فإذا حدث خلل يكون عنه غافلا، وإذا تنبه يكون الأمر قد استفحل، وتداركه يحتاج إلى جهد مضاعف، أو يكون الأوان قد فات.

والسيـارة، يا بُني، وسيلة للانتقال. وسيارات السباق صنعت للسباق، وللسباق مضماره ووقته، أمـا أن تستعمل للركوب العادي والتباهي، فهذا يخل بالأوزان الصحيحـة. فإذا رأيت شابا يركب سيـارة من سيـارات السبـاق يتبادر إلى ذهنك أنه سوف يقع في عواقب السرعة الوخيمة، وتتألم له، وأنت لا تعرفه. والأمم، يا بُني، مقياس احترامها ما تتصف به من عقل، والعقل هو ألا تعمل إلا ما ينفعك، ويسد حاجتك، ويقضي غرضك، ويدفع عنـك الأذى، ويجلب لك الخـير، أما ان تمشي في طريق الخـطأ طائعا مختارا، فهذا يتنافى مع قوانين العقل وقواعده، وهذا يدل على الغائها، والتماس

الأسـوأ بدلا من الأحســن، والأردأ بدلا من الأفضـل، والأقبـح بدلا من الأجمـل. والشبـاب زينة، والعقل زينة، فإذا ما اجتمعا في إنسان فان هذا أقرب إلى المحمدة والكمال.

ومظهرٌ حديث، يا بُني، يتعلق بالصحة، وهو الاسعـاف، وفيـه باذن الله إنقـاذ لحياة الكثيرين، يتداركهم الله بلطفه بسببه، وفيه مختصون يسهرون الليل، توقعا للحوادث التي تطرأ في أوقات سكون النــاس، من حادث سير، أو تسمم، أو ارتفـاع حرارة، أو ازديـاد سكَّـر، أو ارتفـاع ضغط، أو التهـاب زائـدة، أو بدء نزيف. والأدواء المفاجئة كثـيرة. والنـاس أشـد ما يحتـاجون إلى الرحمة في مداهمات الأمراض في الليل، حيث المساعد قليل، والاختيـار في المستشفيـات محدود، والاطبـاء مثل غيرهم قد اتخذوا الليل لباسا. وأخلدوا إلى الراحة، استعــدادا ليــوم حافــل بالعــلاج والعمليــات والتحاليل، وزيادة المرضى، والتوليد، وما إلى ذلك من أمـور تعـج بها المستشفيـات في النّهار، فترى

العنابر ملأى بالنائمين في أسرّتهم، والاطبّاء والممرضين بثيابهم البيضاء، وقد ترى الزائرين في بعض الأوقات. وهناك ما يسمى بالعيادات الخارجية وهي في الغالب الباب الخارجي للمريض لدخول المستشفى إن كان في حاجة، أو المنطلق إلى بيته إن لم يكن كذلك، ومعه من الأدوية ما يخفف عنه آلامه. ترى الصغير والكبير، ترى المرأة والرجل، ترى الحامل والوالد وهكذا . .

وانتشرت الرعاية الصحية، يا بُني، في أرجاء المملكة، بعد أن تسهلت الطرق، ووصلت إلى أقصى البلاد. وأصبح في هذه المدينة أو تلك مستشفى أو أكثر، وفيها عدد من المستوصفات، تتلقى الناس، تمهيدا لإحالتهم للمستشفيات بعد تشخيص أوّلي، يخفف عن المستشفيات. وجاءت الخطوة المدهشة، يابُني، في السنوات الأخيرة، بعد أن وُجد سجل صحي لكل فرد في كل حيّ، وهي خطوة سوف يظهر أثرها مع الوقت. وهي في صالح الناس، وفي سبيل رفع مستوى صحتهم، لأنها

تنظّم هذا الأمر، وتسهّل لهم طرق المراجعة، وتتيح للاطباء متابعتهم.

أمر تعرفه أيضاً، يا بُني، وهو الرعاية الصحيّة في المدارس التي كانت لا تعرف ذلك في الأزمان القديمة، هناك كشف عام على الطلاب في كل عام. وهناك التطعيمات المنتظمة، والتطعيمات الطارئة. وهناك المراجعات اليومية لمن احتاج من الاساتذة أو الطلاب. والعناية بالطلاب تأتي في المقام الأول، لأنهم أداة المستقبل وعدّته. وأرجو الّا يزعجك أنت وزملاؤك عندما يريد بعضكم التخلّص من درس أن يذهب إلى الوحدة الصحيّة، فيدّعي الاصابة ببعض الامراض، فلا يجد الطبيب أعراضه، فينصح الطالب بالعودة إلى فصله، فيمدّ «بوزه» شبرا حنقا، لأن لعبته اكتشفت. ولا تظن، يا بُني، أنكم الوحيدون في هذا، الجيل الماضي له حِيَل مثل هذه، وأقرب مثل إلى ذهني، أحد اقربائك أيضاً عندما تراهن مع رفاقه بعد مغرب أحد الأيام، وقد بيّت في ذهنه، أمرا، في أنه

سيحصل من والده على «ريال فرنسا»، وقد رأيت بعينك هذا الريال الذي ينسب إلى فرنسا وهو في الحقيقة «ريال ماري تريزا» في النّمسا. وأن يحصل صغير مثله على ريال فرنسا في تلك الأيام أمر يخرج عن التصور، وحدود المعقول. راهنه زملاؤه، لأن الأمر كان مغريا، فلما عاد والده من صلاة العشاء، انفجر باكيا صارخا، فسأله والده عما جرى له، وكان مادّا رجله يشكو من ألم لدغة عقرب ادعى أنها لدغته، وكانت الرجل الممدودة اليمنى، وعادة الناس في تلك الأيام أن يضعوا خرزة تسمى خرزة العقرب عليها، وبالتحديد على موقع اللدغة. والخرزة حجر كريم، جميل المنظر، وغالبا لا يتشابه حجران إذا وجدا. ولأنه ليس لدى هذه العائلة «خرزة عقرب»، استعاضوا، كما هي العادة، بريال فضّة، ولأن الريال الفرنسا كان هو السائد حينئذ، فقد سارع والد الملدوغ إلى إحضار ريال. ومع الفرحة بنجاح الحيلة نسي الملدوغ فمدّ رجله اليسرى، فتنبّه والده لهذا التغيير فارتبك الابن،

وضحـك الأولاد البـاقون، فكان نصيب المحتال صفعة أو صفعتين، قفز على أثرهما هاربا. ولكن من حسن حظكم أن الطبيب لا يصفع.

مرض العيون الذي كان عدوا لدودا للمجتمع في المـاضي، أصبـح متقـدمـا في التشخيص. وفي الدواء، وفي العمليات التي تُجرى، ومن بينها إزالة الميـاه، وزرع القـرنية، وغير ذلك من العمليات الـدقيقـة. والمحافظة على صحة العين، وقاية من المـرض، أصبحت شغـل الهيئـات الصحيـة، فالقـطرات المختلفـة، والمـراهم المتعـددة، تملأ الصيـدليـات، وتـوصف عند أول بادرة، أو أذى يصيب العـين من غبـار أو لمسـة يد، أو مظهـر حسـاسيـة، والنـظّارات تقـدّم صنعهـا، وأصبـح التنـافس في شكلها ومادتها، فهذه مدورة تتناسب مع بعض الوجوه، وهذه مستطيلة، وهذه أقرب إلى أن تكـون مربّعـة، وتلك «شنـبرهـا» أو بروازها رقـيـق، أبـيض أو أحمـر، وتلك بروازهـا قوي وسميك، وهذه من لدائن، وهذه من معدن، وهذه

زجاجها من الزجاج المعتاد، وهذه لتكون خفيفة على الأنف، من زجاج صناعي، وتلك للقريب، وثالثة تجمع بين القريب والبعيد، وترى ذلك عند النظر إليها، وأخرى فيها هذه الميزة ولكنك لا تراها إلا إذا قيل لك هذا. وهناك ما تجمع البعيد والقريب وما بينهما. وهذا كله من أجل المحافظة على النظر عند أول بادرة لقصر النظر أو طوله. ولا تنس أن بعضها أبيض وأخريات ملونة باللون الذي يعجب اللابس، وفي هذه حماية من الشمس. وهناك المتلونة كالحرباء، إن قابلت نورا أظلمت، وان لم تقابله أسفرت. وكل ما تطلبه الصّحة والذوق في هذا المجال متوفر.

والأسنان توفرت لها العيادات المختلفة، التي تحافظ على صحتها بمداومة رعايتها، وسنّ سنة مراجعة الطبيب كل ستة أشهر، لازالة الكلس الذي إذا تجمع أضر بها. وخلع الأسنان الذي كان في يوم من الأيام همّه مثل هم الولادة أصبح مع المخدّر، والأداة الخاصة، بدلا من الكلبتين في

الماضي أو الحبل في الباب، مريحا، لا يشعر المرء به. وتركيب الاسنان أصبح من أدق الفنون، وتخصصه محدوداً، بل إن جراحة الفم أصبح التخصص فيها متعددا. وقد اخترعت الجسور لتثبيت الاسنان والأضراس بطرق علمية ومريحة وجميلة، وتبارى الأطباء، كأنهم مهندسون، في إتقانها حتى لا يشعر المركب له إلا أنها طبيعية. حتى لونها ومادتها دفع بها إلى الامام، فالضرس المركب يوزن لونه مع مكانه وجاره من الاسنان، ولو قيل لك أيهما الدخيل لما عرفت. وقد بدئ بزراعة الأسنان، وهي خطوة تدل على إدراك تام بهذا الفن، وأطقم الاسنان للكبار أو المرضى، الذين سقطت أسنانهم مع الكبر أو خلعت لمرض، جاءت رحمة من الله لهم.

أما القلب، يا بُني، وقد مررنا به مرّاً سريعا، فأمره عجب. إذا قيل ان هذا القرن هو قرن الكهرباء. ثم نسخ هذا وقيل إنه قرن الالكترون، لظهوره فيه، ثم قيل إنه قرن «الكمبيوتر» الحاسب الآلي، ثم قيل إنه نقل القلب، فلا تعجب، ثم لا

تحتر في أيهــما ترجــح ، فكلهـا في سبـاق لتحتـل الصــدارة، ولكنهـا يا بُني كلهـا مشـتركـة في نقل القلب، ولهذا، ولأن القلب من أهم الأعضاء في الانســان يميل الانسان إلى أن يرجح أهمية عضو فيه، عن جمادات مساعدة.

ولعلك عاصرت تطور نقـل القلب، والإشادة التي واكبت بدأه، ثم تطور الأمر إلى ما قد يكون نقل «المعلوق» بكامله، القلب والرئتين والكبد وما بينهــما. وقيــل إن هذا قد يكـون أسهـل، لقلة التـوصيلات وملاءمة حجم الوصلات فيها. وقد سبق يا بُني، نقـل القلب أو لعله واكبه، تسليك الشرايين، وتغييرها وترقيعها ثم نفخها، ثم وهذا أحدث ما سمع، تسليكها بالليزر، لأن النفخ وهو من أحدث الخطوات له محاذيره.

ولن أذكــر لك، بعــد الحـديث عن القلب، عمليـات الـزائـدة الدودية، ولا نقل الكلى، على أهميتــه، ولا تفتيت الحجـارة بدون عمليـة، ولا

عمليات استئصال اللوز، ولا ما يجري لفقرات الظهر والرقبة من حكّ، أو تبديل، ولا ما يؤديه العلاج الطبيعي من خدمات للمرضى، ولن أتحدث عن العلاج النفسي وما قطعه من شوط، ولا عن التخدير، ولا نقل الدّم، ولا قياسات النبض، وتحليل الدّم وغيره، ولا عن مكافحة الضغط، وتنظيم السّكر، ولا عن البحوث لمكافحة السّرطان وأمثاله، من الأدواء المستعصية، فهذه الأمور الشرح فيها يطول، وما قد أقوله اليوم لا تمرّ السّنة إلا ويصبح قديما، لسرعة الابتكارات والاكتشافات في هذه المجالات، مما يدل على تركيز في العناية بالصحة عالميا، واتفاق القادرين على ذلك بالإجماع. ولا يتأخر عن المساهمة والركض خلف الأمثل والجديد إلا العاجز.

وأنا أذكر لك التخدير تذكرت أني ذهبت مع صديق إلى طبيب ليخلع له ضرسه. فأعطاه البنج اللاّزم، وخدّره، وعندما عدنا أشعل سيجارة، وهو أجارك الله ممن

يدخنون، ووضعها بين شفتيه، في الجانب المخدّر، وكان مفعول المخدّر لايزال قائما.
ثم نسي وأشعل أخرى، وأراد ان يضعها بين شفتيه، «فلسعته» الأولى، وأحرقت يده، وانتصرتُ أنا عليه، لأني كنت حذّرته من التدخين، ولم يقلع إلا مؤخّرا، بعد أن مات اثنان من زملائنا بأسباب التدخين، والثالث كاد أن يموت لولا أن تداركه الله، بأن أصيب بانفلونزا، سدّت ما بقي من شرايينه مفتوحا، فحدث عنده تسمم، فأُغمي عليه، وبقي ثلاثة أيام في العناية المركزة، وبعد أن تحسّن أقلع عن التدخين، أما الآخران فلم يأتهما إنذار في وقت مبكر، وعندما جاء الإنذاء كان الداء قد استشرى، رحمهما الله.

والدّخان، يا بُني، عادة قويّة، إذا سيطرت على الانسان صعب عليه الإفلات منها، لأن مركّزاتها قويـة، وتتطور إلى اعتقاد بأنها تنفع صاحبها عند

الأزمات النفسية، لأنها تفرج عنه همومه. وهو كما تعرف وهم، زرعه الانسان في نفسه، وسقاه بماء كاذب. وعندما يعود إليه تفكيره الصافي، ويجد منافذ الإرادة القوية، ويجمع شتاتها، ويترك التدخين، يتعجب من نفسه، وكيف خدعها طوال هذه السنين. وأضاع عليها لذة العيش. تصور، يا بُني، رجلا يدخن، يختلط لعابه بالدخان، وهو يطلب من زوجته أن تكون رائحة فمها زكية، وهو خلافها، كيف يكون منصفا. ويصبغ الدخان جسمه، وثيابه، وينتشر مع عرقه. ولقد رأيت مقارنة، يا بُني، في المشرحة بين صدر مدخّن وآخر غير مدخّن، فرأيت رئة المدخّن زرقاء داكنة، ورأيت الآخر رئته وردية لا شِيَة فيها.

ويكابر، يا بُني، المدخّنون ظاهرا، ويأتون بحجج واهية، كأنهم دعاة شركات الدخان، المستفيدة من هذه العادة. وأنت تعرف جيّدا أنهم يعانون من مجاذبة داخلية، جاذب يركّز على العادة وقوتها، وأنها تفرّج الهم، وتساعد على بهجة

الاجتماعات. وجاذب يذكّر بالحقيقة وبالأضرار الواضحة ويقول بعضهم إن فلانا عاش ثمانين سنة، ونسوا أن يتصوروا أنه لو لم يدخّن لعاش حياة أسعد. ولا تجد من بينهم يا بُني من لا يقرّ بأن التدخين ضارّ. ويلفك العجب بردائه، ويحيطك بيديه، ويعصرك عصرا، عندما ترى طبيبا يدخّن، حينئذ تدرك أن شركات الدخّان يخدمها الحظ، وإلا كيف يدخّن الطبيب الذي يعرف جيّدا أضرار التدخين، ويرى يوميّا ضحاياه.

والوقوع في مخالب هذه العادة، يابُني، سهل بين الشباب الذين لم ينضجوا. وأسهل طرقه أن يجلس غير المدخن مع المدخنين، فلا يعجبهم أن يكون بينهم من لا يدخن، فيأخذون في إغرائه بطرق متعددة. ويأخذون في تأنيبه، أو استفزازه: «فهو غير ناضج لأنه مثل الأطفال لا يدخّن، والتدخين سمة الرجولة»، أو يقولون له: «إنك ابن امّك»، أي تستمع لنصائحها، أو يقولون إن رأسه رأس عصفور لا يتحمل. وإن لم يفد هذا، يرجونه،

ويجبرونه، ويغصبونه بالحلف مرة، وبالمكافأة مع الرّهن مرة أخرى. وقليل من الناس يستطيع المقاومة، لأن المغرين لا يبذلون الجهد متتابعا، وإنما ينتهزون الفرص، ويقتنصون السانح منها، يعلقون تعليقا لاذعا، يكون كالمصيدة يقع فيه الشاب البريء دون أن يعلم.

وأحيانا، يا بُني، يقبل الشباب على التدخين لأنه يرى والده يدخّن، وأنت تعرف أن الأب هو القدوة الأولى للطفل. يأتي بما يأتي به والده، لأن والده عنده كامل. فاذا رأى أن والده يدخّن، أخذ ينظر إليه بدقّة، ويدرس حركاته ويختزنها منذ الصغر، وتصبح هذه الحركات حركات بطولة، وتميزّ، ولا يفيد نهر الطفل أو نهيه أو زجره لأن القول لا يسامق الفعل، وقد يؤوّله الطفل بما لم يخطر للوالد ببال. فالوالد دون أن يعلم يقود ابنه تدريجيًا إلى الهلاك. ونهيه، مع إتيان الوالد بالفعل، يعلّم العناد والاصرار على الخطأ، لأن العامل النفسي لذلك متوفّر. الوالد الطبيعي يحب لابنه الخير، ولا يدّخر

وسعا في مصلحة ابنه، ولا يرضى أحد أن يبزه أحد إلا ابنه، ومع هذا فعادة التدخين عند الأب المدخّن تسبق مصلحة ابنه، وهذا يؤكد مدى قوة العادة، ولهـذا لا تمسك نفسك من احترام من أقلع عنها، حتى ولو كنت لا تحبه.

وقـد تتساءل، يا بُني، عن سبب وقوع الأطباء في هذه العادة، ويجيبك بعضهم بأنه وقع فيها عندما كان في سنة التشريح في كلية الـطب لأن زملاءه نصحوه في أن يشعلها، ويضعهـا على شفتيـه، «لتعكم»، فيصـل دخـانها إلى أنفه من الخارج، فتمنع تسرب رائحة «الفرملين» المزعجة إلى أنفه. ولتبقى مشعلة لابـد له بين آن وآخـر من مصّهـا، وهكـذا تدريجيـا، تضع العادة مخالبها فيه، وتطبق بقوة على إرادته حتى لا يستطيع الفكاك.

أعـرف، يا بُني، شابًّـا كان في سنة من السنـوات مسافرا من الحجاز إلى نجد، في

سيارة لوري مكشوفة. وكان يجلس هو ومعاون السائق على «غمارة اللوري» مفترشين فراشيهما، ومتكئين على مخدتيهما، والركّاب في «صندوق» السيارة خلفهما مباشرة، وكانت السّيارة تمخر عباب الصّحراء بعد صلاة الفجر مباشرة، وكان في الجو برودة تزيد عن طاقة التحمّل قليلا. فأشعل المعاون سيجارة، وأظهر أنها دفأته، ولولا رعاية الله للشاب لطلب من المعاون سيجارة. ولكان اليوم من المدخنين.

أعرف رجلا، يا بُني، لامس السبعين، وله أربعون سنة منذ أن وقع في براثن هذه العادة، ونصحه الأطباء بالاقلاع، لترتفع أمراضه، أو تخف، ولكنه أبى، وكان يدخن بشراهة، كما يقال، لا تخلو يده من سيجارة، يشعل هذه من تلك، شفائفه سوداء، وشاربه يحفه السواد، وأصابعه تتطاير منها القشور المتراكمة من التدخين. لا يترك

الـدخـان إلا نائـما أو مصليا، وفي يوم من الأيام، وهو جالس في الشرفة، أرسل الخادم ليحضر له من صاحب الدكان علبة جامعة، استخـرج منهـا علبـة مفـردة، ومن العلبة سيجـارة وهمّ بإشعـالها، ثم توقف قليلا، وكـأنـه يفكـر، ثم فجـأة، «طـوّح» بها في الشـارع كلهـا، وأرسل وراءها الكبريت، وقال: «وداعاً». ولم يدخن بعدها. ألم أقل لك إنها الارادة والتصميم والعزم، فلا تكن عبداً للعادة.

وقـامت حرب ضاريـة في العـالم بين الهيئـات الصحية في بعض البلدان وبين شركات الدخان، فالهيئـات الصحيـة ترى الأخـطار، وتـرى فتـك الأمـراض التي يسببهـا التـدخـين، وترى أن من واجبها تحذير الناس منه ومن أضراره، وتبصيرهم بما ينفعهم. وشركـات ترويـج الـدخـان تغـريهـا أرباحها بأن تقاوم وتغالط، وتكذب وتشكك بكلام الأطبـاء. ونجحت شركـات التـدخين في سنوات

مضت، ولكنها في السنوات الأخيرة بدأت تتخاذل وبدأت الكفة ترجح مع الهيئات الصحية، وأصبح تجاوب الناس يزداد، وبدأ الجمهور يهاجم شركات التدخين، ويثأر لعزته، وكانت الهيئات الصحية تسعى لاختراق صفوف أعدائها بالحصول على حكم قضائي يتيح لأحد المتضررين من الدخان النجاح ضد شركات الترويج، وفهمت أن شيئا من هذا قد تم، وأنه يعتبر منفذا جيدا، وإن كان لا يزال ضيقا.

والحكومات، خاصة التي لا تنتج «التوباكو»، تود محاربته، ولكنها تجد الأمر صعبا، لأنها تخشى أن يأتي عن طريق التهريب، فيؤذي الشعب خلقيا، بعد أن آذى نفسه جسميا. ولهذا أصبح مشيها في المحاربة متأنيا وبطيئا، وبحذر.

لقد أبعدنا، يا بُني، عن أمر الصحة وإن كنا لم نبعد في الحقيقة كثيرا، فنحن في هادم الصحة وسوف نعود الآن إلى ما كنا فيه من الطب والدواء.

وكنا عددنا الانجاز في العمليات الجراحية لكافة الأعضاء المهمة، بصفة مختصرة وعاجلة، وتركنا بعضها مما تعرفه، أو سوف تعرفه تدريجيا، فزمنكم يابُني زمن الثقافة العامة، التي قد تتساوى أو تغلب الثقافة المتخصصة، في الدراسة في المدرسة. والناس من جيلنا يا بُني يظلمونكم، ويقولون عنكم إنكم جيل أضعف في التحصيل الدراسي من جيلهم. وهم يحكمون عليكم بما يعرفونه اليوم بمستواهم اليوم، ولو حاولوا أن يتذكروا لعرفوا أنهم كانوا أضعف منكم كثيرا. وأنتم تزيدون عليهم بالثقافة العامة، التي لم يكونوا يعرفون منها إلا القليل الذي لا يذكر.

الحديث، يا بُني، عن الصحة وما توفّر لها اليوم يطول، ويكفي ما قلته عنها الآن، لأنك معاصر لها وستعرف ما لم أخبرك به، وكان أكبر همي أن أتكلم لك عن الماضي، وقد أعطيتك عنه إلمامة، ورأيت الفرق بين الأمس واليوم في مجال الصحة، والوعي

الصحي، وأعيد ما سبق أن قلته عما تغبطون عليه من جيل سبق، مما يوجب عليكم الحمد والشكر لله على هذه النعمة، وسبق أن تحدثت لك عن الشكر، وقد أزيدك شيئا هنا عنه. وهل تريده شعرا أو نثرا؟ إن طلبته شعرا، فسأطالبك بحفظه.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان عليه يد فليكافئ عليها، فإن لم يفعل فليثن عليها، فإن لم يفعل فقد كفر النعمة» ونعمة الله، يابُني، كبيرة وتستحق لأجلها أن نثني على الله بما يستحقه، ولا نحصي ثناء عليه. وقال عمر بن عبدالعزيز «ذِكر النعم شكر». فردِّد ما أنت فيه من نعمة، وقارن بينها وبين حال بلادنا قبلها، فإبراز ذلك دليل تقديرك لما أنت فيه. وقيل: إذا قصرت يدك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر.. وأنا لا أريد الثناء منك ومن جيلك باللسان فقط، ولكن أريده بالفعل: بمراعاة ما يحتاجه منكم من محافظة عليه، وتطوير له، أعطوا من سيأتي من الأجيال بقدر ما أعطاكم

من سبقكم، وقد قيل في بقاء النعم بسبب الشكر: «لا زوال للنعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت»[1]

ولعل هذا يكفيك وسوف أزيدك فيما بعد من أمثاله مما قيل في شكر النعم، فهو كثير.

(١) محاضرات الأدباء ١٤٨.

سراج التنك والفانوس

أي بُني !

عندما اذكرك بنعمة الله السابغة عليك وعلى جيلك، وعلينا، وقد أردكناها بعد أن رأينا في القديم ما رأينا، مما لم تره، أرسم لك صورا رآها أبوك لم ترها. ولن يكون من السهل عليك أن تتصورها، ومع هذا فسأحاول أن أقرّبها إلى ذهنك. ولدت وأنت تظن أن الكهرباء والإنارة كانتا كما هما الآن منذ أن ابتدع الله سبحانه الكون. لا، يا بُني، إلى قريب لم يعرف جيل أبيك الامكانا واحد مضاء بالكهرباء أو مكانين، أحدهما الحرم المكي، والثاني قصر الحكم في مكة.

والشيء العام في زمن مضى أن الناس في نجد كانوا يستضيئون بنور سراج يغذيه الودك، سراج هزيل ترعبه نسمة الهواء، وتخبيه نفخة الطفل. رائحة المكان مما يحرق غير محببة، ومنظره مزرٍ. ومع

هذا كان له من الأهميـة ما له، كان يبـدد ديجـور الظلمة للساهرين والسارين. كان رفيق المستوحش في هدأة الليـل، كان أنيس من فارق النوم جفنيه غراما أو مرضا، أو أسراً، ترقص ذبالته فتوحي له بما لا يخطر على بال، وتهدأ فيترقب حركتها. يوصي الميت للسراج ببعض الودك، يؤخذ ثمنه من ميراثه، ليستنـير المصلون بنوره، فيدعون له. ويوصي له الخـيّرون بمثـل ذلـك إحتسـابا للأجر والثواب، فعمل مثل هذا من الصدقات المقدرات.

وقليـل جدا من النـاس يستـطيعـون أن يقتنوا الشمع، ويسمع عنه بعضهم فقط، وقليل من رآه، حتى إذا بدأ البـترول يتـدفق ويكـرّر، وبـدأت منتجاته تصل إلى بلادنا، بدأت الفوانيس تظهر، وتفنن الصنـاع في صنعهـا، والتجـار في جلبهـا، وكانت هذه الخطوة نقلة حضارية مرموقة، لأنه جاء معها تطور آخر، فقد غُلّفت السرج بزجاج يحميها من الهواء وصدماته، ومن عبث الأطفال ولعبهم. وأضـاف هذا إلى عمل ربة البيت عملا جديداً،

بتنظيفها إياه كل يوم، إذا ارادت لنوره أن يسطع محييا للوجوه المحيطة به، ومحيية له.

وكانت لكل من هذه أصول استعمال، فسراج الـودك له «فتيلة» متـواضعة، كلما استهلكت منها النار قليلا جيء بعود أو غيره واستخرجت قليلا، حتى يؤتى عليها كلها في النهاية. ويقول الجاحظ في كتابه البخلاء، إن أَحد البخلاء اتهم رفيقا له بأنه مبذر، ولما سأله عن مظهر هذا التبذير، قال: «إنك تخرج الفتيلة بعود رفيع، والخشب كما تعرف يمتص بعض الودك، فيضيع عليك ما امتصه العود، فلا تستفيـد منـه». فقـال الآخر: «وكيف تريدني أن أفعـل»؟ قال: «إفعل مثلما أفعل، إستعمل الابرة لأنها لا تمتص الشحم».

أما السراج الجديد يا بُني، فلا تحتاج معه إلى عود أو إبرة، ففيه مثل «البُرغي»، تديره إذا أردت زيادة اللهب يمينـا، وتـديـره شمالا إذا أردت تخفيضه. والناس عادة لا يكثرون من استعماله إلا لغرض.

لأن الغاز «الكيروسين» كان غاليا. فإذا صعدوا إلى السطح أطفؤوه أو قصروا من ذبالته، حتى يحتاجه أحدهم للنزول إلى أسفل البيت حيث الظلام الدامس.

والغاز استفيد منه في وقت متواضع مكان الودك، في سراج بدائي، يتعرض لما كان يتعرض له سراج الودك، واقتصر استعماله على الفقراء الذين لا يستطيعون دفع قيمة السراج، أو الفانوس ذي الجوانب الزجاجية، سواء ذلك الذي يصنع داخل البلد، أو ذلك الذي يستورد من الخارج. ومع هذا كان الفقراء سعيدين به، فهو خطوة في التطور الحديث، ونوره أكثر صفاء من نور الودك.

وهناك، يا بُني، سراج يسمى «القمرية»، له نور يشبه نور القمر في بياضه وصفائه، ولعله كان يأتي من الهند، تعارف الناس على إرساله مع «جهاز» المرأة عند الزواج. وهو عبارة عن خزان للغاز، عليه غطاء ذو شكل جميل من الزجاج، وفيه آلة صغيرة تسمح

للفتيلة أن تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل بواسطة «برغي» وبها مروحة صغيرة تزيد من الأكسجين عند ملتقى الغاز مع اللهب. ومن يقتنيها يعتبر من الموسرين، لأنها فعلا ثمينة، وتستورد من الخارج، وتستحق المناسبة التي تعطى فيها.

وبقي الناس على هذا، يا بُني، سعيدين بما تحقق لهم من تطور إلى أن دخل عنصر جديد في بعض مناطق المملكة، خاصة مكة، فقد وجد «الإتريك»، وهو سراج له نور ساطع، كل جزء فيه يختلف عما سبق وصفه، صحيح أن في أسفله خزانا للغاز، ولكن هذا الخزان يسلط عليه ضاغط، يندفع بسببه الغاز إلى فتيلة، لا تبدأ من الغاز، ولكن الغاز يأتي على هيئة رذاذ أو دخان عن طريق أنبوب ملتو، وهي متدلية، مصنوعة من حرير غير مصمت، ويمكن لمسها باليد وتركيبها قبل أن تستعمل، أما إذا استعملت صارت كالرماد إذا لمست.

وانتشرت في مكـة، وفتحت دكاكين لتأجيرها على النـاس، ولمن لا يملك واحدا، وهي لا تستعمـل إلا في المنـاسبات، أو في الدعوات والاجتـماعات، ولها صوت فحيح أجش، ثم أدخل الأتريك إلى الرياض، وانتشر تدريجيا. ولم يغب نجمه إلا بعد أن انتشرت الكهرباء. ولايزال يستفاد منه في الرحلات، ودَخَله كثير من التطوير. واصبح أسهل للنقل.

في فترة سراج الودك، كانت القمراء سراجا مشـاعـا لجميـع الناس، وكان نور القمر هو أرخص إضـــاءة، وأيسرهـــا إذا كانت الأيـام البيض. يسري على نوره الســـارون ليـلا في الصحراء وفي البحار، ويعمل العاملون في الحقول، ويسهر السمار، ويطيب الحديث في سطوح المنازل، وفي ردهاتها، وأمام خيام أهل البادية. والقمر يمرّ بهم، وكأنه يعني تحية كل فرد يلامســه شعـــاعـــه، يأنس به الانســان والحيوان، ويتطلع إليه الصغير والكبير والمرأة

والرجل. يساعد على توفير الودك، ولا تسأل يابُني عن فرحـة الأطفـال، وقد استلقوا على ظهـورهم في الليـالي المقمـرة، ينـظرون إليه والسحب تداعبه، تغطيه حينا، وتكشفه حينا. حينا بغطاء كثيف، وحينا بغطاء رقيق شفّاف. يرى النـاس فيـه صورة جميلة: عينين واستعتين، وفم باسم وخدين ممتلئين لم يؤثر فيهما الكلف الذي يظهر فيه جليا. يراه الطفل والسحاب يمر به فيحتار أيهما الذي يركض، ويتابعون نموه، وتضاؤله. يراقبونه هلالا ثم بدرا إلى أن يعود ضئيلا مثل قلامة الظفر، ثم يغيب. فيسمح للنجوم أن تبرز، فتضـيء كأنها شذر مغسول، فيبدأ الأطفال يسألون عن اسم هذه وتلك، هذه هي الثريا، وهذه بنات نعش وهـذا المـرزم الـذي يقول للثريا: «أنا المرزم وأجيـك أرزم وأحتّ الشوك بمخلاتي». فترد الثـريـا: «أنـا الثريا بنت العليا ما تلحقني يا مسكـين». وهـذه المجـرة، وقيل إنها أثر جرّ

الملائكة للذبيحة التي فُدي بها إسماعيل عليه السلام. وينام الصغير، على هذه المناجاة، قبل ان يسأل عن بعض نجوم المجرة، ونجمة القطب. سبق إلى الطفل النسيم فدغدغه، وأهداه نفحات النوم دون أن يدري، ويحلم بعدّ النجوم، وبالسحّارات وهن يمررن وسط نبعهن بعد أن اغتسلن في الغدير أو قبل ذلك، ويتمنى أن يرمين عليه «قرن زباد» كما تقول القصة الخرافية. ويسمع من أخيه في اليوم التالي كيف رأى «فرق» القطا الذي مرّ بصوته العذب، وحفيف أجنحته الجميل.

والآن جاء دور القصة، كان هناك جماعة في إحدى المدن يخرزون الحذاء، وكان هناك فريق آخر ينافسهم، وحميت معركة المنافسة بينهما ليلة عيد الفطر، لأن من اشترى حذاء يريده أن «يشرّك»، وما بقي من الليل أقل مما يسعف به الوقت. وخشي أحد الفريقين أن يغلبه الفريق الثاني، فاتفق مع أحد

«اللّعّابين» أن يفاجئ الفريق الثاني بأن يمر من تحت الدكان الذي كان مرتفعا نوعاً ما، فإذا وازن «الفانوس» أخرج رأسه فجأة ونفخ السراج، فيطفئه. وقد تم هذا عدة مرات، دون أن يستطيع الفريق المهاجَم (بفتح الجيم) معرفة المعتدي، ومرت الليلة كرّاً وفرّاً، ولتباعد «النوبات» نجحت الحيلة، وأعاق الفريق المعتدي الفريق المعُتدَى عليه عن عمله.

وقصة ثانية دارت وسط الفريق الأول، كانوا يجلسون في مكة في دكان يخرزون فيه الحذاء، وأمامهم «اللمبة» السراج، وهو من النوع الذي زجاجته مفتوحة من أعلاها، يستفيدون منها لإشعال سجائرهم. وكان لهم قريب طباخ عند أحد الموسرين، وتعوّد أن يحضر قدراً صغيرة بها بعض الطعام، فإذا انتهوا، وأرادوا أن يناموا أكلوا ما فيها، وكانت توضع في ركن بعيد مظلم من

الغرفة. وقرّر هذا «اللعّاب» أن يأكله وحده في تلك الليلة، وهو رجل أكول. فتظاهر أنه يريد أن يشعل سيجارته، فامتص «الأكسجين» الذي في الزجاجة فانطفأت الذّبالة، وبقي الجميع معشىً على أبصارهم لحظة، تمكن أثناءها من أخذ القدر والخروج، موهما أنه يريد أن يذهب للنوم في الخارج، فذهب إلى «البازان» فأكل الأكل، وغسل القدر وعاد، ثم عاد واختفى. ولم يعرفوا الخبر إلا بعد أن بحثوا عما بالقدر بعد أن انتهى عملهم، فلم يجدوا شيئا.

وكان الناس، يا بُني، في ذلك الزمن يعيشون عيشة طبيعية، يعملون في النّهار، يحيونه بالكد والكدح، وينامون باللّيل بعد صلاة العشاء، وتجد بعضهم ينعس وهو ينتظر الصلاة، ولهذا كانت حاجتهم إلى السّراج محدودة، وقليل منهم يسهر على ضوء السّراج أو الفانوس. ويستيقظون مبكرين، الكبار لصلاة الفجر، والصغار مع شقشقة

العصافير، إذا كانوا على ميعاد مع أقرانهم للّعب أو الأذى، وعلى «رجف» والديهم إذا لم يكونوا كذلك. لأن نومهم ثقيل، لأنهم في حاجة إلى ساعات نوم أطول من ذويهم.

قارن، يا بُني، أمر السراج بالأمس، وأمر الفانوس الذي اعتمد عليه آباؤك في حياتهم، السائر في طريقه منهم، والعاملة في بيتها، والسامر مع زملائه، والعالم مع كتابه، قارنه مع الكهرباء التي تتمتع بها اليوم، ما عليك إلا أن تضغط زراً فيشعّ النور مالئاً الغرفة، يعطيك النور الذي لا تعطيك إياه الشّمس، لأن الشّمس لا تتغلغل في الغرفة، أو في الأماكن المتوغّلة في البيت. وتطفئه إذا هداك الله والتفتّ إلى ذلك، بلمسة من اصبعك فتعود الغرفة ظلماء «خرمس».

قلت لك من قبل إِن أول ما رأى جيل أبيك الكهرباء رأوها في الحرم المكي، وفي قصر الحكم في مكة. وفي كلا المكانين تقبع مكائن ذات صوت ووجيف، تسقى بالبترول أو الغاز يقوم عليها

عاملان فنيّان يتناوبان، تعمل بالليل، وتستريح بالنهار. والنوّر الذي تعطيه عندما تعمل بصيص لا يكاد، مقارنة بما هو قائم اليوم، يُغني، ومع هذا، يا بُني، ترى فرحة الشباب طافرة على وجوههم، وهم يذاكرون في الحرم إلى قرب منتصف الليل، تراهم مبثوثين في أرجاء الحرم، وفي «حصواته» حصباته، تحت أعمدة النور، وقد انثنت ظهورهم، هذا ثابت، وهذا يهز جذعه، وهذا شبه مضطجع، وهذا يقرأ بصوت عال، وذاك بصوت منخفض، تحفّ بهم الملائكة في رحاب بيت الله، ويؤمّلون في قبول الله لعملهم، وإنجاحهم في الاختبار المقبل، وبضاعتهم أنهم أدوا الصلاة في أوقاتها، وطافوا سبعا، واستقبلوا القبلة - وهم يذاكرون - احتراما.

ثم تدريجيا، يا بُني، بدأت محركات «مواطير» الكهرباء، تطلّ برأسها على الناس، وانتشرت، ثم قامت الشركات وانتشرت، كبرى وصغرى، وأُعطي بعضها امتيازا، وبدأت المدن تبتسم

بالليـل، وتغـيرّت حيـاة الناس وطبائعهم، بدأوا يسهرون، ولا ينامون إلا متأخرين، ولا يستيقظون إلا موقظين. وبدأت الكهرباء تحرك المراوح، بعد أن كانـت وسيلة النـاس الـوحيـدة هي مراوح الخوص، يحركها الشخص أمام وجهه، أو تحرك له ان كان كبيرا أو رضيعا، أو مريضا أو زائرا. وكان مفعولها متواضعا. ولا يزال جيل أبيك يذكر يابُني تلك المروحة، التي كانت في دكّان في «سويقة» في مكـة المكـرمة، قد وصلت بالسقف بحبل متصل ببكرة، جلس خادم يجرها، وهي تقبل بين الارض والسقف يمنة ويسرة، وقد رشّ «السقا» بقربته أمام الدّكان ماء مما أضفى على المكان طراوة، ولا يزال جيـل أبيـك يذكر كيف كان الطلاب ينزلون من «قلعـة هنـدي» في طريقهم إلى البيت، يلفحهم السمـوم، ويصـلي وجـوههم لفح الشمس، وهم يخترقون «الشامية» مثل «السّهام»، طلبا «لسويقة» بظلهـا المنعش. والفردوس الدنيوي عندهم يابُني عنـدما يقفون أمام هذا الدكان، يلتقطون نسمات

باردة من هذه المـروحـة الحريرية التي تقبل وتدبر كاسحة الهواء أمامها ثم خلفها، كأنها طفل بريء «يتمرجح» ويتأرجح في يوم عيد.

وما أحوج الناس في تلك الأيام إلى المراوح في مكة شرفها الله، لأن حرّها شديد، وسَمومها لافح، وجبالها حماها الله تخزن من الحرارة طوال النهار ما تتكفـل بنفثـه عند الليل حتى منتصفه، فلا يكاد الناس يتمتّعون ببعض لمسات النسيم بعد منتصف الليل حتى تطلّ عليهم الشمس، وكأنها تخشى أن ينسوها. ما أحوج الناس يا بُني إلى المراوح في تلك الأيام خاصّة في رمضان، وهم يحتالون على البرودة بكل أشكالها، يعمدون إلى الزير، وإلى الشربة، ومـا أغلى ما فيهما من ماء بارد، تَعِب عليه أهله، وصبروا له، فيبلّل أحدهم الناموسية أو الشرشف بعد الظهر، علّه يساعده على غمضة عين. ولكنه لا يكاد يفرده ويغطّي به جسده حتى يكون قد «نشف» وجفّ ويبس. ولا يأتي العصر إلا والنّاس قد اتخذوا الصمت أسلوبا ناطقا، يمشون ليشتروا الثلج، أو

عصير الليمون المثلّج، وليس لهم مما ينطق إلا عيون مفتوحة، وأيد ممدودة، يسحبون أقدامهم سحبا. والجند في هذه المهمّات هم الصّغار في الغالب.

أين هذا، يا بُني، مما الناس فيه اليوم، مما تسببت فيه الكهرباء، التي دخلت كل بيت في المدينة أو القرية، ودخلت حتى الهجر عن طريق مولدات خاصة، انتشرت في الصحراء. أين هذا، يا بُني، مما أنعم الله به على الناس من مكيفات حلّت محل المراوح المصنوعة من خوص النّخيل.

لما دخلت الكهرباء البيوت دخلت معها مراوح تعمل بالكهرباء، تعلق في السقوف، أو توضع في أحد جوانب الغرفة، تحرك الهواء الساكن، وتدفعه إلى حيث الناس، بحركة منتظمة، وقوة مختارة ثابتة. وشعر الناس براحة تامّة مقارنة بما كانوا يلاقونه من قبل، ورغم أن مراوح الخوص لم تكن تكلفهم مالاً في تحريكها، ومراوح الكهرباء تحملهم بعض المال، إلا أنه أمر مقبول إذا قورن بالفائدة التي يجنونها منها. وطار الناس بهذه المراوح

فرحا، وأخذت ترد المراوح إلى المملكة أنواعا وأشكالا وأحجاما. بسرعات متفاوتة، وميزات مغرية، جاءت من الشرق ومن الغرب، ولا تزال تتغير إلى الأحسن، ويُدخل الصانعون عليها ميزات، تحببها إلى الناس.

وكان مستعملوها يشعرون بأن هناك نقصا في أدائها لعملها، في المدن والقرى، التي جوها يتّصف بالسموم، فهي عندما تتحرك تُحرك معها هواء حارا. وقد سرّهم أن يَنفذ إلى محيطهم وافد جديد قضى على هذه المشكلة، وهو المكيّف الصحراوي. وهو عبارة عن مروحة تدفع الهواء خلال «قِش» مشبع بالماء، فيخرج الهواء رطبا عليلا. فجاء براحة لم يعهدوها، وتحكّموا في جوهم كما يريدون. فنَعم بهذه الراحة الناس في ليلهم وفي نهارهم، في نومهم ويقظتهم، لم تعد «تعسيلة» القيلولة ينغّصها سموم، أو يعيق عنها حرّ، ولم يكن تركيب هذا المكيف الصحراوي دون عناء وتكاليف مالية، فبجانب تمديد الكهرباء وتوفيرها له، هناك تمديد

الماء له، ليصله مستمرا دون انقطاع، وليس هذا بالأمر السهل دائماً، وخاصة عندما يكون مصدر الماء غير قريب. وهناك صعوبة أخرى وهي تغيير «القش» سنويا تقريباً، لما يتراكم عليه من الملح نتيجة التبخّر المستمر.

لهذا فتح على الناس باب راحة جديد، عندما بدأ زائر جديد يطلّ في الأسواق، وأقبل عليه القادرون يُحلّونه محل المكيف الصحراوي، وهو مكيف «الفريون». وأبرز ميزاته أنه لا يحتاج إلى ماء، وإمكان التبريد فيه أكثر، وفيه تحكم آلي يعمل على درجة البرودة المطلوبة، فلا يتعداها ولا ينزل عنها. أمين في أداء عمله، مواظب عليه، لا يعيبه إلا صوته الذي يطغى على كل صوت في المكان، إلا أن صانعيه سرعان ما تغلبوا على هذه المشكلة فاخترعوا أنواعاً أهدأ صوتا. وككل مخترع، تطور تدريجيا ليقابل كل احتياج، وحاول صانعوه أيضاً أن يقتربوا من قدرة كثير من الناس على الشراء، وتوفير القيمة، مع محاولة لتقليل صرف الكهرباء ما

أمكن، لأن من عيوب المخترعات الحديثة أنها تقتات على الكهرباء قوتا يتجمع أحيانا حتى يثقل كاهل المستعمل. وقد أدرك هذا المخترعون والمصنعون فسعوا إلى تحسين أجهزتهم لتروج، وليكسبوا من ورائها الأموال الطائلة. ولم تعد المكيفات وحدات مفرقة فقط، ولكنها أصبحت مركزية أيضاً، توضع على سطح المنزل آلتها الرئيسية، أو في غرفة مجاورة للبيت، وتوزع أجهزتها على الغرف، وأصبح بعضها بالماء وبعضها بغيره. ولم يعد هناك حد للأنواع المصنعة بماركاتها المختلفة، وميزاتها المتعددة، واستعمالاتها التي تتلاءم مع ظروف الناس المتباينة.

هذا، يا بُني، جانب من نعم الله التي جاءت عن طريق الكهرباء، وهو جانب محدود، قدّمته لك لترى نعمة الله السابغة عليك وعلى جيلك وعلى من عاصرها من جيل أبيك وجدّك رحمهم الله ورحم جميع أموات المسلمين، وعوّضهم في جناته من البرد والسلام ما قد يكونون قد افتقدوه في عصرهم.

وتستطيع يا بُني أن تتبع دبيب الكهرباء في كل آلة تراها، مبتدئا في بيتك بالمكيف والثلاجة والفرن، والفرّامة والخلاطة ومروحة الشفط، والمكنسة، ورافع الماء، ودافعه، وتراها في بعض أجهزة التليفون، ويفتح بها بعض الأبواب والنوافذ. ويعمل عليها التلفزيون والراديو والفديو، وبدونها لا ترفع الرافعة عبئا، ولا تخرق الخارمة ثقبا، ولا يرش الماء على الزرع، ولا يحلب على الطريقة الحديثة الضرع. أنظر يمينا وشمالا في البيت وفي الشارع فلا تكاد ترى شيئا يعمل بكفاءة وطريقة حديثة إلا وترى روحها قد دخلته، تسري فيه سريان النوم في عين الانسان، إنها، يا بُني، من جند الله تخدم من رضي الله عنه لنيته أو لحسن عمله، وقد تكون آفة من الآفات إذا أرادها الله لذلك.

أغمض عينيك يا بُني، وتصور سراج الودك، ولعلك تذهب إلى معرض الجنادرية فتراه بعينك في يوم من الأيام، ثم أغمض عينك وتصور الكشافات

في ملعب رعاية الشباب، هل تستطيع المقارنة، إن البون شاسع، والشقة بعيدة لأي محاولة للمقارنة. هنا، يا بُني، عليك أن تقر بكبر النعمة وضخامتها. أجل إحمد الله، يا بُني، على نعمة تتمتع بها اليوم لم يتمتع بها جدك وآباؤه. إن زمن جدك، يا بُني، «اهتال» بعض أهله لما عرفوا أنه أصبح بمقدور بعض الأمم أن يجمعوا الماء والنّار في إناء واحد هو «السموّر» الذي يغلي فيه الماء، وقد وُضع مكان للنار، وعُزل عن مكان الماء المقصود تسخينه. لما سمعوا، يا بُني، بهذا الجمع، وتأكدوا من وجوده من ثقة لا يشك في كلامه، قالوا: «ويخلق ما لا تعلمون». وأنت لا يملأ عينك وبنو جيلك شيء. تسمعون عن الوصول إلى القمر، وتتطلعون إلى حجز أماكن إليه، التصديق بالوصول إليه ليس هو المشكلة لديكم، وإنما المشكلة متى تذهبون في رحلة إلى هناك.

إن جيلكم، يا بُني، قد هادن التقنية والعلم الحديث، وأصبح أحدكم يعرف الثاني، ويتعامل

معـه تعامل المعاشر، لا يفاجئكم منه جديد، ولا يرضيكم منه المعجب، فكل جديد في نظركم سوف لا يستمر جديدا، وسرعان ما يعقبه ما يجعله كهلا في المـخــترعــات. إنـكـم يا بُني لا تـتـمـتعـون بالمستجــدّات، لأن المخــترعـين والصـانعـين لا يعطونكم وقتا للهضم والمتعة، يريدون أموالكم، ويعرفون كيف يأخذونها منكم، يعطونكم حصيلة أفكـارهم قليـلا قليلا. لا يجعلونكم «تستأنسون» بالمخترع، ولا يمهلونكم لتلتصقوا به، لا يعطونكم الفرصة لتزرعوا عاطفة محبّة بينكم وبينه. بل الكُره أقرب إلى أن يزرع، تفرحون لفترة قصيرة بالمخترع وتجمعـون قوتكم المالية فتشترونه، ثم بعد عام أو بعض عام أو أكثـر قليلا من عام يبرز إلى السوق مخترع جديـد، مُدخـل عليـه ميزات وتحسينات، يعـطي فوائـد أكثـر، في الغالب ترمي إلى الراحة والكسـل، وتعـطيـل قوى بشرية أكثر، فتنظرون بعـين الحسرة، لقلة ذات اليـد. إلى هذا المخترع وتعشقـونـه، وتكـرهـون الجيفة التي كسدت على

يديكم. فكرهتم اليوم ما عشقتم بالأمس. ونبذتم ما احتضنتم قبل ذلك.

والكهرباء، يا بُني، دفعت الطب إلى الأمام مسافات بعيدة لا يحلم بها أحد، فأمكنت من اختراع أجهزة تعمل بها، وتطور على أثرها الالكترون، ودخل بسببها في الآلات، فأقدرها على الوصول إلى نتائج دقيقة ومدهشة وأمكن عن طريقها التغلغل إلى القلب وإلى الأجزاء الأخرى الداخلية في الانسان. وأمكن عن طريقها أيضاً أن تتطور المجاهر، فترى أدق الكائنات وأصغرها مما لا تراه العين، مكبرا ملايين المرات، بلحظة، وطرفة من العين.

بالكهرباء طارت الطائرات وحلّقت وزاحمت الصقور والعقبان والنسور وبزّتها، وسارت السيارات، ومشت القطارات ونهبت الصحاري والقفار، وجابت أنحاء العالم، واخترقت الوديان والجبال والغابات. وأبحرت البواخر، ومخرت عباب المحيطات، وغاصت الغواصات، وكشفت

أسرار البحار وزاحمت الحوت والأسماك في بيئاتها.

بالكهرباء نقلت الصور من أقصى الأرض إلى أدناها، ونقلت الأحداث بأشكالها وألوانها، وبها نقلت الأصوات عبر آلاف الآلاف من الأميال، لا تفلت منها نغمة، أو تغيب آهة. بها صعدت المصاعد إلى أعلى ناطحات السحاب، ونزلت الآلات الغاطسة إلى أعماق الأرض لتستخرج المياه واخترقت الآلات الجبال، فعملت الأنفاق، وبها أطلقت الصواريخ إلى ما يخرج عن مدار الأرض، وبها أصبح هناك أقمار صناعية تدور مقلدة الأقمار الاصلية، وبها صعد الإنسان إلى القمر.

لقد جاءت مع الكهرباء العجائب، وسوف يأتي ما هو أكثر، وقد دارت عجلتها ببطء في أول الأمر، ثم ازدادت تدريجيا قوة، حتى بلغت اليوم ما نحسبه غاية قوتها، ولكن الزمن سوف يكشف منها ما هو أعجب، والتطور في الاستفادة منها يزداد يوما بعد يوم. حتى ليتمنى النّاس أن يعيشوا مئة عام، ليروا ما يأتي من عجائب المخترعات، التي قامت الأمم

تتسابق إلى الوصول إليها وإظهارها.

لعلك، يا بُني، تتطلع إلى القصة في هذه المرحلة من الحديث. وقصة الكهرباء الكاسحة، وقضاؤها على السراج الضعيف قصة ما بعدها قصة. وفي داخل ما جاءت به قصص وقصص، إفتح التلفزيون، وبعد هنيهة سوف ترى من القصص ما يشبع رغبتك، ويقابل تطلعك، هذه الأداة السحرية التي تدخل إلى بيتك الجمل والفيل بإشارة منك.

أما إن أردت شيئا مفيدا وجميلا عن السراج فاسمع هذه الأبيات لأبي حسين بن فارس بن زكريا الرازي:

وقالوا كيف حالك قلت خير
يُقضى حاجة وتفوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا
عسى يوما يكون لها انفراج
نديمي هرتي وسرور قلبي
دفاتر لي ومعشوقي السراج[1]

(١) نزهة الألباء ١٣٧.

أجل، يا بُني، إحمد الله على واسع نعمته عليك وعلى جيلك، نعمة لم يتمتع بها جدك، ونعمة أدركها أبوك، وفي ذهنه المقارنة بينها وبين ما أدركه من ماض فيه السراج الخافت، إنها من أكبر النعم. وسأذكرك بفضائل شكر النعمة كما سبق أن ذكرتك، فلعل مرور ذكرها على أذنك يحفر جادة تسهل لك التذكر، وتبعد عنك النسيان، فأمر مثل هذا لا يليق بك أن تنساه. قال رسول الله ﷺ: «أوطد الناس نعمة أشدهم شكراً»[1].. وقال ابن المقفع: «إستوثقوا عرى النعم بالشكر»[2]. وقال البحتري:

يزيد تفضلا وأزيد شكراً
وذلك دأبه أبداً ودأبي[2]

وقيل في الشاكر والناكر: «إصنع المعروف إلى من يشكره ويذكره واطلبه ممن ينساه»[2].

---

(١) محاضرات الأدباء ١٤٨ .

(٢) محاضرات الأدباء ١٤٩ .

الدار والبيت والفيلا

أي بُني !

سوف لا أتحدث، يا بُني، عن الأكواخ والعشش، فهي ليست أقرب للمقارنة. ولكني سوف أتحدث عن بيوت الطين، أو بيوت الحجر، التي عرفها أبوك وجيل أبيك، وسكن فيها. وسوف نجول معا فيها: أنا أمشي معك، أدلك على خباياها وزواياها، وأنت تمشي معي مستدلاّ، فاغراً فاك من الدهشة، لأنك لم تكن تظن ان آباءك الذين بنوا لك المجد قد ولدوا وترعرعوا في هذه البيوت المتواضعة: بأسواقها وشوارعها الصغيرة. نعم، يا بُني، عاشوا حياتهم في شظف من العيش، يقنعون بالقليل مما يقيت، ويستكنون في أبسط المساكن. مما يقيهم الحرّ والقرّ. ومع هذا فلهم أن يفخروا، يابُني، بأن البيت يبنى من بابه إلى سطحه دون أداة واحدة مستوردة، حتى مسامير الأبواب يصنعها الصناع في دكاكينهم.

تخط خطة البيت بطريقــة مبسّــطة، ثم يبـدأ «الحـرفيـة» العـمال ومعهم «الستاد» المعلم. يخلط العمال الطين الحرّ والتبن، ثم يلبن، ثم يوضع في صفوف منتظمة في الشمس، حتى يصل إلى درجة من الجفاف تقنع المعلم بأنها أصبحت معدة. فيقف العمال صفا، يناول احدهما الثاني اللبنة واحدة بعد الأخرى، حتى تصل إلى يد المعلم. وأحيانا يناولون المعلم «الشباعة»، وهي الطينة اللينة التي تأتي لحمة بين اللبنات. يضع المعلم لبنة هنا وأخرى بجانبها حتى يكمل الصف «العرق». ثم يبدأون صفا آخر فوقـه حتى يرتفـع الجـدار. ألم تسمع بالمثل الذي يقول: «ما لبّنت فارقة»، أي «ما كنت سببه تحمل مسؤوليته».

ثم يسقف البيت أولا بصف من أخشاب الأثل القوية، يسندها «ساكف» قوي، ثم يعترض فوقها صف متراص من «الجذامير» عسبان النخل نزع منها خوصهـا، ثم صفوف أخرى فوقها بخوصها. ثم يوضـع الـطين فوقها. ويردد العمال، وهم يناول

بعضهم بعضا الطين أو اللبن إلى أعلى: «لبنة، طينة»، ويهزجون اهازيج جميلة منها:

الأوارم نفاد العيش
عزِّيْ لمن هن تقفّنّه
الأوارم سراج البيت
عزّي لبيت خلن منّه
(الأوارم : النساء).

والبيوت تختلف في عدد الغرف والمنافع، وفي سعتها وضيقها، باختلاف الناس، غناهم وفقرهم، صغر العائلة وكبرها. وهناك من البيوت ما به فناء، وما قد لا يكون به فناء. وبعضها به فناءان. وحسب حاجة الناس ومقدرتهم، قد يكونون يملكون بقرة أو بقرتين. وقد يكون عندهم غنم: ماعز أو ضأن، يستعينون بحليبها على المعيشة. وهذه تسرح بالنّهار مع راع أو شاو وقت الربيع وتَوَفُّر العشب، و «تهظل» عائدة إلى البيت في الليل لتحلب وتعلف ولتستريح.

والبيوت، يا بُني، رغم تعلق أهلها بها،

وتذكرهم اليوم لأيامها التي يعتبرونها سعيدة وبهجة، إلا أنها في الحقيقة ليست صحية بالمستوى المطلوب، والقليل من منازلها يتعرض للشمس والهواء بالقدر المطلوب، وأقربها للجو الصحي البيوت الكبيرة، لكثرة الرّدهات، واتساع الغرف. وبيوت الراحة فيها أحيانا أقرب إلى البدائية، وتكون محلات تجمّع للذباب والناموس، والحشرات. وليس غريبا أن ترى الخنافس والصراصير تجوب أنحاء المكان. أما العقارب فحدّث ولا حرج، خاصة المنازل السفلى من البيوت، وفي بعض أوقات السنة، وأيام الحر خاصّة، لا تستطيع أن تسير في الليل بدون نور يقيك شرها عند وطئها، والتعرض لأذاها. وللعقارب منظر، يابُني، قبيح إذا اقبلت أو أدبرت، رافعة شوكتها خلفها، كأنها قارب نقمة يسير رافعا شراعه، وليس لها حينئذ، قبل أن تلوذ بملاذ، إلا الحذاء السريع، ينزل عليها دامغا، ويكفي الناس شرّها، ولكنها لها بقايا عائلة، وقد لا يكونون بعيدين.

سبق أن قصصت عليك قصة الذي أراد أن يحتال لأخذ ريال من أبيه، بادعاء أنه قد لسعته عقرب، والآن أقص عليك قصة ترسم لك صورة أخرى عن حياة الناس من قبل، في أيام الربيع وعندما تكثر «الربلة»، وهي نبت لا يزن به الحيوان بديلا، و «القرقاس»، و«البقرا»، و«البسباس»، و«الحوّا»، واوقات أخر، «الحمبصيص»، و«الحمّيض»، وهي نباتات برّية يحبها الصغار، يخرج الناس زرافات ووحداناً إلى الصحراء، بعضهم يقضي اليوم كله، وبعضهم يقضي جزءاً منه، وبعضهم يقضي أياما يعد لها العدة ينصب خيمة أو أكثر على حافة روضة غناء، فيها كل هذه النباتات، وروائح زهرها تفوح بأنواع الروائح الجميلة، ومن أبرز هذه الزهور نبت الخزامىَ، والأقحوان، والخزامىَ زهرته قرمزية جذابة، أما الأقحوان فزهرته إما صفراء أو بيضاء، وأحيانا إذا أقبلت على الروضة من بعيد، وقت الظهيرة، لا تستطيع النظر إليها من نوارها وبريقه والشمس

ساطعة فيه.

خرج رجل مع بعض الأطفال إلى الصحراء، منهم أبناؤه، ومنهم أبناء أقربائه، وأخذ الصغار يلهون ويلعبون، واستهوتهم «الخصاوى» وهي حيوانات أقرب إلى «الوزغ» الذي يعرفه الناس في البيوت، أو «السحالي» و «الدسّيسة»، وهي من الفصيلة نفسها، ولكنها أجمل. «والدسّيسة» تختفي بسرعة في الرمل، وللناس طريقة في إخراجها. ويفرح الاطفال بهذه المناظر ويجذبهم قفز الجندب والجخدب، و«القبص»، يركضون وراءه ويمسكونه، وفي الغالب يعرضونه لنموذج من قسوتهم، فيقطعون منشار ساقه، ويحرمونه من القفز، ويمنّون عليه بأن أبقوا له القدرة على المشي، فهو «يزرّ» ويدرج منطلقا بين أيديهم، فيلحقون به. ويعبثون بالمكان الذي يمرّون به لعبا ومرحا.

ويتعرضون لبعض الأخطار دون أن يدركوا أنهم قريبون منها، وذلك لأنهم أبناء حضر، والصحراء ليست بيئتهم. ويقلّبون الأحجار، وقد يكون تحتها هوام قاتلة. ويحاصرون بعض ما يمشي على أربع من الدواب الصغيرة مثل الوزغ، وما إليه. ركض أحدهم خلف ما ظنه «خصويا» عاديا، وأخذ يركض خلفه ويناوره. وفي مرحلة من المراحل، وقف الحيوان، وكان الطفل مستعدا، فانقضّ عليه بيده الرقيقة، وأطبق على رقبته، ورفعه منتصرا، وخاطبه مخاطبة المنتصر، وأنّبه أنه حاول أن يهرب منه، وكان، وهو يقول ذلك في طريقه إلى الرجل الذي جاء بهم إلى المكان، فلما وصل إليه. ليريه صيده، هاله أن يرى الرجل متجهما، وبهدوء أمر الرجل الطفل أن يمسك الدويبة جيدا، ويضعها على الأرض، دون أن يخفف قبضته عنها. وكان

بيد الرجل مخلب، يحشّ به العشب، فأهوى به على رقبة الدويبة، وجزّ رأسها من رقبتها، والطفل مندهش، فاغر فاه، فأفهمه الرجل أن هذا ليس «خصـويا» وانما هو «بريصي» سامّ وأشار إلى ما وراء رقبته، وقال إن هذا اللون الأخضر هو مخزن السم، ولـو نالك لقضى عليك، ولكنه صغير وكنت أسرع منه فأمسكته. والبريصي يا بُني هو الذي ـ يقال ـ إنه يموّن الحيّة بالسّم إذا قل عندها مخزون السم، فلا تقـترب من هذا وأمثـالـه، ولا تعتمـد على التفريق بينه وبين غيره باللون الأخضر أو الازرق الـذي تراه، فأحيانا لا يرى هذا اللون إلا إذا أثير.

فذهب الطفل، وقد كسب تجربة، فهل تكفيه ليوم واحد، لا ! لقد نفعته، وفقهها، وتمـســك بها فقط تجاه هذا الـنـوع من الحيـوانـات، ولكنه استمر يقلب الحصى، ليرى ما تحتهـا من المستكنّـات الآمنـات،

ورأى تحت أحـدها منظرا جميلا، عددا من الحشرات لا يزيـد طول الواحد عن حجم الإبـرة أخضر أصفـر ناصعـا، له عدد من الأرجــل، وينثني إلى أعـلى من منتصفـه، وهناك ما يقرب من ست أو سبع أو أكثر، فأهوى بيده الرقيقة، وجرفها، ووضعها في راحة يده، ثم أخذ يتأملها، ولكنها ضايقته بوخزاتها الرقيقة، التي اضطر معها أن ينقلها إلى راحة يده الثانية، واضطر أن يحك بعنف راحتـه الأولى، ولكنه سرعان ما احتاج إلى حك الثانية، وهكذا صار ينقلها من يد إلى يد إلى أن وصل عند قريبه، فلما رآها، قال له بهدوء: ضعها جميعها على الأرض، وكان رجـلا قويـا، ورجله رجـل فلاح لم تعرف الحـذاء قط، وكان عرقوبه مثل صرّة صدر البعير من الخشونة، فسحقها بعرقوبه، وقال له: يا بُني، أتدري ما هذه، قال: لا ! قال هذه «شماريخ عقرب» حفنة عقيربات، من

حسن حظك أن أمهن العقرب ليست معهن. ولم تمض إلا دقائق، وانتفخت راحتا الطفل، وأزعجته بالحكّة بقية ذلك اليوم.

لما رأى الرجل عبث الأطفال لم يجد أن مسؤوليته تتسع لتحمل ما قد يفاجئونه به، فقرّر أن يعود بهم إلى المدينة، إلى أهلهم، مكتفيا بما رأوه، وبما أمضوه من وقت، ومؤملا أن ينوّرهم أهلهم عن الصحراء، وما يمشي على أديمها، وما يدبّ على أرضها، وما يختبئ تحت حصاها وفي جحورها، فقد يفيد الدرس بإنقاد حياة أو رفع أذى. وحسنا فعل، يا بُني، فقد يتعرضون «لورل» فيطبق فكّيه على يد أحدهم أو رجله، فلا ينقذه، كما هو متداول، إلا سمن مغليّ يُصبّ على رأسه.

على أي حال، يا بُني، فليس موضوعنا هو الصحراء، ولكننا استطردنا عندما لحقنا بالأغنام والأبقار السارحة هناك. ولنعد أدراجنا إلى المدينة،

فأنا وأنت لا نستغنى عن حكمة الرجل الذي قرر إعادة الأولاد إلى المدينة، فنحن حضر والصحراء، التي كانت مرابع آبائنا، لم نعد نسكنها إلا يوما أو يومين، أو ساعة أو ساعتين، وقد نقلنا لها معنا في السيارة كل معالم الحضارة. فأصبحنا وإياها مثل من ركّب عجلات «بسكليت» على سيارة «كدلك».

ليتك ترى يا بُني، منازل البادية وتقارنها بمنازل الحضر في الصحراء، يقيم البدوي أشهرا، ثم يرتحل، وتأتي في اليوم الثاني، ولولا المعاطن، لما عرفت أنه كان هنا من أقام أشهرا. وتأتي إلى مكان حلّه حضري لساعة أو ساعتين في الصحراء، فتجد كأنه أقام هناك سنة: علب أكل فارغة، وعلب مناديل حذفت هنا وهناك. ومناديل يلعب بها الهواء يمنة ويسرة، وبقايا أكل كوّمت أنواعه حتى تكاد تزاحم التلال حولها علوا، و«حثل» الشاهي، وبقايا الشاهي المحلّى، وقد تجمّعت عليه أسراب من الذباب كما تتجمّع أسراب النسور في أفريقيا على الجيفة. وقد يكونون ذبحوا خروفا، فتجد الجلد،

وقد تجمّعت عليه وعلى الفرث الهوام، فلا يقترب إنسان من المكان في اليوم التالي. وتكاد تحدد ما ترى من البقايا نوع العائلة التي كانت هناك، ومستواها، وعـــدد من كان معهـــا. وإذا كان هنـاك أطفـال فحفائظهم وأوساخهم حتى لتستحي من البدو أن يروا ما رأيت.

نعـود بانحـراف زاويـة مستقيمة إلى البيت في المـدينـة، لأننـا إن طاوعنا أنفسنا في الحديث عن الصحراء فقد نملأ صفحات، ونقضي من الوقت أكثـر مما قصدنا. في البيوت الموسرة تجد، يا بُني، بئـراً، قد حفـرت لأجـل ماء الغسيل والتغسيل، وتتفـاوت الآبار في العمق، وفي مقدار الماء فيها، وبجانبها، يأتي الحسو، وهو قسمان: قسم مفتوح، وقسم مستـور، وغـالبا ما يكون بينهما «قروان»، «قرو» للغسيل والوضوء، وهذا يرتفع عن الأرض نصف متر تقـريبا، والثاني في مكان بارتفاع رأس الانسان أو أعلى قليلا خُصص للسباحة و«التروش».

وبعض البيوت فيها بيت واحد للراحة، يسهل تنظيفه من خارج البيت. وبعضها فيه أكثر من واحد، وقد تصل إلى ثلاثة، أحدها في الدور الأرضي، والثاني في الذي فوقه، والثالث في السطح. وهي شبه متصلة. وأحيانا، خاصة في بيوت الفقراء التي على أطراف المدينة ولها أحواش، يكون المرحاض في طرف من الحوش. وفي هذا صعوبة على الأطفال خاصة في الشتاء. وفي الليالي المظلمة.

والبيوت في الحجاز، يا بُني، تختلف عنها في نجد، ففن المعمار متقدم كثيرا. في المدن مثل مكة المكرمة، البيوت تبنى بالحجر والنورة، ونوافذها من الخشب «المشغول» الجميل، ويكلف البيت مبالغ طائلة، و«المعلم» أو «الستاد» رجل ذو خبرة بالبناء، ويستعمل بعض الآلات الدقيقة للقياس، فتجد الجدار مستقيما لا تلمح العين فيه اعوجاجا. ويستعمل الاسمنت والنورة لبناء «ملاقف» الماء «الحنفيات» في الجدران حتى لا يرشح الماء منها على

الجدار. و«الروشان» يسمح لمن داخل البيت أن يجلس ويرى المارة والباعة، ولايرونه، وتفتح النوافذ بطرق مختلفة. ويمكن أن يشعر الجالس في الدور الأرضي أنه مع الناس في الشارع. مما يوجد مجتمعا لا تجده الا هناك. وقد يختصر «الروشان» بنوافذه وأخشابه، فيقتصر على نافذة أو نافذتين تكونان بروشانيهما مثل الأنف الجميل في الوجه الحسن. وقد يأخذ «الروشان» لائحة كاملة في البيت، وهذا مما يضيف مبلغا كبيرا على تكاليف بناء البيت.

وقد يكون البيت من طابق واحد، وقد يكون من طابقين، وقد يكون من ثلاثة طوابق، وعادة يحتوي الطابق على «مجلس» و«مؤخرين» أو «مؤخر واحد» وهو غرفة المجلس، وعلى حمّام أو حمّامين، أتقن بناؤهما و«تشطيبهما» وفيهما، بجانب الكرسي للمرحاض، حنفية، وقد يكون في أحدهما زير، وبجانبهما أو أحدهما حامل «للشراب» التي يبرد فيها الماء. وفي الطابق الأرضي قد يكون هناك مقعد أو

مقعدان، يجلس فيهما الرجال الزائرون. وقد يكون المطبخ في أسفل البيت، وقد يكون في أعلاه. وهناك «المبيت»، وقد يكون في البيت «مبيتان» وهي أجزاء مسقوفة تطل نوافذها على السطح.

ولكل من هذه المنازل في البيت دور يؤديه، فالمجلس على اسمه للجلوس، وقد يستعمل للنوم، لأن الفُرش تطوى وتوضع في الدواليب التي في الجدران اثناء النهاء، وتفرد وتفترش اثناء الليل. والمؤخر قد تكون فيه «السحاحير» والصناديق، وعُدد البيت المختلفة. وقد يخصص للأكل. أما «المبيت فهو مجلس للعائلة بين الفصول، وفيه توضع الفرش في الصيف تقريبا لفرشها في السطح في الليل. وقد يكون للبيت فناء، وقد يكون هناك غنم تترك فيه، وعادة أهل مكة أن يتركوا أغنامهم تجوب الشوارع، تأكل مما قد تجده فيها، وتعود إلى البيت وقت إطعامها، أو حلبها أو منامها.

سأذكر لك قصة صديق لي، تعود أن

يذهب إلى الحرم المكي ليذاكر، وتعود أن يترك له أهلهُ فانوسا في الدهليز، مدخل البيت، ولعل ريحا هبّت في تلك الليلة، فأطفأته، أو لعل ما فيه من قاز التسريج قد نفذ. فجاء ووجد الباب مفتوحا، والمكان مظلما. ولأنه يعرف طريقه جيدا، أخذ يصعد الدرج، ولم يكن ينقصه بعض الوجل، وفجأة عثرت قدمه بشيء، وأحنى جذعه ليتحسسه، فوجد شيئا خشنا، وجسما يتنفس، وتخيل كلما سمعه عن «الدجّيرة» والجن، والعفاريت، وبدون شعور، وبقوة خارقة أطبق يديه عليه، ورماه من فوق رأسه خلفه، فأخذ هذا الشيء يتدحرج نازلا، وصدر منه ثغاء اخترق سكون الليل، وبه اكتشف أن ما كان يحسبه جنّا، ما هو إلا عنيزة الجيران، رأت الباب مفتوحا فاستجابت له، وكفاها عدّة «زلف» من الدرج، واستكانت في «المربّعة» قبل منحنى

الدرج، وتبين أنه قد كسر أضلاعها، بما فعل.

وما دمنا في مجال قص القصص، وكنت أخّرت إحداها، عندما بدأت أتحدث عن بناء البيوت في مكة، إلى هذا الموضع، فسوف أقص عليك القصة، بعد أن أخبرك أن البناء في مكة، كما قلت لك، بالحجر، وليس باللبن، وقد يكون بالآجرّ، وهو طين خاص مشويّ. والحجر يكيف بالشكل الذي يريده المعلم، ويكون إلى خارج الجدار وإلى داخله، وما بقي من فراغ بين الحجرين يملأ «بجراويل» وهي شذرات ونتف تبقى من «تنقيل» الحجر، وتكسيره ولا يستفاد منها في شيء آخر، إلا في هذه المهمّة، وتختلط معها النّورة «المطفية»، وهي لحمة البناء أو جزء من سداه، فاذا ما قدم البيت، وبدأت النورة تفقد قوتها، ولعل هذا بعد عشرات السنين، أو مئاتها، تسمع صوت تساقط هذه الأحجار داخل الجدار، ويعتبره الناس، «تطريقا» أو إنذاراً بسقوط البيت. فيخليه السكّان. وحدث

أن أجّر أحد الملاك بيته إلى أحد القادمين من شرق آسيا، فلما سمع المستأجر هذا التطريق، جاء للمالك وأخبره. فقال له المالك: «لا تخف، إنما كان هذا تسبيحا، ألم تقرأ الآية الكريمة: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» قال المستأجر: بلى، ولكني أخشى أن تأخذه الخشعة فيسجد».

وبيوت مكة في ذلك الوقت أقل سوءاً من غيرها من ناحية توفّر الشروط الصحية، ولا يعكّر صفو راحة الناس في تلك الأيام إلا كثرة الناموس، والذّباب في بعض المواسم. وإلا فهي تكنس يوميا، وتنظف، وشوارعها كانت أيضاً تكنس، وتضاء، ولم يكن هناك أجمل من أمسياتها، يلعب الاطفال في «البرحات» التي بين البيوت، حتى ينهكوا، و«الكبت» من اللعبات الشائعة والمحببة، وكذلك «المداوين» و«الكبوش».

هذه، يا بُني، البيوت في تلك الأيام، رسمت لك خطوطا عريضة عنها، تمثل ما في نجد وما في

الحجـاز، ورسمت لك الغـالب منهـا على الطابع حينئـذ، وإلا فهنـاك بيـوت تأتي بين هذه وتلك، تركت الحديث عنها حتى لا تمل. والآن آتى معك إلى ما تعـرفه من بيوت هذا الزمن، التي توحدت مظاهـرهـا ومخـابرها، وتنوعت أشكالها وأحجامها وألـوانها، ومـواد بنـائهـا، وكل مدينة تتصف بأن بناءها حديث شيّد من الاسمنت والحديد. وتختلف حسب ذوق المهندس ورغبة صاحب البيت. ولن أبعد في الوصف أو أتعمق، لأنك تعرفها، تعرف العمارة، وما فيها من شقق سواء كانت للسكن أم لاستخدامها مكاتب، وتَعرف البيوت الصغيرة التي لا حدائق لها، وتَعرف البيوت ذات الحدائق، وكان النـاس أول ما بدأوا بتعمـير بيوتهم «مسلحة» أي بالأسمنت والحـديد، يجعلون النوافذ من الخشب والـزجـاج. ثم انتشرت نوافـذ الألمونيوم، فحلت محلها في كثير من البيوت، وأصبحت الستائر مهمة تحجب الرؤية عندما يراد ذلك، وتحجب الشمس عندما لا يراد لها أن تتسلل، ولعبت الحدائق دورا

كبيرا في حياة الناس رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وحلّت في كثير من الأحيان للأطفال محل الشوارع في الماضي، وحسب طقس المنطقة يقبل الناس على الحدائق، ويفضلون الجلوس فيها عن داخل البيوت، إلا أن انتشار المكيفات بدأ يرجِّح داخل البيت عن خارجه، خاصة بعد أن تحسن ذوق الناس، وارتفع مستوى معيشتهم، وأصبحت البيوت مفروشة «بأطقم» كنب يفاخر بها.

وصممت البيوت، يا بُني، كما تعرف حسب حاجة الناس، وعدد أفراد الأسرة، وقد تُغيّر الأسرة بيتها ببناء آخر عندما يكبر الصغار، وثان إذا ما صغرت العائلة بزواج الكبار وانتقالهم. وتوضع خطة للبيت تبين أنواع المنازل: غرف الجلوس، والطعام، والنوم، وصالات الجلوس أيضاً، والمطبخ، والمخزن، أو المخازن، وقد يكون هناك ملاعب للأطفال، وغرف لرياضة الصغار والكبار، ومكتب ومكتبة، وانتشر وضع مسابح في الحديقة أو داخل البيت، وقد يكون في البيت مصعد.

هذه صورة عامة لهذا الجانب، والأثاث يلعب دورا كبيرا في البيوت، ويخضع لأذواق الناس ورغباتهم، وقد تجد بين الناس من يحب أن يغير أثاث بيته بين آن وآخر، وثان بخلافه يبقي الأثاث مدة طويلة. والحقيقة أن هناك اغراء للقادرين على الشراء والتغيير، يتمثل في الأنواع التي يزخر بها السوق، مجلوبة من أنحاء العالم أو مصنّعة داخل المملكة. هذا نوع يعتمد على الخشب، وهذا يعتمد على جمال التنجيد، وهذا تفصيله عملي يصلح لما لا يصلح له الآخر. ويملّ الناس أحيانا الشكل أو اللون فيجددونه بما لم يملوه.

إن القفزة يا بُني كبيرة بين اليوم والأمس في هذا المجال، ولعلك تسبقني إلى حمد الله وشكره على نعمة ترفل في سرابيلها ضافية سابغة، أحمد الله أن جعلك في بيت تسمع الرعد وترى البرق فلا تخاف أن يخر عليك السقف في وسط الليل من فوقك، أو يجرفك السيل من تحتك، أو يهدم عليك البيت. وأحمد الله أنْ لا غبار يتجمع من بناء البيت بالطين.

وأحمد الله على «كنب» مريح ، ومائدة جميلة تهيء لك أكلا هنيئا . وأحمد الله على سرير مريح ، لا تحتاج إلى نشره في المسـاء وطيّـه في الصباح . وأحمد الله على مطبـخ لا يعمي الطابخة بالدخان ، ويتلف نظافة ثيابها بسواد القدور . وأحمد الله على الصابون بعد الاشنان ، وأحمد الله على الحذاء بعد الحفاء ، وأحمد الله على ثوب كأنه جديد غسل بآلة وبمواد تقضي على الوسخ ، وبآلة للكوي تجعله مستقيما «منبلدا» بدلا من «المعفط» و «المكرمش» .

وأنت إذا تحمد الله من سويداء قلبك تؤدي زكاة النعمة ، وهذا من وسائل نمائها . وسأسمعك بعض ما لم تسمعه عن النعمة وشكرها من قبل ، علّها تحفر في ذاكـرتـك ما ينفعـك عنـدما يأتي الوقت لذلك ويوصلك التبصّر إلى أهمية الشكر .

أي بُني ، قيل : «النعم إذا شكرت قرّت ، وإذا كفرت فرّت»(١) . وهو قول صحيح وجميل .

---

(١) محاضرات الأدباء ١٤٩ .

وقيل يا بُني، «الشكر نسيم النعم»[1]. وقيل: «النعمة وحشية فاشكلوها بالشكر». أي انها غير أنيسة فقيدوها بالشكر، فتأتي طوع أمركم.

يقال يا بُني، إن أبا جعفر المنصور بعث إلى شيخ من بطانة هشام بن عبدالملك فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله. فأقبل الشيخ يقول: «فعل، رحمه الله، وقال يوم كذا، رحمه الله». فقال المنصور: «قم، لعنك الله، تطأ بساطي، وتترحّم على عدوي». فقال الشيخ: «إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي، لا ينزعها إلا غاسلي». فقال المنصور: «إرجع إلى حديثك فاني أشهد أنك غرس شريف وابن حرة»[2].

فانظر، يا بُني، ما عرّض نفسه له هذا الشيخ، ليشكر نعمة رجل، لو لم يشكره لما درى أحد، وهي نعمة منقطعة في نظر الناس، ولعل شكره لها وصلها فيما بعد، فابن الحرة لا يفرط المنصور بأمثاله.

(١) محاضرات الأدباء ١٤٨.
(٢) محاضرات الأدباء ١٤٩.

الأمن والخوف

أي بُني !

المجتمعات تسعد مثل الفرد وتشقى، وأحد أسباب سعادتها انتشار الأمن في ربوعها، وأحد أسباب شقائها ارتفاع الأمن من ربوعها، وحلول الخوف والذّل مكانه. وفي ضوء الأمن، وفي ظلاله، تزدهر حال المجتمع، وينتعش، ويتقدم ويتطور، وعند انعدامه ينكمش المجتمع ويتقوقع، ويجدب ويتأخر.

والأمن، يا بُني، أحد أركان وجوده وبقائه العدل، وهو مقياس ربّاني، إذا ساد وسيطر اعتدلت الأمور ووزنت، ولم يطغ جانب على جانب، ولم تختل المعايير، وإذا حل محلّه الحيف والجور اختلطت الأمور، وأصبح من الصعب إيجاد قواعد يحكم بها.

افتقد الناس الأمن، يا بُني، في فترة من فترات

تاريخ الجزيرة العربية، لعدم وجود من ينشر العدل، ويؤمن الاستقرار، ولم يعد كل فرد يعرف حقه: العدل الذي يأخذ الحق من الكبير للصغير، ومن القوي للضعيف. وساد وقت أخذ القوي ما له وما لغيره، وضاع حق الصغير والضعيف. وأصبح حكم الغاب هو الحكم المسيطر. وزاد سوء الحال فلم يعد الأمر نزاع فرد مع فرد وإنما مجتمع مع مجتمع، وفئة مع فئة: فالبادية مع الحاضرة، والقبيلة مع القبيلة، والمدينة مع المدينة، والقرية مع القرية، بل الحيّ أحياناً مع الحي، والعائلة مع العائلة. وأصبح الأمر اعتداءً ورد اعتداء، وغارة وثأراً، وطمعاً وكسبا. تربّص مستمرّ، وفزع دائم، وخوف لا ينقطع. ورجع الناس إلى عصر الجاهلية تقريبا، ولم يعد الدِيّن يَزَعُهُم، ولا الحياء يردعهم، وقلدوا الجاهلية حتى في تخصيص أوقات للهدنة مثل الأشهر الحرم، فهناك المصافاة المؤقتة لفترة الربيع والرعي، ثم «ردّ النّقا» ورجوع حالة الحرب بعد أن تنتهي الفترة، ويعود العراك إلى سالف عهده،

ويتناطح الفخذان، وتعترك القبيلتان، وتطّحن الفئتان، ويفنى الخلق. كل هذا نتيجة الجهل والطمع، وليس هناك رجل رشيد. وقد تخف وطأة الأذى في جزء ما نتيجة وجود حاكم حازم، ولكنّه لغيره مخيف، ولم يسيطر على قومه إلا لأنه لهم وبهم يغير على الآخرين، والأمر مجرد تنظيم داخلي بينه وبينهم.

وبقي الأمر كذلك، العدل معدوم، والأمن لا يعرف. لا يستطيع التاجر أن يسافر بتجارته إلا إذا حماه جيش، أو إذا أعطى القبائل التي يمر بها بتجارته ما يشبه الجزية، ليحموه حتى يمر بديارهم سالما، ثم يدلف إلى أرض قوم آخرين يفعل معهم ما فعله مع من قبلهم. ولا يبقى له بعد ذلك من مكسب في تجارته إلا ما يقيته هو وأولاده، وتجارة ضئيلة، يحددها قدرة عدد من الجمال على الحمل والسير، ويحكمها طول المسافة وخوف الطريق. ويقتصر ما يتاجرون به على الأمور الضرورية من

معيشة وكساء، وما يحتاجونه من مسكن يؤوي من حرّ وقرّ.

ولهذه الحال من الحرب الدائمة، والخوف المستمرّ، والتوقع من حدوث أسوأ ما يمكن، أحيطت البلدان بالأسوار، وأقيمت البوابات القوية الصّادة. واقتضى الأمر، حتى لا تزيد مؤونة السّور عن الطاقة، أن تصغر البيوت، وتتقارب، وأن تصغر الشوارع وتضيق، مما جعل الحياة عسيرة، والحالة الصحية الجيدة غير متوفرة. ونتج عن هذا علل وأوبئة فتكت بالناس، وأضوت أجسامهم، فجاءت عليهم ضغثاً على إبالة، وزادت الطين بلّة.

وكان التنافس على الحكم على أشده في المدن، وبين بعضها وبعض، وأحيانا بين عائلة وأخرى، وأحيانا أفراد عائلة واحدة يقتل الواحد الآخر، ليستولي على ملكه الذي لا يستحق أن يسمى ملكا لضآلته، وقلة مردوده، فقوامه نخيلات يأخذ زكاتها أو يغمط أهلها حقهم فيها.

بعض الكتب التي كتبت، يا بُني، عن هذه الفترة وصفت شيئا من هذا، ولكنها أعطت صورة عامة لبعض الجوانب. ومن أجمل الصور المرسومة لما كان يقاسيه الفرد والجماعة من ذلّ وخوف، وتعرض لأسباب القتل والنهب والسلب، ما كتبه الشيخ محمد بن بليهد في نهاية كتابه القيّم: «صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار». فارجع إليه. ولا تقل إن هذه حيلة مني احتلْتُ بها عليك حتى ترجع إلى كتاب دسم لا يمكن أن ترجع إليه إلا بطريقة مغرية. والحقيقة التي سوف تغريك فعلا أن هناك قصصا فيه سوف تعجبك، ففيها بعض المظاهر التي يميل إليها جيلك، وعندما تقرؤها سوف تعرف قصدي.

أي بُني !

ان صورة الماضي في جزيرة بلاد العرب لم تكن مشرقة في فترات مرّت، حينما ضعف الوازع الديني، وغابت اليد الحاكمة العادلة القوية.

والقصص التي تروى يشيب لها الوليد. ومع هذا فكان الناس يجازفون ويركبون الخطر، لأنه لا محيص لهم من ذلك. والجوع وطلب المعيشة والرزق كل هذه العوامل كانت تجبرهم على ارتكاب الأخطار، و«تحدّهم» عليها. سبق أن وعدت أن أقص عليك قصة أحد أقاربك، وكان فقيرا نوعا ما، ويذهب سنويا تقريبا إلى الحج، يحج عن بعض الناس غير القادرين، أو الموتى، مقابل جعل يجعل له. وكان يسلك طرقا يؤمل ألا تكون مما يتردد عليه قاطعوا الطريق. وفي ليلة من الليالي المقمرة، وقد تكون منتصف شهر القعدة، نام متوسّداً يد ناقته، كما هي العادة، زيادة في الاطمئنان، حتى لا يأتي من يجفلها، فتهب واقفة، ثم تذهب جريا على وجهها مما لا يمكنه من الامساك بها، فيبقى وحيدا في البر، وغالبا ما يكون مآله الهلاك. والمفزعات لها كثيرة، «فرق» طير يفرّ فجأة، ذئاب تخيفها أو ضباع، ولكن الخوف الأكبر هو ما قد يأتي من قاطع الطريق الذي يأتي متلصّصا

فيفكّ عقالها، ويذهب متسللا بها.

نام الرجل، وكان مجهدا، ولعل الوقت كان شتاء، وراح في نوم عميق، وفجأة أحسّ كأن أحد ضربه بسوط على الغطاء الذي كان يتغطى به، وكان سميكا ولعله من نوع «المضرّب» أو «اللحاف». فرفع رأسه بهدوء، ونظر حوله في ضوء القمر، فلم ير ما يريبه، ورأى الناقة تجترّ هادئة لم يزعجها أمر، وخشي أن يكون هناك لصّ أخذ مكانه مختبئا خلف الناقة، فقام ويده على زناد بندقيته، وبحذر نظر خلف النّاقة فلم ير شيئا، فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتأكّد أن ما أحس به كان حلما لا أثر له في اليقظة. وعاد لينام، وهو يقرأ آية الكرسي، ويردد بعض الآيات من القرآن. لم يخطر بباله شيء، يا بُني، غير ما يوجب الخوف عادة حسب ما يعرفه في تلك الأيام عن طبيعة الصحراء، وما فيها من تعدّ وشرّ.

دخل في فراشه، وأخذ طرف الغطاء ليضفيه على جسمه، فأحس أنه أثقل مما هو عادة، فنظر فإذا حيّة قد عضّت «المضرّب»، مغمى عليها، إما من شدة البرد، أو من أثر السم الذي أفرغته في «اللحاف». ويبدو أنها جاءت وتدفّأت بين طيات اللحاف، فضغط عليها في إحدى تقلباته وهو نائم، فآذاها، «فقرصت» اللحاف الذي كانت حرارة جسم الرجل قد تخلّلته، ظانّة أن اللحاف جسمه. فقطع رأسها، وبقي أثر السم عددا من السنين يراه الرائي في اللّحاف.

هذه، يا بُني، قصة مما يرويه آباؤنا عما يلاقونه من الخوف والرهبة والعناء والمخاطرة في الماضي. ولكنّ طلب المعيشة يجبرهم على ركوب الأخطار، وتعريض حياتهم للهلاك. هذا الرجل أو أمثاله، يا بُني، لو أن الحيّة لدغته وهو نائم ومات في هذه البريّة، وجاء الصباح وجاعت الناقة وعطشت فتركته، فبقي أهله يجهلون مصيره، وقد يأتي في

ذهنهم أنه قُتل على يد قطاع طرق، قاومهم فقضوا عليه.

وسبق أن أشرت إلى قصّة فيها مظهر من مظاهر الخوف مما يفعله قطّاع الطرق في الماضي في الصحراء، عندما ذكرت قصة الهندي الذي كان قادما للحج وكاد أن يهلك لولا أن تداركه الله بلطفه، فأرسل له من أنقذه. وذكرت لك فيها كيف أن هذا المنقذ ومعه صَحبهُ رأوا ضوء نار من بعيد، وخافوا أن تكون نار قطاع طرق، وتبين أنهم قوم من جماعتهم ومن مدينتهم. هذه صور تسمعها كثيرا.

والحديث، يا بُني، عن انعدام الأمن في المشاعر في زمن مضى يطول، ولكني سوف أذكر لك هنا قصة تريك جوانب من عناصره، منها تستطيع أن تأخذ فكرة واضحة عن هذا الانعدام في حقبة من حقب عهد مضى.

كان هناك سارق نشط، يزيد نشاطه في أيام

الحج، وفي منى بالذات، حيث يسطع نور القمر، فيساعده على اختياره ضحاياه من الحجاج، وعجز حاكم مكة، وهو أحد الأشراف المعينين من قبل الدولة العثمانية. وأصبح لهذا اللص شهرة، ونسجت حوله القصص، وتدوولت الحكايات، وصار الناس يتتبعون أخباره، وآخر مغامراته. يزيدون في رواياتها أحياناً، ويوسعون مجالاتها أحيانا أخرى. ولعل ما يسمعه اللص عن نفسه من الناس ينير له طرقاً جديدة، تهديه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى نفوسهم.

وفي إحدى السنوات، وبينما كان الشريف يستقبل المهنئين بعيد الأضحى المبارك، وإذا باللص مندس بينهم، ومدّ يده للشريف، وهنأه، وأخبره باسمه، وأنه جاء مسلّما وتائبا، ووراء توبته قصة، وفوق فرح الشريف بتوبته، وانقطاع أذاه للحجاج، فقد اشتاق إلى سماع القصّة التي كانت خلف توبة هذا اللص العريق العاتي المراوغ، الذي كانت سمعته تطغى على سمعة الشريف، ولا تخلو

في تناقلها من نغمة إعجاب. وكان الشريف ينتظر انتهاء سلام المهنئين ليستمع إلى القصة.

فلما انتهى المهنئـــون التفت الشريف ورجـــال الامارة، وكبار الضيوف من الحجاج، إلى اللص، وأخذوا يستمعون بدهشة وانبهار إلى ما كان يقصّه، ومـا يأتي به من دقـائق وتفصيـل عن الحادثة التي أدّت، بتوفيق من الله، إلى توبته.

قال اللص: تعــرفـون عادتي في أيـام الحــج، واستعـــدادي لسرقـــة الحجـاج في منى، بعـد أن يأخـذهم التعب فينامون، وأنا أرقبهم من أعلى الجبال المطلة على «منى». مستفيداً من نور القمر في ليـــالي التشريق، فإذا حانت لحظات الانقضـاض استهـديت إلى خيـامهم بهذا النـور الفضي الذي يملؤني ثقة واطمئنانا، فأنقض على الفرائس واحدة بعـد الأخـرى، ثم أتقهقـر إلى الجبـال، حصنى المنيع، ومملكتي المحمية.

وليلة العيـد، البـارحة، وبينما كنت مقعيا على

صخرة أرقب الحجاج عائدين من مزدلفة، وأوائلهم قد حطت أحمالها، رأيت شخصا، يصعد الجبل بصعوبة، يحمل حملا ثقيلا، ينوء بكتفيه، فجذب انتباهي، ورأيته يتجه نحوي، فاختفيت، وتقهقرت إلى غارٍ خلفي، فجاء ورمى حمله أمام الغار، فرأيت الحمل فإذا هو شخص ميّت، ورأيت الرجل، فإذا هو «جثل» مخيف، فخفت أن يسمع نفسي الذي أثاره ما رأيت. وأخذت أرقبه، فأوقد ناراً، ثم استلّ سكينا من جنبه، وأخذ يقطع من أفخاذ الضحيّه ويشوى، ويأكل، فدارت بي الدنيا، وفقدت وعيي للحظات، وعدت إلى وعيي، وأخذت أفكر في الأمر، وخفت أن يفتضح أمر وجودي، فيقتلني، إن عرف أني عرفت أمره. فقررت قتله، وأخذت أزحف، وأقترب منه، وفؤادي يخفق، ونفسي يتلاحق، ودمي قد غار، ويدي ترتجف، فلما وصلت إلى مكانٍ يصل مدى يدي إلى خاصرته، وكان في يدي خنجر حاد، يقطع الحجر، قد سللته وأعددته، فاثبته بكل ما أعطاني

الله من قوة في جنبه، «ومرعت» جنبه، شققته شقّاً يقرب من ذراع «فانجعف» فسقط على جنبه، ولم يحتج مني إلى أكثر من ذلك، فتنفست الصعداء، وأحببت أن أتـأكـد أنـه مات، فقلبته على ظهره، فكانت المفاجأة الكبرى، لم تخطر لي على بال، ولا يمكن أن تخطر على بال أحد.

لقد اكتشفت أنه امرأة لا رجل، كما تراءى لي في أول الأول، لجهامته، وغرابة عمله، وشناعته. لقد رأيت ثدييها وقد تدليا من صدرها على بطنها كأنها القـرب، فغشيني أمر ركم على صدري من هول المفاجأة، ومن شناعة الفعل. وأحسست أن الجبال تدور من حولي، وغشيت عيناي سحابة مسحت المعالم أمامي، وبقيت لحظة، وأنا لا أدري أفي حلم أنا أم في يقظة.

ثم عدت إلى وعيي الكـامـل، وما لبثت حتى تجاوب المؤذنون لصلاة الفجر، فنزلت من الجبل، وتوضأت وصليت مع الناس، واستقبلت القبلة،

وتبت إلى الله بعد أن فتح عيني على ما في هذه الحياة من أهـوال يتعرض له عباده، أنا سبب في جانب منها. وأرجوا أن يغفر الله ما تقدم من ذنبي، وأن يسدّد طريقي في المستقبل.

ثم دلهم على الغار الذي تحدث عنه، والجريمة التي ارتكبت أمامه. وتاب فكان من خيرة الناس، ومـن مســاعــدي السلطة على خارقي النــظام، والمحاربين للأمن.

ولم يكن بيت الله الحرام، يا بُنيّ، وما جاوره من المشـاعـر يسلم من الاخـافـة لقصّـاده، وضيوف الـرحمن، ومن الأمثلة الـطريفة على ذلك أن أحد الحجاج قد نصب طعامه في قدره على النار، وأعطاه ظهره، واستقبل القبلة، وأخذ يلبي «لبيك اللهم لبيك» فانقض «الحنشولي» السارق ومرّ من أمامه فقال: «لبيك اللهم لبيك» وانشال عشاك من بين ايديك» واختطف القدر وهرب!

وثانٍ، يا بُنيّ، كان يلبيّ، سائراً إلى أحد المشاعر

يحمل ما يملك على رأسه، فجاءه عدو الله، وهو سائر يلبيّ: «لبيك اللهم لبيك» فضربه بمشعاب، وأكمل الجملة: «لبىّ لك مشعاب بين كتفيك» واختطف «البقجه» و «فصّ ملح وذاب».

هذا كله، يا بُنيّ، تغيّر بعد أن استتب المُلك للملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ والملك عبدالعزيز قام ليستعيد ملك آبائه الذين نشروا العدل يوم حكموا، ووطدوا الأمن في وسط الجزيرة العربية وشرق المملكة وغربها وجنوبها وشمالها. ودانت لهم المدن المتنازعة، والقبائل المتطاحنة. كان زمن آبائه زمن ازدهار ورخاء، أمنت السبل، وهدأت الأحوال، وسلكت الطرق، وسارت القوافل، وأمن الحجاج. وأحيوا سنّة الرسول عليه الصلاة والسلام في الحكم، ووحّدوا من الجزيرة أجزاء لم تتوحّد من قبل، ولم تتقارب، ولم يكن بينها من الوئام والصفاء ما صار في زمنهم.

كانت تجربة فريدة وعميقة، لا تقتصر عظمتها

على ما جاء بسببها من أمن واستقرار ورخاء، ولكن في أنها برهنت على أن أيّ حكم يكون إطاره الإسلام، ويكون القائمون عليه أرادوا بهذا وجه الله، ونيّتهم في هذا صافية، لابد أن ينجح، وهو برهان ساطع لأنّ الدليل ماديّ ومرئيّ وملموس، ووصلوا من القوة إلى ما جعل الدولة العثمانية، بقوتها وجبروتها وسلاحها الحديث، تبقى أكثر من ثمانية أشهر عاجزة أن تحتل عاصمتهم الدرعية، التي قاومت، رغم ضعف إمكاناتها، مقاومة الأبطال، ولم تستسلم إلا بعد أن أجبرت المحاصر أن يقرّ لها ومن فيها برجولة أهلها، وعمق إيمانها.

جاء الملك عبدالعزيز، يا بُني، وهو مؤمن بما هو مقدم عليه من إعادة مجد الإسلام في هذه الجزيرة، محميًا بحكم عادل، تزدهر البلاد بسببه كما سبق لها أن أزدهرت، وأخذ يستعيد الأرض شبراً شبراً، ترحّب به بقعة وتقاومهُ أخرى، تقدر له ولآبائه سابق حكمهم فئة، وتؤمل أن يكون لها من الأمن والدعة ما كان لآبائها مع آبائه، وتقاومه فئة، حفاظا

على مكاسب مؤقتة إكتسبتها في غفلة من صاحب الحق. وكان الرجل (الملك عبدالعزيز) عبقريًا في تفكيره، عبقريّا، يا بُني، في تصرفاته وعمله، عبقريًا في بعد نظره، كل شيء محسوب عنده على أساس أن الملك القوي يستحق الجهد في كل شيء، في التفكير، وفي العمل، وفي التحمّل، وفي الصّبر، وفي التسامح، وفي الكرم، وفي العطف، وفي الحنان، وفي الحزم، كان يضع كل شيء في موضعه. ونجح يا بُني، في استعادة ملك آبائه، أتدري لماذا، يابُني؟، لأن نيّته كانت طيّبة مع الله، ثم تجاه رعيته المقبلة.

كان يريد أن يحكم ليضمن لهم الخير، وليبعد عنهم الشّر الذي كان يرعاهم من قبل رعي الدابة للزرع. عاصَر، يا بُني، الرعب الذي كانت تعيش في حرّه الجزيرة، رأى الدماء البريئة تراق، رأى القويّ يدوس بقدمه على الضعيف ظلما وعدوانا. هذا جعله يصمم على أن يفعل ما في جهده ليقضي على كل ذلك. وما كان الأمر سهلا، يا بُني. ولكنّ

الله مهّد له الطريق لما عرف من حسن نيته وسلامة قصده.

أبناء جيله، يا بُني، عرفوه حق المعرفة، وتعاونوا معه، رأوا فيه وسيلة الانقاذ التي أرسلها الله لهم، ليلتفوا حولها، فاستماتوا في نصرته. فعرف لهم هذا وقدره، وعطف عليهم وأغلاهم، ولهذا، يا بُني، لم يكن يدخل معركة، خوفا عليهم، إلا إذا أرغم. كان يحاول ما أمكنه أن يستسلم عدوه دون حرب، يغالي في هذا إلى الحد الذي جعل بعض من لا يعرفه يظن أنه يحجم ويفاوض خوفا وجبنا، ولكنهم تأكّدوا من خطئهم عندما رأوه، عندما يجبر على دخول المعركة، يبرز في مقدمة الصفوف يصول ويجول، لا يهاب الموت، ولا يخاف الردى، ولا يتوانى في الاقدام. مرّ به من هذه الحروب ما يشيب لهولها الولدان. كانت بعض هذه المعارك تنتهي بما يؤلم الصديق ويفرح العدو. ولكن الله يتداركه بفضله فيعوضه بما يفرح الصديق ويكبت العدو. حياته تاريخ، وحروبه من الأساطير، لما فيها من

الأعاجيب. قلت لك إنه عبقري، وإلا كيف يتهيأ له أن يجعل من عدوه اللدود بالأمس أحد أصدقائه وجلسائه وموظفيه اليوم. لولا الثقة بالله، والاطمئنان إلى ما يتخذه من تصرفات. أعداؤه سعدوا في خدمته أكثر مما كانوا من قبل وهم حكام وزعماء قبائل. وجدوا في ظلّه الطمأنينة وراحة البال، وزن مقاماتهم عنده بميزان دقيق، ساعد على إتقانه طبع جبله الله عليه، وتجربة أحسن الاستفادة منها. سوف يبقى عهده مادّة يصول فيها المؤرخون والمحللون ولا يصلون بسهولة إلى عمقها. وما دوّن منها قليل، قياسا على ما لم يدوّن، ولا يزال في رؤوس الرجال أو في ثنايا الوثائق والمكاتبات الشيء الكثير.

قلت لك، يا بُني، إن النيّة الطيبة عنصر في نجاحه، رحمه الله رحمة واسعة. والآن، يا بُني، أقصّ عليك قصة من الأدب القديم، تبيّن لك مدى تأثير النية في عمل الناس:

روي أن أبـرويـز، ملك الفرس، نزل عنـد امـرأة متنكـرا، وكـان عنـدها بقرة، فحلبت له منها حليبا حتى شبع، فسأل المرأة عما يأخـذ الحـاكم سنـويا عن هذه البقرة. فقالت: «يأخذ درهما واحدا». فسألها: «أين ترتـع البقرة؟» فقالت: «في أرض الملك». فقـال: «وبـماذا تستفيـدين منها؟» فقالت: «تقيتني وتقيت أبنـائي». ففكّر في نفسه أن يرفع الإتاوة التي يأخذها الحاكم مقابل رعيها في أرض الـدولـة. فلما حل موعـد الوجبة الثانية، وأرادت أن تحلب له رأت أن الحليب قلّ وارتـفـع في ضرع الـبقـرة، فشهقت وقــالت: «إن الملك هَمّ بجَـوْر» فقـال: «كيف؟» قالت: «إن الحليب قد انقطع من ضرع البقرة، وإنه لا يقضي على الخصب في الزرع، والدّرّ في الضرع إلا سوء نية الملك. ونيّته الحسنة وعدله سبب في خصب الزمان، وامتلاء الضرع بالألبان». فأقلع أبرويز عما

نوى. بعد أن رأى بعينه، وفي وقت قصير، ما سبّبه سوء نيته. وكان يقول بعد ذلك: «إذا هم الحاكم بالجور نزعت البركة، وإذا جار حلّ البلاء»[1].

هذه قصة تروى عن النية في الجور، وإليك قصة أخرى جميلة، تريك، يا بُني، جانبا آخر من العدل، وما يأتي به من ضياء في النفوس، وحسن في العمل، وجلب للخير، وإبعاد للشر، فهو ظل ظليل، ووقاء دفيء ساتر:

يُروى أن كسرى أنوشروان كان من أعدل ملوك الفرس، شهد عهده عدلا وازدهاراً وخصباً ورخاءً، وضرب الناس بعدله المثل. وبلغ من حبه للعدل والانصاف أنه وضع على باب قصره حبلا طرفه عنده فوق، فيه جرس، فإذا حرك أحد الحبل رنّ الجرس عند كسرى. فينظر في أمر من حرك الحبل، في أي وقت من النهار أو

(١) محاضرات الأدباء ٦٧.

الليـــل، ولا يطمئن إلا بعـــد أن ينـظر في شكـوى الشاكي، والاستجابة للمستجير. وقضاء حاجة المحتاج، وردّ ظلامة المظلوم، والعطف على المنكوب.

ورنّ الجرس ذات يوم، فأرسل كسرى الخادم ليحضر إليه محرك الحبل. فلما ذهب الخادم لم يجد أحدا. فعاد فأخبر سيّده، ولكن الطارق ما لبث أن عاد وحرّك الحبل، فذهب الخادم وعاد مثل المرة الأولى، مخبرا أنه لم يجد أحداً لدى الباب. فقال له سيده: «إجلس في مكان لا يراك فيه الطارق، بحيث ترى أنت طرف الحبـل والـذي يحرك الجرس». ففعل الخادم ما أمره به سيده، ولشدة دهشته رأى أن الذي يحرك الحبل حيّة، كانت تأتي وتجـرّ طرفه بفمها، ولصغر حجمها، ولأن الخادم لم ينظر إلى الأرض في المرات الأولى، لأنه كان يتوقع أن الذي يجر الحبل إنسان، فلم يرهـا. ذهب الخـادم وأخبر كسرى بما

رأى، فقال له: «إتبعها، فلعلّ لها شكوى».
فذهب الخادم خلفها، وقادته إلى حقل بعيد عن العمران مهجور، ليس فيه زراعة، ودخلت جحرها، وأخرجت صغيرا لها، قد اعترضت خشبة صغيرة في فمه، فأخرج الخادم بلطف الخشبة، وعاد إلى سيده، وأخبره الخبر، فحمد الله كسرى على أن أقدره على إزالة الشكوى حتى عن الهوام.

وفي اليوم التالي جاءت وحركت الجرس، فلما نزل الخادم وجد أنها أحضرت كوزاً من الذرة، ولكن الحبوب من اللؤلؤ أو ما يشبهها من الأحجار الكريمة، وليست مركّبة وإنما نمت نمو النّبات. وفيها جمال منقطع النظير. فتعجب كسرى، وطلب «الصّاغة» الذين يصنعون المجوهرات وسألهم إن كانوا يعرفون شيئا عن هذا الكوز أو أمثاله. فقالوا إنهم لم يروا مثله من قبل. فطلب أن يؤتىَ له بالمعمـرًين، فأتي بأحدهم، فسأله

كسرى إن كان قد رأى شيئا مثله أو يعرف عنه شيئا. قال نعم: «أذكر أن جدي يروي عن جده، أن هناك رجلا باع أرضا زراعية على آخر، فلما حرثها المشتري وجد بها كنزا كثيرا ثمينا. وكان أمينا، فأخذه إلى البائع، وقال: «إني وجدت هذا الكنز في المزرعة التي اشتريت منك، فخذه»، فأبى البائع أن يأخذه، وقال: «إنّه لك، لأنك أنت الذي وجدته في مزرعتك، ولو أراده الله لي لأخرجه على يدي عندما كانت المزرعة لي».

فقال المشتري: «إني اشتريت أرضا فقط ولم أشتر أرضا فيها كنز. فالأرض لي والكنز لك». فأبى البائع، فاتفقا أن يذهبا إلى محكّم. فاستفهم منهما المحكم هل لهما أولاد، فتبين أن أحدهما له ابن والآخر له بنت، وسنهما متقاربة. فاقترح عليهما أن يزوجا الولد بالبنت، وأن يكون الكنز صداقا. وتمّ ذلك. وكان حلا موفقا ولما زرع المشتري

الأرض زرعها ذرة، فبدلا من أن تنبت الأرض ذرة نباتية كالمعتاد، أنبتت ذرةً لؤلؤاً وجواهرَ. وباع منها صاحبها ما جعله أغنى رجل في المدينة. وذلك لحسن طويته وسلامة نيته، وبعده عن الأثرة، وحب النفس وتفضيله غيره على نفسه.

ومثل هذه الأمور، يا بُني، تتكرر بين الطيبين من الناس، هناك رجل معروف عند جيل جدّك. استلف من رجل ستة جنيهات من الذهب، وقيدها صاحبه دينا عليه. ولما يسّر الله على المستدين ذهب إلى صاحبه ليسدّد الدين، ففتح الرجل دفتره ليمحو منه الجنيهات المقيّدة فيه. فوجد أنه سبق أن محاها، فقال للمستدين: «خذ جنيهاتك، فإنك سبق أن سددتها» فقال له المستدين: «إنني لم أسددها». فقال صاحبه: «بلى. إني لا أمحو شيئا إلا إذا سدد، وهذه قد محوتها، وهذا يعني أنك قد سدّدتها، وأنا لا أقبل أن

آخـذها منك مرتين». وحاول المستدين أن يقنعه بأن هذه ست جنيهات ذهباً، وأنه لم يوفـرها إلا بشق الأنفس، وليس تسديدها بالشيء الذي يمكن أن ينسى، إلا أن صاحبه أصرّ على موقفـه. فذهبـا إلى رجـل علم، نصحهما أن يتقاسماها وأن يتصدّق كلّ منهما بقسمه.

وقصة أخرى شبيهة بهذه: إشترى رجل «كـورجة» طاقات من القماش، فلما فتحها وجـدهـا واحـدة وعشرين «طـاقة»، فأخذ «الـطاقـة» الزائدة إلى البائع وقال له: «إني وجدت طاقة زائدة عن الكورجة التي عادة تكـون عشرين طاقـة، فخـذهـا لأنها لك وليست لي». فقال الآخر: «بل هي لك فأنا بعتك الكورجة مقفلة بما فيها، فهذا رزق ساقـه الله اليك، وأنا لم ينقص مني شيء». فقال المشتري: «هي لك، لأني لو وجدت الكـورجـة ناقصـة لجئت إليك لتكملها».

فقال البائع: ولكن الأمر يختلف، فأنت لم تجد أنها ناقصة بل وجدتها زائدة». ولم يصلا إلى نتيجة فذهبا إلى من اقترح عليهما أن يتصدقا بهذه الطاقة الحائرة بينهما ففعلا كما قال.

هاتان، يا بُني، قصتان واقعتان، وليستا خياليتين مثل قصة كسرى. وإليك يا بُني قصة أخرى وقعت أيضا:

كان هناك رجل وابنه مشتركان في بستان به نخيل، وكانا يقتسمان الثمرة كل عام بالتساوي بينهما. ففكر الشاب في سنة من السنوات في العمال الذين يقطفون الثمرة. ورأى أن يجعلهم يقطفونها في رمضان في النهار حتى لا يأكلوا منها شيئا وهم يقطفونها، أو وهم يحملونها إلى بيته. وراح يعرض الفكرة على والده، فلم تعجب الفكرة والده، وقال الأب: «إنهم يعملون

فلا أقل من أن يأكلوا، وما يأكلونه شيء لا يذكر». فأصرّ الولد على رأيه، فقال الوالد: «إذن اقسم الثمرة الآن، واقطف قسمك في رمضان كما ارتأيت، أما قسمي فاتركه». فقسم الولد الثّمرة، وجاء لوالده ليختار أحد القسمين. فقال لابنه: «أنت قسمت وأنت اختر». خلافا للقاعدة، لأن العادة أن أحدهما يقسم والآخر يختار. ولكن الأب لم ير أنّ بينه وبين ابنه ما يوجب تطبيق القاعدة العامة. فاختار الإبن، وحمل الحمّالون ما قطف من الثمر وأوصلوه إلى بيت الابن دون أن ينالوا منه شيئا. فلما انتهى شهر الصيام، وعيّد الناس وانتهوا، جاء الوالد بمن قطف الثمرة وحملها إلى بيته، ولم يمنع الرجل الحمالين من أكل ما يشتهون. فامتلأت داره بما جلب لها، مما جاء، أضعاف ما حمله ابنه، ولما رأى ابنه هذه الكميات المتراكمة إدعى الغبن، فضحك والده، وقال: «كيف تدّعي

الغبن، وأنت الـذي قسمت، وأنت الذي اخترت؟»، وقال له والده: «إن السبب في هذه الزيادة، يا بُني، أني اقرضت الله قرضا حسنا فضاعفه لي، أطعمت من صاموا طاعة له وتعبدًا. أما أنت فلم تقرض ولم تقبض، وحـرمت عبـاد مَنْ أطعمـك مما أطعمك. و«النيّة يا بُني مطيّة».

أرأيت يا بُني كيف صارت النيـة «بـوينـج» فأوصلت صاحبها إلى ما قصد على بساط من الريح وثير، وحرمت النية السيئة والأثرة صاحبها من خير عميم، وأبقته على حشف وسوء كيل. نسأل الله السلامة.

أبعدنا، يا بُني، ولا أبعدنا، فالنية الحسنة التي كان يضمرها الملك عبدالعزيز كانت سببا في وصوله إلى الهدف، لأنها دائماً في ذهنه، تمنعه من أن يجور، وتمنعه من أن يبخل، وتمنعه من أن يقسو، وتمنعه من أن يتبـاطـأ فيـما يجب فيـه السرعة، وتمنعه من أن

يتراخى فيما يجب فيه الحزم. والأمور، يا بُني، كلها بالميزان، وسبق ان حدثتك عن الميزان إذا اختل بين العقل والعاطفة، وسأقص عليك هنا قصة تريك كيف يختل الأمر عند الحاكم الذي لا يفرق بين الحزم والقسوة، وبين اللين والضعف:

كان هناك حاكم من حكام المماليك في نواحي فلسطين، مواقفا للصليبيين ومحارباً لهم، وكان ضعيفا، يُؤتَى له أحيانا بقاطع طريق بين الكرك والمدينة المنورة، ويقال له: «إن هذا قاطع طريق، وقتل أحد أفراد القافلة»، فيقول: «اطلقوه، فالحيّ خير من الميّت». ولعل هذه الكلمة كانت تعجبه، ولما يبدو فيها من مظهر جميل خادع. واستمر على هذه الحال، حتى استشرى أمر قطاع الطرق، لما عرفوا أنه ليس هناك عقاب. فوصل بهم الأمر يوما أن أغاروا على مضرب خيامه وسرقوا ما فيها.

فلما مات، وتولى خَلَفه، انتهز فرصة أول حادثة قطع طريق، فاحضر مشائخ المنطقة التي حدث فيها قطع الطريق وكبّلهم بالحديد، وقال: «إن لم تأت قبائلكم بالقاتل فسوف أقتلكم». وكان جادّا في تهديده، فلم يمض الوقت المحدد إلا والقاتل قد أحضر، فقتله، وأخلى سبيل شيوخ القبائل، بعد أن توعّدهم أنه إذا عاد أحد في منطقتهم وقطع الطريق فانه سوف يأخذ المحسن بذنب المسيء، فاستقامت الأمور، وأمن الطريق وانتظم.

الحزم، يا بُني، من الحاكم العادل له فعل السحر، إستمع لهذا البيت الجميل:

فقسا ليزد جروا ومن يَكُ حازماً
فليقسُ أحياناً على من يرحم

بدأ الملك عبدالعزيز لتوطيد ملكه برنامجا منظما، لم يخرج عنه إلا إذا اضطر إلى ذلك. وبدأ بنواة

الملك وعاصمته الرياض، فثبّت ملكه فيها وحصّنها، ثم أخذ يراسل أمراء المدن الكبرى في المناطق، فمن أطاع ثبّته وأكرمه، ومن عصى وضع في حسبانه ضمّه بقوة عندما يحين الوقت، ثم بدأ بأقرب المناطق إليه، وبدأت رقعة الملك تتّسع.

وكان بعض الحكام يبدؤون العداء حقدا أو حسدا أو طمعا، وربما أنه لم يكن بحساب الملك عبدالعزيز ضمّهم، ولكنهم جلبوا الأذى على أنفسهم، إذ وقفوا شوكة في طريقه، فاضطر إلى إزاحتهم. وسلّ سيف الحرب حينا، ومدّ يد الدبلوماسية حينا آخر، وأبرق وأرعد قبل بعض المعارك، وأظهر أمر القتال، وتسلل بخفية إلى بعضها، وفاجأ عدوه، فأخذه بغتة. واحتال في بعضها، والحرب خدعة، فأظهر أنه يريد غزو جهة ما وفاجأ أخرى مغايرة لها في الاتجاه، فإن كانت هذه في الشمال أو الشرق ذهب للجنوب أو الغرب.

وأصبح اسمه ملء السمع والبصر، يخافه من يخافه، ويرجوه من يرجوه.

أخذ المناطق واحدة تلو الأخرى، واستولى على المدن تباعا، واستعان بها أخضع على ما لم يخضع، يثبت ما يستولي عليه بالقوة أو التسليم، بالعدل والتسامح والكرم وحسن المعاملة، له لمسات إنسانية مع من يسلم له أو ينقاد طائعا أو كارها تَقْلِب العدوَّ صديقا، والمبغض محبا، والمدبر مقبلا، والنافر منقادا. ووضع قاعدة عامة لتعامله مع الناس أملتها طبيعته وتجربته في الحياة. ولم تكن هذه القاعدة تستعبده وإنما كانت طوع أمره يخرج عنها أحيانا لمعاملة بعض من يرى أنه يحتاج معه إلى معاملة خاصّة.

كانت سمعته في تحكيم الشرع، ونشر العدل تسبقه، وتمهد له الطريق، وتجعل عدوّه يفقد مَنْ حوله من الأنصار، وإن لم ينحازوا مع عبدالعزيز وقفوا على الحياد، وحصل في زمنه ما لم يكن يحصل في زمن غيره، إنقسمت بعض القبائل فصار جزء منها عليه وجزء منها معه، وحارب من معه من القبائل أبناء عمهم بإخلاص له وتفان. وحارب في

صفه قبيلتان كانتا في الماضي لَدُودتين، بينهما من الحروب ما كاد يفنيهما. وكان يخرج من معركة ويدخل أخرى. يدخل واحدة ويتصدى لثانية، سيفه مصلت وجواده مسرج، وعَلَمه يرفرف دائما ذاهبا إلى معركة أو عائدا منها. يبرأ جرح، وينكأ جرح، وهو مشمّر عن ساعده واضعا أمام عينه هدفه الأساسي.

صيته في الكرم طبق الآفاق، فمهّد له كثيراً من المسالك الوعرة، وسهّل له منها ما كان صعبا وأنزل ما كان حزنا، وهو في مجتمع يقدر الكرم ويجل الكريم. وكان في وقت من الأوقات، يا بُني، في عسرة ضاكّة من قلة المال، وفجأة وصلت إليه مبالغ تفوق ما كان يتوقعه، فأخذ يفرقها، وكانت ذهبا أحمر، فنظر إليه أحد محبيه وجلسائه نظرة عتاب، وفهم الملك عبدالعزيز قصده، فقاله له، رحمه الله: (أردت أن أجرّب نفسي، هل «أقواها» أو «تقواني؟») أي هل أتغلب عليها وهي تدعوني إلى الامساك أو أغلبها بالانفاق؟

فلما انتهى، يا بُني، من تثبيت اركـان الملك، ووطّد ما استرد من ملك آبائه، أكمل تنظيم أموره الداخلية والخارجية من نشر المحاكم الشرعية وفتح المدارس وتشجيع العلم وطلّابه ونشر الكتب، وتنظيم الجيش والشرطة، وترتيب الإمارات وشؤونها، وتعبيد الطرق، وتنظيم الدّخل والصرف، والتغلب على بعض المشاكل الاقتصادية، وما بقي من تنظيم أمور الحدود، ووضع البرامج لراحة الحجاج، وتشجيع الزراعة والمزارعين، والتجارة والتجار. والتفت لتأمين السابلة، وراحتهم، بحفر الآبار وإيجاد المراكز في الطرق الطويلة. وأدخل الوسائل الحديثة من سيارات وطائرات وتليفونات وبرقيات ومكنات للكهرباء والزراعة. وأنشأ السفارات والمفوضيات والقنصليات.

وصادف، وهو في معمعة الاصلاح هذه، ومتابعة التطور، والتمهيد لإدخال ما يتلاءم منه إلى بلاده، ووضع البرامج والخطط لتحديد

الأولـويّـات، أن قامت الحـرب العـالميـة الثانية، فأضافت عسرة إلى عسرة، وصعوبة إلى صعوبة، ولكنه، وهو الذي تعوّد على مواجهة المشكلات. ومقـــابلة الصعـــوبـات، تغلب على ما جاءت به الحرب، من أزمة اقتصادية، وأخطار محيطة، تهدّد أمن بلاده وسلامتها. وانتهت الحرب، ولم تؤثّر في جانبـه السيـاسي بندبة. ولم تترك خدشا. وتنفس بعدها الصعداء، وشمّر عن ساعده ليكمّل الطريق الـذي كان بدأ السـير فيـه بهمّـة ونشـاط، وبعزم وتصميم، ويسير في ضوء خطّة متقنة، ويبحر على هدى عقل رصين، وتجربة ناضجة.

كان محترما من جميع من عرفه، أو سمع عنه، لوفائه بكلمته، ومحافظته على رجولته، واتّصاف ما يأتي منه بالحكمة والرزانة والعقل، وتحكيم المقاييس المرعيّة عالميا ومحليا. لم يكن من المتقلبين، ولا من المهـاتـرين، ولا من المساومين، ولا يظهر غير ما يبطن، ولا يبطن غير ما يظهر. سَحَر كل من قابله من الداخل أو الخارج، ببساطته وصراحته، وذكائه

وثاقب بصيرته. ثقته بالله ثم بنفسه جعلته لا يتصنّع ولا يمثّل ولا يحابي ولا يداجي، وجدوا فيه كتابا مفتوحا سهل القراءة، ليس فيه طلاسم ولا رموز. رأوا فيه ابن الصحراء الأصيل الذي يسمعون عنه، وتطلعوا إلى رؤيته ومعرفته. عرف الله وراقبه فجاءت أعماله موفّقة، وتصرفاته مسدّدة. كان يأمر أمرا فيندهش المنفّذون لما يبدو لهم من عدم صوابه، فإذا مرّت الأيام تبينت لهم الحكمة التي لم يتبينوها حينئذ. مرماه كان بعيدا. نظره الثاقب يجعله يرى ما لا يرى كثير من الناس. يفكّر من حوله في جانب من الأمر، وهو يفكر في كل جانب منه، ويعرف، وهم لا يعرفون، الجانب الأهم.

كل ما قلته، يا بُني، مبنيّ على قصص ووقائع، استخلصت منها الأحكام التي وصفته بصفاتها. وسوف أضرب لك مثلا عما ذكرته عن حرصه على أمن الناس، والبعد عن سفك الدماء، التي لا يحفل باهدار أنفس اصحابها عادة الذين يخوضون الحروب. وتعطيك الحادثة التي سوف أسوقها فكرة

عن نظرته البعيدة للمستقبل، فهؤلاء، الذين كانوا مع غيره ضدّه، إذا ظفر بهم عاملهم على أنهم أفراد شعبه في المستقبل، وتوفيره أرواحهم قوّة له حينئذ. ثم خوف الله سبحانه الذي كان يملأ قلبه، ويطالبه بالعدل في كل أمر، صغير أو كبير، حَكم تصرفاته فيما مضى وما لحق:

كان ساريا في إحدى الليالي نحو أحد أعدائه، ومعه ثلّة من جنده، وكان راكبا فرسه، ومستعدا لأي طارئ أو مفاجأة تحدث. وعثر على رجلين من رجال البادية على جمل لهما. فأوقفهما وسألهما عن الجهة التي يقصدانها، والجهة التي أقبلا منها. فأخبراه، فلم يقتنع بما قالا، وشعر بفطنته وتجربته أنهما غير صادقين، وأنهما بما قالا يغطّيان عن الجهة الحقيقية التي قدما منها، والجهة الحقيقية التي يقصدانها. ففاجأهما باتهامهما أنهما «سبور لعدوّه»، فأنكرا، فانتزع أحدهما من مكانه، ودكّه بين يديه على سرج الحصان، و«هذب»

به بعيدا حتى أخفاهما الظلام. فسمع أصحابه طلق نار مرتين من مسدس، وبعد لحظات عاد عبدالعزيز، وأهوى لينتزع الثاني، فانهار، وأقّر بالحقيقة. وأخبر أنه وزميله كانا في مهمّة تجسس لعدو الملك عبدالعزيز، وأنه في المكان الفلاني. فسأله الملك عبدالعزيز «ما اسم زميلك الذي انتزعته من خلفك قبل قليل؟» قال: «فلان». قال الملك عبدالعزيز: «ناده». فناداه فجاء يجري، ولم يكن أصيب بسوء. وقد استعمل الملك عبدالعزيز هذه الخدعة ليقرّ هذا بما لم يقرا به من قبل. وأوهم هذا أنه قتل زميله، وأنه سوف يلحقه به، ونجحت الحيلة كما رأينا. وقد أبقاهما الملك عبدالعزيز معه. وقال لهما إنه سوف يُغير على عدوه هذه الليلة، فإن وجد أنهما صادقان فيما أخبرا عن محلّ عدوه، فسوف يخيرهما بين أن يذهبا أو يلتحقا بخدمته هو. وإن تبين له

أنهما كاذبان فسوف ينالهما عقابه .

الوقت وقت حرب، وسفك الدم جار ليل نهار في المعارك، والجاسوس ذنبه كبير، ويستحق على تجسسه القتل إذا مسك بهذا الذنب. ومع هذا فعبدالعزيز لم يتصرف تصرف الرجل العادي الذي يسيّره زمنه دون فكر وتبصّر، وإنما تصرف تصرف ملك مع فرد من أفراد رعيته في المستقبل. وعَمَل مثل هذا، يا بُني، روعي فيه وجه الله، لابد، أن يثمر ثمرة يانعة. لعلّ هذه القصة لا يعرفها إلا القليل، ولكنك، يا بُني، عرفتها وسيعرفها غيرك، وستقول ويقول غيرك، بعد سماعها، يرحمه الله، وهذه إذا قالها من هو قريب من الله فأَجْرُها عظيم، وهذا أحد أوجه البركة في العمل المبارك، وعمل عبدالعزيز هذا كان مباركا.

لا أريد ، يا بُني، أن أقارن عمله هذا بعمل حكام آخرين معاصرين له لم ينجحوا، وانتهوا لأنهم لم يكن عندهم ما عنده من الحكمة والرزانة

والخوف من الله ومراقبته. لا أريد أن أقارن رغم أن هناك حوادث لهؤلاء الحكام تَشيب لها النواصي من كثرة سفكهم للدماء دون داع، جنوا ما حصدوا بضياع ما بأيديهم، وكسبها ـ رحمه الله ـ لأن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الشعب الرحمة، فجعل مصيرهم بيد رجل هذه سيرته أيام الحروب، فكيف بأيام السلم.

يا بُني، زمنه كان فيه خيّرون مثله قدروا مواقفه وتصرفاته، ولهذا ناصروه وعضّدوه، وتفانوا في خدمته، وهو يشقّ طريقه يدوس الأشواك، ويتخطى العقبات، ويصارع الصعوبات. لا يقف في طريقه قرّ ولا حرّ، ولا يثنيه عن عزمه جرح ولا مرض، ولا يثبط من عزيمته قلة ذات اليد، ولا يحدّ من اندفاعه تكالب الأعداء، ولا ترهبه قوة ولا عدد عدوه ولا عدته. ووجد قوما يماثلونه في الأمل في أن تصبح هذه الرقعة من الجزيرة أرض أمن وسلام، لأنهم ضاقوا بما عانوا مما لا يتناسب مع طبيعتهم. فطبيعتهم مثل طبيعته: رغبة في الاستقرار، وبعد

عن الخوف. اسمع أحدهم، وقد اجتمعوا في إحدى الليالي ليذهبوا سريّة في إحدى المدن إلى الحرب، في ليلة داكنة، يقول لمن يقدمهم مخترقا طرق المدينة الضيّقة: «طرّق يا فلان وأنت تمر «بالقبّة» أو «المجبّب» حتى لا نَطأ أحدا أو ندوسه بأخفاف الإبل». هؤلاء الذين في طريقهم إلى الموت، قاتلين أو مقتولين، لم يلههم هذا عن أن يحرصوا ألا يؤذوا من لم يطلب الأذى. إنها بذرة الخير في هذه الأمة التي وجدها عبدالعزيز أرضا صالحة فبذر فيها نبتة مباركة، وبقيت هذه النبتة، هذه الروح الخيّرة يتعهدها أبناؤه من بعده أمانة في أيديهم. وهذا ما يجعل المملكة اليوم معروفة بحبها للخير، وبعدها عن الشر. همها تطويرُ نفسها، ومساعدة من يريد أن يساعد نفسه.

الحديث، يا بُني، عن الملك عبدالعزيز، رحمه الله، ممتع، وواسع، وأكاد لا يطاوعني القلم في رفع يدي عن الورقة، وأجده يجاذبني لأن أعطي أمثلة عما ذكرت أنه يكمن وراء الصفات التي ذكرتها،

وأخشى، إن أنا استرسلت، أن يخرج الموضوع عما أردته له. وأخشى أيضا أن أبدو وكأنني أحصر ما لدي، وما لدي كثير، ويحتاج إلى تفرغ وتفكير ليُعطَى حقه، وأخشى أيضا أن آتي بما قد يكون مبتورا، لأني لا أعرف منه إلا طرفا.

على أي حال، يا بُني، الذي قصدته هو أن تعرف أسباب تبجيل جيل أبيك وجدك للملك عبدالعزيز، والأسس التي بنى عليها ملكه. وأسباب الرخاء والرفاه الذي تعيشون في ظلاله، أريتكم بعض الجذور التي ترون بسهولة ما هو حاضر اليوم بسببها. وأنا - كما تعرف - في الأصل، قصدت المقارنة بين زمن وزمن، ومن قارن الأمن وانعدامه قبل الملك عبدالعزيز، والأمن وتوفّره في زمنه وبعده، أدرك النعمة التي يرفل فيها جيل اليوم، مما لم يأت بسهولة. والإدراك هذا يستلزم الشكر والعض على المنجزات بالنواجذ.

لا أحتاج، يا بُني، أن أطيل في وقتنا الحاضر،

وأنت وجيلك يشهــده، ويعـرفـه حق المعـرفـة، ويتمتـع، والحمـد لله، بنعمة الأمن والاستقرار، تحوطهـا عنـايـة الله ثم العـدل الذي ينشر لواءه، وحـرص وليّ الأمر على أن يسير في اطار الشريعة السمحة في كل أمر يقدم عليه، أو سبيل يسلكه. فأنت اليوم تسير في طول المملكة وعرضها لا تخاف من قاطع طريق أو «قوماني». اختفت الأسوار التي على المـدن، وحلت محلهـا مثبتـات الأمن: مراكز للشرطـة، ومـراكـز للاطفـاء، وسيـارات نجدة، وشرطة مرور، وحرس وطني، وجيش محترم مجهّز على أحـدث طراز، وبحـريـة تحمي الشـواطىء، وطيران يحمي الأجواء، ومدافع ودبابات من أحدث ما اخترع، مجهزة بمعدات حديثة، وخفر للسواحل يقظ، ودوريات بين المدن.

كلما فكرت في الأمر وجدت أن الذي جاء بهذه النعمـة هو مراعاة خادم الحرمين وأعضاءه وشعبه (الحـاكم والمحكـوم) لله، وبسط دينـه، واعـزاز كلمته، مع اخلاص تام، ونيّة صادقة، ورغبة من

الجميع في أن يعم الرخاء والراحة والاستقرار للجميع. كل في جانبه قائم بما توجبه الطاعة والتقوى، وهي المرادف لكلمة الضمير في التعبير الحديث.

ان سعي خادم الحرمين وولي عهده، وهما ابنا الملك عبدالعزيز وتربيته، ومن عاش في كنفه وهما صغيران، يجلسان في مجالسه، ويسمعان أقواله، ويريان أفعاله، ويستقيان صفاته، ليكون الحكم مثل حكم الملك عبدالعزيز، رحمه الله، مع تطور يتناسب مع العصر الحديث، وما فيه من مخترعات، وما يتطلبه من مستلزمات، ولم ينسيا الجانب الروحي، وهما ينتقيان من الانجازات العلمية ما تحتاجه بلادهما، لأن الجانب الروحي أهم من الجانب المادي. ولهذا ركزا في التعليم والتربية على الأمور التي تبقي الفرد في الحدود التي يرضاها الله، فلا ينجرف الناس فيما انجرف فيه من لم يولوا هذا الجانب المهم ما يستحقه من عناية.

في بعض الأقطار المتمدنة، يا بُني، وصلوا إلى

مرحلة من الانجاز العلمي جعلتهم في راحة تامة ظاهـرا، وناقصة كل النقص باطنا، لأنهم اهتموا بالمادة ونسوا ما يلزمها من إطار روحي: يفتح الباب بزرّ ويغلق به، تفتح النافذة بزرّ وتقفل به، يسخّن الأكـل في الفـرن بزرّ يتحكم فيه عن بعد. يفتح بمثل هذا التلفزيون ويغلق، وبمثله يتصرف مع الفـديـو. راحـة تبدو متكاملة، ولكن أحدهم لا يستطيع أن يخرج من بيته في الليل عشرة أمتار دون أن يحس بقشعـريـرة من أي انسـان يقـترب منه، ويـرجف قلبـه عند كل منحنى من الشارع مما قد يفاجئه من المعتدين من المجرمين. بل قد يهاجم في رائعة النّهار في مدينة سكانها ملايين، ويرى الناس ما يجري عليه، فلا يلتفت أحد إليه، ولا يجرؤ على نجدته. هذه، يا بُني، راحتهم، مبتورة ومشوّهة، لأنهم أهملوا الجانب الروحي. ركضوا مع الجانب العلمي، والانجـاز التقني، وأغـراهم بما فيـه من مفاجآت، وما ظنوه مَجْلبةً للسعادة، وبعد أن توغلوا ولم يعد بامكانهم أن يقفوا ويتدبروا، بدأوا يشعرون

بالنقص، ويحاولون إكماله، ولكن بعد أن فسد جيل يحتاج في إصلاحه إلى جيل كامل، وأين هذا الجيل؟!

أخذوا يعبثون، منذ قرون، بدينهم، ويبعدونه عن حياتهم، فوقعوا في قبضة المادية، وهذه قادتهم إلى حكم الغاب، يرحمون المجرم وينسون المُجْرَم في حقه، يؤوّلون الأمور ويلبسونهَا أكثر مما تتحمل أن تلبسه، تقودهم إلى هذا بحوث بيزنطية اختفى وراءها أناس لهم مصالح فردية أو جماعية. أرأيت الاباحية كيف راجت عندهم وكيف انتشرت ثم استشرت إنما جاءت من منطلق الحرية، العملاق الذي أخرجوه من قمقمه فأكلهم. الحرية التي تركت حدودها لكل مجتمع يحددها كيف يشاء. كان من مظاهر الحرية أن كتب ساقطون عن حياتهم الساقطة بكل ما فيها من فتن وإباحية، وتركوا للشباب رضاعها والتروّي منها والتردّي في حفر التجربة لها. كتبت اعترافات تخدش الحياء والشرف واللياقة، ونشرت على الملأ، واعتُبر أصحابها أبطالا

يقدَّمون في صفوف المربين، وتمجَّد افعالهم وأقوالهم، وانزوى أصحاب الشرف والحياء واللباقة والخجل.

وجاء وقت قطاف الثمرة فكانت ثمرة عفنة، فاحشة تعمل على الأرصفة، وفي مدرجات الجامعات، وقوانين تسن لتحمي الشذوذ بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والحيوان. وارتوى الناس ماديا وشبعوا، وجاسوا خلال ديار اللذّة وجنباتها فلم يكفهم ما هم فيه، فبحثوا عن الشهرة والصيت ولو كان سيئا، وأرادوا ان يُعرفوا «ويشتهروا ولو بالإحداث في المعبد» فمشى أحدهم وقد صبغ وجهه، أو شوّه رأسه وشعره، أو لبس لباسا فيه من السخرية ما يخجل منه الرضيع. ولم يعجبهم هذا، فبحثوا عن المخدرات، فوجد مروجوها بيئة صالحة، ومجتمعا فاتحا ذراعية، فعاث هؤلاء في بضاعة هؤلاء، وعاث هؤلاء في أموال هؤلاء.

واستفادوا للسقوط والانحدار من وسائل العلم الحديث، فسخروا الأقمار الصناعية لبث البرامج المؤذية للحياء، والخادشة للكرامة، والجالبة للمآسي العائلية. وغذوها بأفلام عن قصص خليعة، وروايات تثبت الاجرام، وتدعو إليه، تتفنن في التشويق على المتابعة، وعرض طرق الاجرام المبتكرة. تكاد تجمع على إعطاء الأداة المتقنة لمن عنده استعداد للاجرام، وتكاد تتفق على ترويج فكرة صواب رأي الشاب أمام رأي ابيه، والبنت ضد رأي أمها، والعامل ضد رب العمل، والفرد ضد المجتمع. تجمع على محاولة طمس الماضي بخيره، وابراز الحاضر بشرّه ملبسا ثوب المسوح. تكاد تظن أنت أن وراءها تخطيطاً قصد به «إشقاء» العالم.

وتفكر ثم تفكر وتعود لتفكر وتتبصر فلا تجد، يا بُني، أن هناك شيئاً نقصهم إلا بعدهم عن الله، وعن دين سليم يجمعهم. أنظر إلى الاسلام يا بُني، دين التوحيد في كل شيء، ليس فقط في توحيد الله

سبحانه، وانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. بل حتى في الأمور التربوية، يعلمك كيف تسلّم، وكيف تأكل، وكيف تمشي، وكيف تلبس. برنامجك اليومي كله مرسوم بدقة، وبعناية. وأنت تنفّذه وأنت مسلم في غرب أفريقيا، وينفّذه معك دون اختلاف يذكر مسلم في اليابان أو أمريكا. قاعدة واحدة يا بُني في الشرع سبقنا بها في الإسلام: نظام المرور المعترف باتقانه في العالم: «تيامنوا فان في التيامن بركة»، أرأيت، يا بُني، كيف نزعت البركة من البلدان التي مرورها تسير السيارات فيه من اليسار بدلا من اليمين. أرأيت «الربكة» والخلط الذي يحدث للسائح عندما يصل إلى هذه البلدان. وأراد بعضهم أن يصلح الخطأ مثلما حاولت انجلترا، فرئي في عام ١٩٥٥ أن هذا سوف يكلفها ثمانين مليون جنيه استرليني، وهذا مبلغ عظيم في ذلك الوقت. ويكاد يقتصر التغيير على تغيير لافتات الشوارع والعلامات الأرضية، لو فكروا اليوم في

هذا لدخلوا «خانة» البلايين.

يا بُني، الحديث ذو شجون، ولو تركت لنفسي العنان لوجدتني كالواعظ ولا ألام وأنا أرى ما أرى حولي، وأدعو الله كما أود منك وجيلك أن يدعوه، أن يحمي بلادنا، وأن يوفق ولي امرنا واعضاده، ويبعد عنا الشرور. وابق يا بُني، انت وزملاؤك، وأبناء جيلك، متبصرين مقارنين. واختاروا، مما ترون، المخّ لا القشور، واحذروا - ما أمكنكم الحذر - خضراء الدمن، فان للشر بريقا يخلب الأبصار، ويعمي البصائر، وكونوا ناضجين رغم صغر سنكم، فعقولكم فيها الأمل أن تكون خيرا من عقولنا، لأن أجسامكم خير من أجسامنا، لأن الله هيأ لكم من الغذاء ما لم يهيء لآبائكم.

ولا أنسى، يا بُني، ان أذكرك بحمد الله وشكره، فهذا يجعلك على صلة به، ونعم الصلة، وأرجو أن يقبل منك التفاتتك إليه، ورجاءك له، وأملك فيه، وطمعك فيما عنده، فنعم الطمع فيما عند الله.

اطلب من الله ان يديم الأمن والاستقـرار والدعة والازدهار لبلادك، واسْعَ انت وجيلك لبقاء هذه النعم وازديادها.

الفهــرس

المقـــدمـــة ١٣

الزير والقربة والثلاجــة ١٤
البئر وعدتهـا ١٦
الــروّايــات ١٧
الماء بعد الأكل ٢١
الســـقاؤون ٢٣
مسلمة مع الشـعـراء ٢٨

الموقــد والمطبــخ ٣٠

ادوات المطبــخ ٣١
الحطّـــاب ٣٢
ابيات عن الشــيب ٣٣
الحطّاب والحطــب ٣٥
الأباء في صغرهم ٣٨
جحــا والتمــر ٤٠
الحطــب ٤٢
الجــلّه ٤٣
التهرّب من لعب الكرة ٤٤
الحطاب والتّمر ٤٥
جحــا والطبــخ ٤٧

الجمــل والســـيارة ٥٠

مداعبة الرسول ـ للعجوز ٥٣
مداعبة عبدالله بن عمر مولاته ٥٤
مداعبات الصحابي نعيمان ٥٤
البعير وصاحب الزند ٥٨
قصة مشكل ومشيكل ٦٤
الجمل وحقـــده ٦٧
الــدود في انف الجمــل ٧٠
الجمــل البــارك ٧٣
الحصـــان ٧٤
الحمـــار ٧٥
الحمار في الحفرة ٧٧
مـروان والحمـار ٧٨
الحمير على الأسفلت ٧٩
البغــال ٨٠
البرسيم للســيارات ٨١

الكابــون والطشــت والغســالة ٨٤

ابيــات أبي نواس ٨٩
سليمان والغراب ٩٠
السائـس والفراسـة ١٠٠
فراسة الإخـوة الثلاثة ١٠٣
فراسة إيــاس ١٠٤
حــذام والقطا ١٠٦
عارفـة الظفــير ١٠٨

الجادة والزقاق وخط الأسفلت ١١١

السائق وبويب ١١٨
طريق كرا والسيل ١٢٠
عقبة شعار ١٢٤
الحبلة ١٢٥
الدرويش الهندي ١٢٧
قطع الطريق ١٣٧
بنزين السيارة ينتهي ١٣٧
متعلم القيادة ١٣٨
سيارة تسدّ الطريق ١٣٩
سيارة تدخل المنزل ١٣٩

خبز التنّور والصامولي ١٤١

الحقل والحرث ١٤٣
تعاون الفلاحين ١٤٤
حفر الآبار ١٤٦
سقي الحقول ١٥١
أبيات ابن دريد في النحو ١٥٢
صيد العصافير ١٥٣
العاطفة ١٥٨
خزانة السلطان ١٥٨
المنحات ١٦٢
الرّحى ١٦٤
التنوّر والفرن ١٦٧
نكران المعروف ١٧٢

الدوشق واللحاف والمرتبة ١٧٤

أم العنزين ١٧٥
الفراش ١٧٨
النّاموسيّة ١٨١
البعوض ١٨١
وصف ابن شهيد للبعوضة ١٨٦
عودة للفراش ١٨٦
الطريق وحقّها ١٨٨
القاضي النّطّاح ١٩٠
غرف النوم ١٩٢
السرير ١٩٤
الديك والجوهرة ١٩٧

أمّ العوف وبنت الجرسي ٢٠٥

الحليب ٢٠٥
النساء والطبخ ٢٠٧
الأبقار ٢٠٩
الدولة والغذاء ٢١٠
المرضع ٢١٣
السّقاء واللّبن ٢١٥
الحليب وتعقيمه ٢١٧
البقر والبيوت ٢١٧
الأطفال والبقر ٢١٩
شعر ابن نفطويه ٢٢٠
قطيع البقر ٢٢٠

المـرّ والحلتيت والبنـدول ٢٢٣

الضـتّ (دواء العين) ٢٢٥
الجـدري والحصبـاء ٢٢٦
الإسهـال والرّضـع ٢٢٦
الكـيّ ٢٢٧
الكـيّ ٢٢٧
العين والشـمم ٢٢٩
طبيب القـريـة ٢٣٠
معلّـم الكتـاب ٢٣٤
المسـتوى الصـحي ٢٣٥
البيبـس ٢٣٧
حـروف الجـر ٢٤١
على ضـوء ٢٤١
الطفـل والنّحـو ٢٤٢
صحّـة البيئة ٢٤٤
تحليل الدّم ٢٤٧
الاشـعة والكسـور ٢٤٧
القوّاد والمعـارك ٢٤٩
سـباق السّيّارات ٢٥٠
الإسـعاف ٢٥١
الرّعاية الصحيـة ٢٥٢
الصّحـة في المـدارس ٢٥٣
ريـال فرانسـه ٢٥٤
صحّـة العيـون ٢٥٥
صحّـة الاسـنان ٢٥٦
عـلاج القلـب ٢٥٧
سـيجارة ٢٥٩
الدخـان ٢٦٠
الشـاب والدخـان ٢٦٤
المقلـع عن الدخـان ٢٦٥
ثقافة الجيل ٢٦٨

سـراج التّنـك والفانـوس ٢٧١

سـراج الـودك ٢٧٣
فانوس القـاز ٢٧٣
البخيـل والفتيلـه ٢٧٣
القمـريـة ٢٧٤
الإتـريك ٢٧٥
الخـرازون في العيـد ٢٧٨
الخـراز والاكـل ٢٧٩
الكهـربـاء ٢٨١
المروحة في سويقـة ٢٨٣
المـراوح والمكيّفـات ٢٨٥
السمّور ٢٩٠
ابيـات عـن السـراج ٢٩٤

الـدار والبيـت والفَيـلا ٢٩٦

بُيـوت الطـين ٢٩٦
اغنيـة البنّائيـن ٢٩٨
نبـت الصحـراء ٣٠٠
الحصـاوي ٣٠١
شـماريـخ العقـرب ٣٠٤
الحضـر في الصحـراء ٣٠٦

بيوت نجد ٣٠٧
بيوت مكة المكرمة ٣٠٨
العنز في الذرج ٣١١
بيوت اليوم ٣١٤
الاثاث الحديث ٣١٦
أبو جعفر والشيخ الشكور ٣١٨

الأمن والخوف ٣١٩

فقدان الامن في الماضي ٣٢٠
قيام رجل من نومه فزعاً ٣٢٤
اللص التائب ٣٢٧
قدر الحاج ٣٣٢
بفجة الحاج ٣٣٣
جهود الملك عبدالعزيز ٣٣٣
جهاده لتوطيد الامن ٣٣٤
ابرويز والمراة ٣٣٨
كسرى والعدل ٣٣٩
من قصص الأمانة ٣٤٣
الرجل وابنه والتّمر ٣٤٥
الحزم ٣٤٨
الملك عبدالعزيز وجهوده ٣٤٩
عدله وكرمه ٣٥٢
تنظيمه للادارة ٣٥٣
الحرب العالميّة الثّانية ٣٥٤
قصة الملك عبدالعزيز مع الجواسيس ٣٥٦
معاصروه ٣٥٩
الامن عندنا وعدمه عند آخرين ٣٦١

(١) **المحاسن والمساوى،**
للشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي
دار صابر ـ بيروت .

(٢) **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء للراغب الاصبهاني**
تهذيب واختصار إبراهيم زيدان
دار الآثار ـ بيروت .

(٣) **المراح في المزاح**
لبدر الدين أبي البركات محمد الغزي
ضمن مجموعة الرسائل الكمالية (١٢)
مكتبة المعارف ـ الطائف .

(٤) **نزهة الألباء في طبقات الادبـاء**
لأبي البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن الأنباري
تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي
الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن .

صور من الماضي

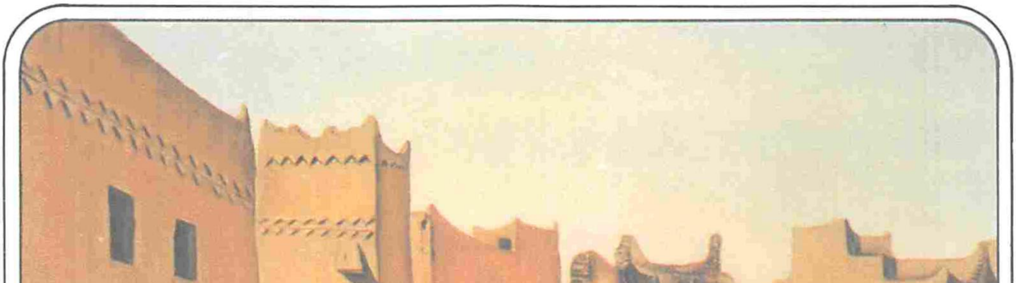

● منازل الماضي ●

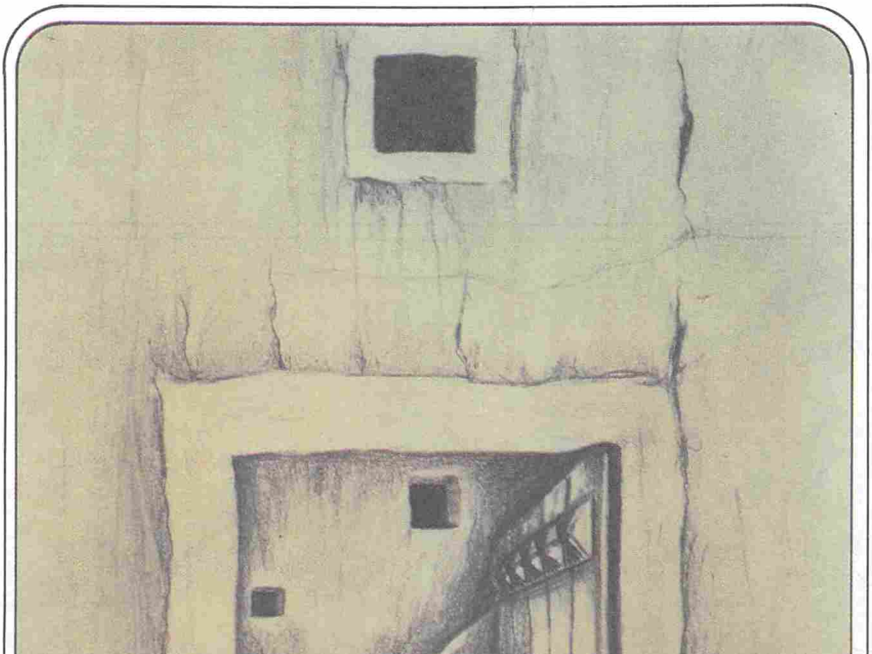

● باب الدار ●

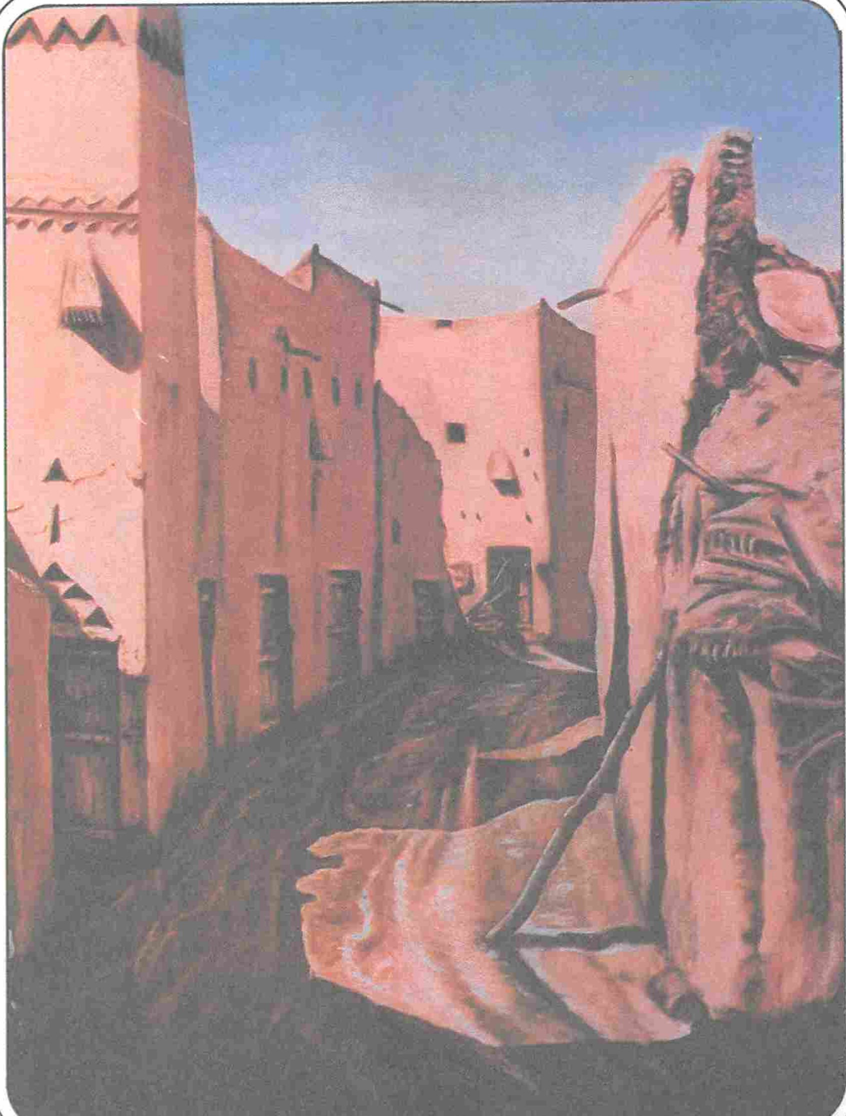

● الحي في الماضي ●

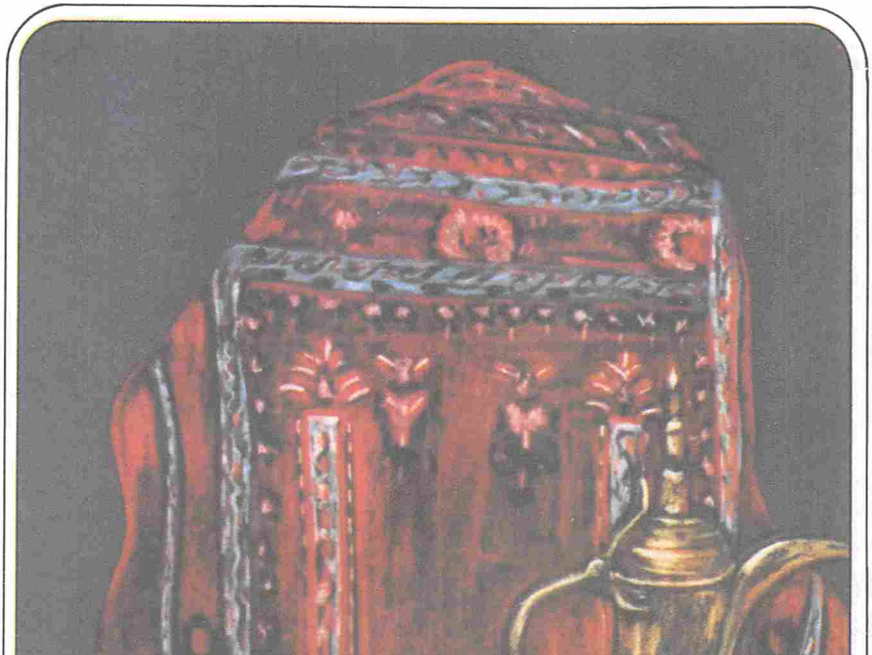

● مرحبا « الجود من الماجود »

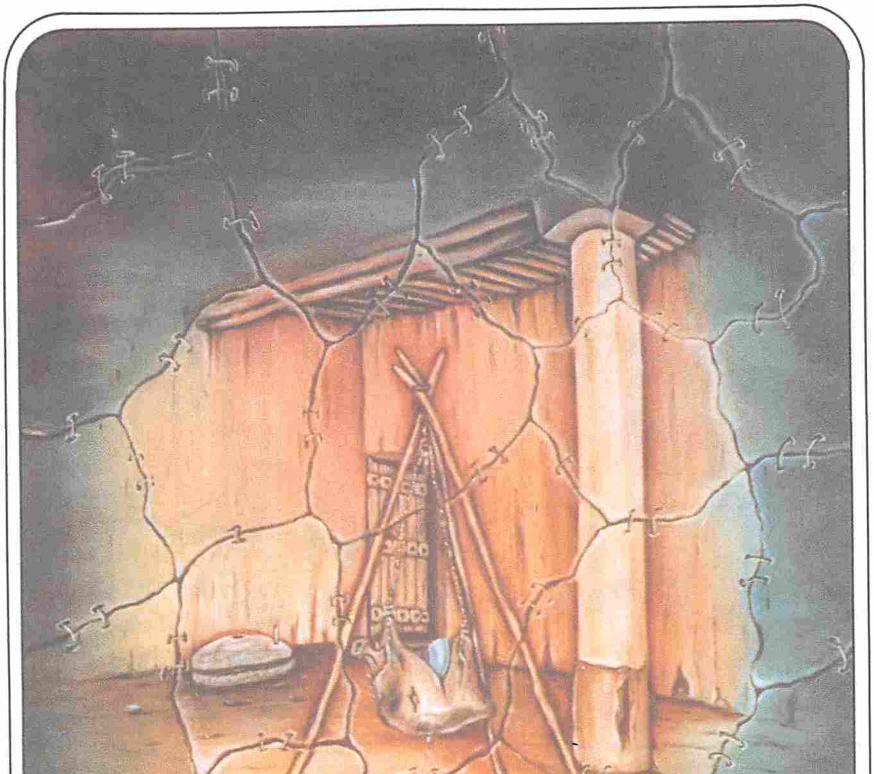

• القنـاره •

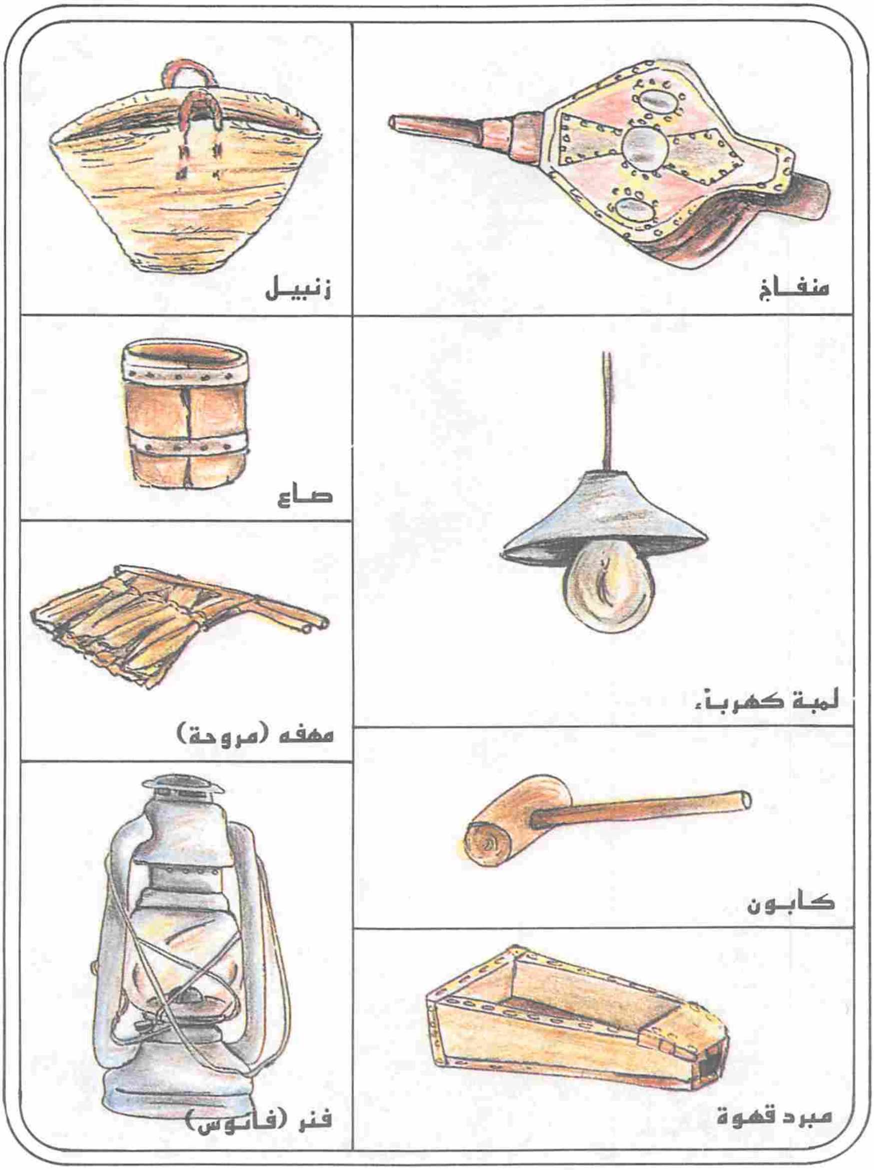

● من أدوات الماضي ●

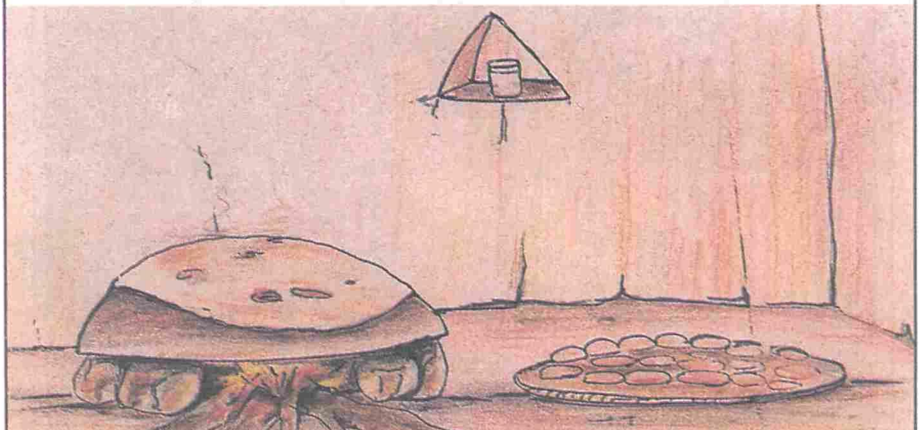

● من حياة الماضي ●

■ المقرصة والمثايل والروزنه ■

● المحال والغروب ●